المعنى القرآني

في رسائل النور

أ. د. عشراتي سليمان
جامعة وهران- الجزائر

المعنى القرآني

في رسائل النور

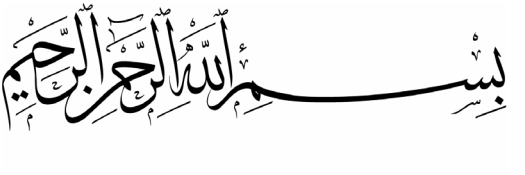
بسم الله الرحمن الرحيم

استفتاح

طالما أحس النورسي بسعة حجم القابليات العقلية التي متعه الله بها، وطالما تحدث عن ذلك حديث الحامد الشاكر (لا حديث المتبجح الفاخر)، إدراكا منه لأفضال الله التي لا تحصى وعلى رأسها نعمة الموجودية (والمخلوقية) التي رأى فيها أعلى درجات التفضل الإلهي على العباد.

ما العبقرية إذا لم تكن هذا التسديد الصاعق الذي ينفذ من خلاله العبد إلى منطقة الما وراء، ويلمس صميم الحقيقة!

الأفذاذ، يستشرفون الواردات على مدى مستقبلي قصي، لذلك تبدو المفارقة صارخة بينهم وبين العامة في ما يذهبون إليه من أفكار، وما يرتسمونه من محطات ويتوقعونه من مواعيد..

ولقد دأبت الجموع في كل عصر ومصر على الاستعصاء عن الانقياد لأفكار النيرين الخيرين بسبب انطباع النفوس على الاستجابة إلى الأسهل والأقرب والأبخس، الرهانات الكبرى مناطة بهمم الجبابرة، جبابرة الروح، ولم تقع الفتوحات الكبرى إلا لأمم وجماعات توفَّقَتْ فاستجابت لمشيئة روحانييها، وفي الساسة كما في أهل العرفان أقطاب نوادر تتقد في نفوسهم قناديل الروح، فهم من ثمة استشرافيون، يختزلون المراحل ويطوون المدى ويضعون أتباعهم على سكة المجد، في خطط انقلابية، خَلاصية، وفي قوة ودهش كما يفعل السحرة بعصيهم.

ولن تزال أسس التربية وفقه التنشئة وعلوم الحياة والمستقبل أنشطة ناقصة وبدائية وساذجة ما لم ترسخ في ضمير الأجيال قابلية الاستجابة لحداء أهل النخوة الروحية رجال الرهانات العظمى، أولئك الذين تبدو أفكارهم على شيء من اللامعقولية، من النبوة، من الجنون في مناهضة الشر والتفاهة والترهات..

كل الطفرات المجيدة أوقد فتائلها روحانيون تكهربت نفوسهم إيمانا بالحق الذي ظلت شعلته تنقدح في أذهانهم، وتجتذبهم إلى المجازفة، وتحدوهم إلى الانخراط..

لا جدال في أن قابلية السير ونشدان الخير تتوفر لدى الجماهير طرا، وأن الاستعداد

للانخراط خاصية تلقائية في الجموع البشرية جمعا، إنما الذي يشوش على الانطلاقات هم عادة الركوديون، المعاكسون للسنن ومنطق الأشياء ومسار التاريخ[1].. الرؤى العقيمة رؤى ركودية لأنها تنحاز إلى الواقع المهلهل تبرره، لأنها تجني منه ثمارا على حساب الغير والمستقبل، فتعمى عن أن ترفع بصرها وتنظر إلى الأمام.. حقا إن انفلاتات التحول حرب على تلك الرهوط، فهي إنما تموقعت في الأجهزة وتمكنت من الاستيلاء على المقاليد بفعل الفواعل والأفاعيل.. تصرفت باسم الأمة بلا أصالة ولا استحقاق.

أطوار العراك مثلما تفرز الأصيل الفذ -وقليل ما هم- تفرز الزائف الخسيس وما أكثرهم، فالحال معهم سواء كما هو الشأن في استخراج معدن الذهب، الأقيةُ تُستخلَص من تلال لا تحصى من تراب! لذا تتوطد الرداءة في البنى، وتتواشج حبائلها في مفاصل السدة طولا وعرضا، وتترابط بمبدإ الانتفاعية، و–من ثمة- يتكرس الركود، فلا تعود البيئة إلا موئلا للتفسخات والتجرثمات والتخمرات.

لا بدع أن تتحول الجماهير إلى عدو لكل طلائعي شريف لأنها تتلقى الأحكام من وسوسات شيطانية، من تدويخات الرهوط المستحوذة ومن ثقافة التعمية والتغطية التي يتمهرون في تعهد الرأي العام بها، استبقاء للاحتباس، فاستراتيجية أولئك الرهوط هي استراتيجية التركيع، إنهم موقنون من أن أي هزة حاسمة ستلفظهم كما تلفظ القشور في وعاء الزبالة.

الهدميون أيضا يجمحون بالجماهير ويحملونها على أحداث القفزة وتخطي الأشواط، لكن الفرق أن وثبة هؤلاء إلى الخلف، إلى الهاوية.

وحدها وثبة أهل الله[2]، ووثبة أولئك المتجردين البواسل، تكون إلى الأمام، في الامتداد الحيوي الذي يبني الإنسان ويصعد به أطوارا على درب الشفوف والكمال.

كيف تميز الجموع دعوة هذا من دعوة ذاك؟ وكيف تلبي النداء ما دام الدلالون على

---

(١) كل تعاليم القرآن ركزت على سنة التطور والتقدم وعلى مبدإ مضي التاريخية بالبشر نحو الأجل المحتوم (لكل أجل كتاب)، والأجل هنا هو التاريخ.. ذلك لأن العقيدة الإسلامية قد أرست نهائيا ثوابت الإيمان التي تستقر بها عوامل كمال السجية الإنسانية في تحولاتها المدنية المتلاحقة، وهو ما تسلم معه المثلُ على الدوام، وتستمر الطمأنينة والرضى، فلا يتربب العبد، ولا يُعصَى المعبود، أنى بلغت بالبشرية الأطوار والمحاصيل في ميادين الرقي والتقدم .

(٢) من أهل الله؟ العاملون قدر المستطاع على التحرك الذكي واللبيب والصارم في اتجاه إعادة الاعتبار الكامل (المادي والمعنوي) للأمة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

مختلف أصنافهم ودخائلهم يطيبون المقاصد ويُسَلِّعون العروض ويَعِدُون ويُمَنُّون؟ لا يجوز أن توضع اليد إلا في يد تقدس الثوابت وتعظم الشعائر وتؤطر منطلقاتها ومنتهياتها بالإطار القدسي الخالد.. لا جرم أن السوق عجت بالمتلبسين المتقنعين بالقناع الديني الخادع، لذا توجَّب الحذر من هذه الاصناف بنفس القدر المطلوب الأخذ به إزاء الكائدين للهوية بتلفيقات المبادئ المريبة والفلسفة الدخيلة والإيديولوجية الوضعية السافرة، لأن مرامهم في المحصل النهائي هو دنيوي، يعتدُّ بالعاجل دون الآجل.. العارض على حساب الخالد.

ويقع التمويه والتغليط من صدد دعاوى مطلب الاعتدال ومنطق الموازنة بين الدنيوي والأخروي.. وهو شعار مقبول لولا أنه كثيرا ما يخفي وراءه مقاصد انحيازية انتهازية مهينة.

لا ريب أن المطامح العليا مطامح جذرية في رهاناتها، والأنبياء وفي مقدمتهم محمد ﷺ بخسوا دنيا الامتهان الروحي والمادي واختاروا بدلها الأنقى ، الأبقى ، والدائم..

لم تكن الطفرات إلا قطائع تاريخية نوعية تنعطف بخط الزمن نحو الجادة، نحو آفاق استكمال القوامة، قوامة الاستختلاف.

لا غرابة أن يتحدث الرسول الأعظم ﷺ في خطبة الوداع عن استدارة الزمن، إذ في معنى الاستدارة التجدد والشبوب والانبثاق بدم الفتوة والعذرية والعذوبة والشفوف.

الحداة الأطهار يمضون متخفِّفين، بلا حمل، يقينا منهم أن الرحلة الجادة لا تحتمل الأثقال.. المراهنون على تخطي نفق الانبخاس المعنوي لهم سَمْتُ التجرد، كالرياضيين يقتحمون المضمار بلا أعباء، تقبض أكفهم على الشهادة، وتنطوي صدورهم على الإيمان، ثم ينقذفون.. هنالك شعور بأن يدا قدرية تحتضنهم فلا يترددون.. بل إن انشحان قلوبهم بالإيمان يضحى عنفوانا تهون معه كل أنواع الابتلاءات، بل يضحى أجنحة تنمو في جنوبهم، وتعرج بهم في الأثير، فيُقِلُّون الأتباعَ ويرحلون بالقبيل بعيدا في فضاء المغانم المجيدة.

هيأ الله الأنبياء وكمَّلَهم من حيث الاستعداد السوي (والقابليات) ومن حيث التسديد وصواب النظرة، فجعلهم بذلك سادة في توجيه الخلق ورادة للسير بالإنسانية نحو العزة، وإذا كانت أنعم الله قد شملت عباده عامة، فإنه ميّز بعضهم على بعض في الملَكات، ووزع الحظوظ على أهل الحظوظ، وجعل الموهوبين وأهل العلم والقرائح بمثابة الشموع، تتحلى بهم الليالي وتنحسر الظلمات من بين أيديهم ومن خلفهم (العلماء ورثة الأنبياء).. بالاستعداد العقلي والامتياز الذهني تُنار الطرق وتَقَعُ الفتوحُ، ويكون ثراء الأمم على قدر ما تحوز في

أرصدتها من قمم متنورة وقامات معرفية كاملة، كل عقل مستنير مَنارة تمتد بها الأضواء إلى مدى أبعد وأفق أرحب، وأولو الألباب الواصلون عادة يستغرقهم الاحتراق ونكران الذات، لأنهم يعرفون الدور الانقاذي الخطير الذي ينهضون به.. إن فائض عقولهم يجعلهم أقدر على إدراك المسؤوليات التي يقتضيها منهم الشوط، ألم يُعْرَفوا بأهل النوبة، أليسوا هم أهل (العرفان) الذين عرفوا واجبهم إزاء الأجيال والإنسانية فانخرطوا في بذل الإحسانات؟ وكل صالح إنما انتزع السمة لأنه امَّحى في خدمة الأمة والإنسانية، وانتحر ليجعل من ذاته ومن تجربته أبجدية فيض تُمِدُّ السلالةَ البشرية بالطاقة على مدى الزمن..

ينبغ الموهوب بما جهزه الخالق من ملكات، فيتهيأ للإثمار، ويحدث أن تختلط مُعِداته العقلية بتعاليم المادة المصمتة وثقافتها الوحشية، فإذا الثمار مُرة، وإذا التفوق يُسَخَّرُ في اقتراف الشرور والتهشيمات (كبار الدكتاتوريين والمجرمين والشذاذ هم في الأغلب نبغاء في الشر).

لملكات النبوغ ارهاصٌ أشبهُ بالوحم، فإن لم يُختر الذُّكار واللقاح كان المحصول شوكا.

بالتميز العقلي -غالبا ما- يتهيأ المرء للتأهيلات الراقية ومنها التأهيل الإيماني، فكثير هم أهل الحجى الذين توفقوا -على هدي عقولهم- إلى الإيمان، لكن الإيمان مكسب قلبي لا يتأتى في كل الأحوال بالمدرك العقلي وحده، فما أكثر العقلانيين الذين عاشوا والقَدَّاحةُ منطفئةٌ في صدورهم فظلوا جاحدين، متسربلين بعقيدة الكفر، متوهمين سعادتهم في الإنكار. وكانت تلك الحال تهيئهم-وهذا هو مكمن الخطر- لارتكاب الآثام وتعاطي الانحرافات التي تتسفل بها إنسايتهم، بل وتتضرر الإنسانية على أيديهم ومن جرائرهم.

الإيمان -الحق- عامل احتسابي صارم، ودليل على حيوية الضمير وثباته الإرادي على مواجهة الشر.

من هنا اقتضى الشأن الإيماني الارتكاز على المنطلق الروحي والتنشئة الدينية القويمة.

وأكمل ما تستقر به يقينية الإيمان أن ترسو على دعامتي العقل والقلب معا، فبذلك يتعزز المعتقد القلبي بنور العقل وثقافة الشرع.

العلماء العاملون ورثة الأنبياء، ولا يكاد يخلو عصر من منارة روحية تشد إليها الأبصار أو قمةٍ فكرية تهاجر إليها الطيور.. والنورسي كان منارة العصر ومَعْلَمَ المرحلة بلا منازع، دَوَّت الهيجات والتغييرات من حوله وعمَّتْ في كل مكان، وتلاطمت أمواج الثورة والإصلاح هنا

وهناك، وتفاوتت المواسم والمحاصيل، وتباينت التوفيقات والخيبات، وظلت سفينته تمخر البحر رهوا وعلى رسلها، وتراجعت الأمواج تسجل لأصحابها مقدار أفضالهم، ومدى حجم فتوحاتهم، لكن موج النورسي استمر يتوسع، ويتصاعد، ويمضي قدما، ويوشك أن يكون طوفان خير يكتسح البيد والقفار، ويعيد إليها البهجة والربيع.. فهو الوحيد تقريبا الذي نرى اليوم فكره يجدد انبعاثته بشكل ملموس وبصورة لم نرها تقع لتراثات كثير من عظماء العصر من رجال الأمة في راهن زمننا رغم تيسر سبل التواصل وتأتّي إمكانات الحوار..هل فقط لأن النورسي ترك مدارس تديم له الحضور وتواصل بث خطابه؟ أجل إن ذلك لكذلك، وإن في ذلك لكُلَّ السر المعبر عن عبقريته، لقد أجهز حيث كان ينبغي الإجهاز، وسدد من حيث كان يجب التسديد.. بنفس الروح المتأنية، كالنحلة تبني خليتها بهندسة مذهلة، واظب النورسي على بناء نظام بقدر ما أنفق فيه من ريوع الإمحاء والتواري عن الأضواء، بقدر ما كان العائد الربحي باهرا، ها النورسي اليوم كلمة سلام متلألئة، وشعار رمزي متألق، وشارة بشائر تحيل على نهج مبرئ وفلسفة شريفة واستراتيجية حصيفة لا تحول.

المِنْوالية الحياتية نفسها تغدو عامل تيئس وإنكار للغيب، إذ تتَمَثَّلُ وتائرُ المعاش والاجتماع الرتيبة لشعور الجاحد على أنها تُترجمُ حقيقةَ فراغِ هذه التجربة الحياتية، وأن الوجود بالنسبة للكائن الحي حتمية لازبة أشبه بالدائرة تطبق على ما بداخلها وتضيق الخناق عليه.

في هذا الصدد بالذات تغدو مهمة النوابغ المؤمنين مؤجَّهة لبث فلسفة التدعيم وإرواء أرض الواقع بالمبشرات المعنوية.

قد يرى الجاحدون أن استبشار المؤمنين إنما هو نزعة تحايلية يولدها في أرواحهم ما نَمَّوْا في نفوسهم من ميكانيزمات التطمين والمهادنة السلبية، إذ وطنوا نفوسهم على الإيمان باعتقادات البعث والرجعة، وأطلقوا العنان للخيال واستشراف المابعد، وكل ذلك تحت سياط الحيرة والقلق وعدم ترسخ اليقين..

بل إنهم لَيَصِمُون أتباع الأنبياء بوصمة الافتعال هذه، إذ الأنبياء -بحسب الجاحدين- هم فئة مارست بصورة جذرية فعل الاستشراف فرارا من وطأة القنوط الوجودي التي كدرتهم وزلزلت أرواحهم جراء اليأس والخوف من مغبة الفناء..

والحقيقة أن أتباع الأنبياء لم يروا الدنيا قط بمنظار عبثي، إنما فككوا الدائرة من خلال تسديدات السماء، وجعلوا منها خطا مستقيما لا نهائيا يفضي إلى السرمد، النظرة هناك عند

الجحودين انعكافية، هي عود على بدء، دائرة مغلقة، عقيم، وهنا هي نظرة أفقية، امتدادية، اطرادية، ارتقائية، مفتوحة على البشائر.

لبث المنطق العلمي يؤكد للمؤمنين صواب رؤيتهم الإيمانية، فالعلوم طفقت تخبر عن وجود عوالم غير مشهودة، عوالم لم تكن البشرية تعلم بوجودها قبل عصر المجهر والمسابر الفلكية، بذلك تعزز كثيرا منطق الدين الذي طالما ظلت معطياته احتمالية، نهبا للشك والرد والاستخفاف..

وإذا كنا بفضل ارتقاء العلم قد اكتشفنا مساحات أخرى من أنفسنا ومن واقعنا، وأننا محاطون بأجناس ذرية خفية عن البصر من الكائنات المتعايشة والمتكاثرة والمتفاعلة كما البشر، فلم لا يصح وجود عوالم الملائكة والشياطين وغيرها مما نص عليه الشرع؟

والإشكال ليس قط في الإيمان-أو عدمه- بالشياطين والملائكة وبعوالم الغيب، فلقد غرقت الذهنية القديمة في ذلك النوع من الإيمان الذي تحولت به إلى ثقافة أسطورية كابحة، ومُخَوِّفة، ومُشَوِّشة على الإنسان، بحيث جردته من الحق في استحقاق مبدإ الخيارية، وذلك ما قعد به ولم يحرره من نير الاعتقادات العقيمة التي سارت به في وجهة معاكسة لوجهة الاستخلاف التي أقرها الله للعباد وشرفهم بها على هذه الأرض.

العلم كشف أن ذات الدقة التنظيمية، وذات الفاعلية الباهرة التي تحكم الظواهر الكبرى للكون وتسيرها، هي ذاتها التي تتحكم في عوالم الخلية والكيانات المجهرية وما دون المجهرية.. الوحدانية عند أهل الإيمان تنعكس في هذا الاطراد التنظيمي والتسييري الذي يعم مظاهر الحياة وتعقيداتها (مصانع الجسد، مراكز النشاط الروحي في كيان الإنسان، معامل الإمطار والإثلاج، ومراوح توليد الريح، ومصانع الانبات، محاضن التوالد والتكاثر، ميكانزمات التنقية والتطهير الذاتي للبسيطة، سلالم التطور الخَلْقي، المواسم ودورتها، انضباط حجم الدقيقة والثانية والجزيئ واطرادها منذ كان الزمن، تنوع أرزاق الإنسان والحيوان، الوفرة والشحة، تلاحق الأدوار والاحوال في كل شيء بحساب دلالة على أن مقاصد الوجود والخلق ليست اعتباطية وإنما هي ارتقائية تتوخى الكمال..) وكل هذا نظر إليه النورسي واستقرأه وبنى منه منارة إيمانه.

النابغة في ذاته برهان على الإيمان، وطريقته في الرؤية والادراك الإيماني هي كذلك حجة، لأن النابغة المؤمن يشكل بذاته جوابا عن سؤال الوجود، فتأمينه على الوحدانية

والربوبية هو حسم برهاني لا يرد، باعتباره عقلية متفوقة، ترى ما لا يراه سواها من الناس.

القلب عند المؤمن المتنور يسابق العقل، والعقل يسابق القلب إزاء مبدإ الإيمان، إذا تدبر بالحدس وجد رأسا الجواب المطَمْئِن، وإذا تأمل بالعقل والحواس استكشف كذلك نفس الجواب.

الإدراك العقلي لدى المؤمن يلقط الأثر القدسي -أنَّى كان وكيف كان- ويستجلي صورته على نحو وارف، حافل، مغتن، وفير، فالرؤية تشهد في كل مغلم قرآني هالة معنوية تتجاوز حيز الوجازة الخطابية والمجاز التعبيري الذي صُبَّتْ فيه أدبيةُ الإعجاز، أشبه بفعل تفجير الذرة..

هناك تشخيص برزخي غير مرئي تقف عليه عين النابغة المؤمن في كل ملفظ قرآني، وفي كل مَلْقَط فرقاني.

تأْبى بصيرة العبقري الفحل أن ترى شيئا يكدر عليها صفاء رؤيتها الإيمانية، كالعين يؤذيها أن يقع فيها شيء يحجب عنها الرؤية. وشأن النورسي هو ذا، وديدنه هو ذاك!

ومن جذرية إيمانه ما نراه يعرب عنه من حمد لا ينقطع عن نعم لم تكن آثارها بادية على ظاهره، لأنها لم تكن نعما من صنف ما نشتهي وما ننشد وما نحلم به، إذ كانت نعما روحية لا يستذيق لها طعما إلا من كان ذا ذوق رباني سائغ.

ومن عناوين هذا الإيمان ما نراه يلهج به من إعلاء مُطْلَقٍ لمنزلة النبي محمد ﷺ ووضعه على رأس سائر الكاملين المصطفين، بل إن الإيمان هو الذي تحول عند النورسي -كما عند الأقطاب الواصلين- إلى عشق جارف لَبِثَ يُنَفِّسُ عن تطلعاته من خلال مداومة التغنى بشمائل النبي والتَّمَلِ بخمر مكارمه ﷺ لقد ماهى النورسي شخص النبي محمد ﷺ في أسنى صور الكمال والقدسية، ولبث يلون ويعدد الماهيات التي ظل يتمثله فيها، فهو ثمرة الكون، وينبوعه الثر، وبلبله الصداح.. وهو ..وهو..

ومن صميمية إيمان النورسي أنه ظل يقف على دلائل الصِّدْقية المحمدية وبصورة لا مراء فيها في تلك الآيات والشواهد الخارقة والمعجزة التي أثرت عنه ﷺ وبدت للعقول غير الذكية على أنها أدخل في اللامعقول فهي أجدر أن تكون مدعاة للانكار والريبة.

لقد طفق النورسي يقرأ تلك المضامين القدسية ذات البعد الغيبي الفوق عقلي ويؤمِّن عليها بكل تصديق، وظل يستقرئ معانيها بكامل الموضوعية والاطمئنان والاستئناس والتأمين.. فهو

يذكرنا في هذا -مع فارق المقتضيات- بما كان من أبي بكر يوم أخبره المكذبون بنبإ الإسراء، حيث أجاب على الفور، إن كان محمد قال هذا، فهو صادق.. وكذلك ظل النورسي يكرر لدى كل نص خارق الدلالة التمثلية إن النبي صادق بها، إن النبي مصدوق بهذا..

كان النورسي يعاين سنة الرسول ﷺ المشرفة بالمنظار التصديقي الإكباري نفسه الذي يرى به الآيات القرآنية والبيانات القدسية، إذ كان يستشف لها دائما مساحات دلالية ضافية تؤطرها، ومحاقات نورانية تكنفها، فالنورسي يدرك الدلالة القدسية مهما رقت ودقت، بحجم مضاعف المدى.. بظلال ملونة لا تكاد تتبينها النظرة العادية للإنسان العادي.

ولقد تَكَرَّسَ له -نتيجة أصالة إبداعه- تأصيلٌ شاملٌ عمَّ الرؤية التحليلية (فجاءت محصفة) والمنهج الاستقرائي (فجاء روحيا فكريا) والخطاب الأدائي(فجاء تنويريا تثقيفيا).

مرتكزات اليقين عند النورسي تستند على:

- البصيرة الروحية، إذ هناك اعتقاد راسخ بأن المقرر الشرعي الموثق هو عين الحق والموضوعية، فكل مؤشر في الكتاب والسنة إنما يرفد معين الإيمان ويؤكد اليقينية.

- التبصر العقلي، وتجلياتُه تتبدى صريحة سافرة في كل منشط تأملي يقوم به العقل على مستوى الظواهر الكونية، من حيث استبانة الحقائق الخفية التي تتضمنها معطيات الوجود ويحدسها الفكر والتدبر في الآيات البينات..

فمن خلال تساؤلنا عن مرامي وجودنا، لا ينتهي العقل إلا إلى جواب واحد، وهو أن لهذا الوجود غاية (ماورائية) حتما، إذ منطلقات وجود كل كائن وكل فرد أن يحقق التكيف في الوجود، وأن يكون لوجوده معنى وفائدة وربح.. غير أن رِبْحَ القُصَّر دنيوي، وربح الكُمَّل سرمدي.

والنورسي -قناعة منه بسمو الغاية الوجودية- ترك الحظوظ البهرجية واستبدلها بحظوظ باقية، وحدا بالأتباع، بل بالإنسان مطلقا، أن يراهن على الكمال.. لأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الرهان الأكبر هو أن نكسب المعركتين معا، الدنيوية والأخروية، وذلك بالتسامي والالتزام بالعقيدة ومقرراتها، فاللبيب هو من يتصرف في هذه الحياة تصرف الضيف الذي يتقبل انعامات الضيافة بكامل أخلاق الشكر والممنونية، دون أن يغفل عن الوعي بحتمية مغادرته المحطة بعد حين، وبأن مضيفه سيُقَوّمِهُ من خلال الآثار التي سيتركها وراءه.

- الداعم الروحي الموضوعي ويجده في بيانات القرآن وتعاليم سيرة النبي ﷺ وسنته،

فمقررات القرآن ترجح الآجل على العاجل، والآخرة عن الدنيا، فهي إذ تتوخى الاعتلاء بالفرد، تضع بينه وبين التهافت سدودا وضوابط كي تستبقيه متمالكا، لا يحرق أوراقه لمجرد أن تلوح له بوادر الغنيمة السهلة..

- الداعم المادي الموضوعي، ومجاله استقراء تجليات الكون ونظمه، ومنجزات العلم ومستخلصاته من القواعد والقوانين المعبرة كلها عن شمولية نظام الكون واطرادية نوامسيه. وكل ذلك يعزز الاطمئنان إلى أن الآلية التي تحكم الخلية، هي نفسها الآلية التي تدير المجرات والهيئة الكونية قاطبة..وأن الأسباب المفعلة للأشياء والظواهر لها مسببٌ أول هو الباري عز وجل.

- الحدس الغيبي، إذ كل عاقل يحدس بفطرته أن وراء المشهد الحسي وجودا آخر ينتظره، فاليقينية التي ترافق الفلاح وهو يدفن نواة في الرمل، والتأكد البديهي من أنه سيأكل ذات يوم قريب ثمارها، هي اليقينية ذاتها التي ترافق الطفل وهو منهمك في صنع المستقبل وتحصيل الكفاءة التي يترسمها طريقا لسعادته المستقبلية. وقريبا من هذه اليقينية إرادة ورغبة وأماني دفينة غامضة تستوطن اللاشعور (وعند المؤمن تستوطن الشعور)، في أن يكون السعد محالفا له في حياة المابعد كذلك.. أكثر الناس يكدحون ليتركوا لخلفهم إرثا ماديا لا لشيء إلا لكونهم يريدون أن يلبوا ذلك الوازع في نفوسهم والذي بمقتضاه يتصورون أن ذلك الإرث سيريحهم في قبورهم، سيمتد به وجودهم البعدي.. بل إن قولنا فلان رحل عن الدنيا (رضي النفس) مرتاح الضمير.. ليترجم عن هذا اليقين المضمر، المتواري، الخجل، الذي يحمله الإنسان في دخيلته عن حياة المابعد.. بل إن الاعترافات ساعة الاحتضار لهي وجه آخر على ما يتبطن نفسية الإنسان من اعتقاد بالآخرة.

ومع ذلك يَسعُنا أن نتساءل تارة أخرى، تُرى تحت أي تأثير -ومنذ الصبا- انحاز النورسي للإيمان، واصطنع الشريعة نبراسه في الهداية والتمييز والإدراك؟

لا ريب إن التنشئة الأسرية والوسط الثقافي يلعبان دورا في التأثير على وجدان الفرد، لكن هذا التأثير يظل نسبيا، ودرجته غير حاسمة وغير جذرية، بحيث إنها لا تمضي بالأفراد إلى حد يضحون فيه جميعا على سمة واحدة أو متقاربة، فأفراد الأسرة الواحدة والمحيط المشترك لا ينشأون على منحى نفسي وروحي واحد رغم التفعيل القيمي المرجعي الواحد الذي ينمون فيه.

من هنا نقرر أن المنحى الفكري عند النورسي إنما كان -بالأساس- منحى عقليا استعداديا، وتوجها طبْعِياً، هيأته به الفطرة ورشحته له القدرة الإلهية، فكان من ثمة لسيرته الروحية ومنهاجه الدعوي كل ذلك التفوق والأصالة والتفرد.

إذنْ نبوغُ النورسي ومنزعه التحصيفي إنما كان منزعا جِبِلّياً، من منح الله ونعمه التي خص بها عبده النورسي، فعاش بها قريرا، معتدا، لا يغفل قط عن حمدها والإعراب عن مشاعر الامتنان بها.

إن هذا الاستعداد -الذاتي- للعقلنة والتمحيص والبرهان الذي ميز النورسي منذ النشأة (لتتذكر نوع الأسئلة التي كان يطرحها على أهله)، قد تصاقب مع تأثيرات عامل خارجي هو القرآن، فتمكن الوازع التعقلي من التجذر والنماء بحيث طبع شخصية النورسي بذلك الطابع الدياليكتيكي الخاص.

لا ريب أن النص المقدس-وعند سائر الأمم- هو مجال الاستغراقات الروحية والميتافيزيقة الجارفة، فالجماهير تنزع بأخيلتها إلى الإبحار في ربوع النص المتعالي، تسترفد منه الأحلامَ المشوقة، وتلوذ به من الضوائق الضاغطة.

لم يكن هذا هو حال النورسي، فرغم نشأته في بيئة نورس القروية وثقافتها الشعبية الخام، ورغم ما كان يطرق ذهنه من تفسيرات فانتازيا، فلكلورية، عن الظواهر والكون والطبيعة (تفسير والدته له ظاهرة احتجاب القمر مثلا)، إلا أن النورسي سرعان ما أبدى توجها يمنطق الأفكار ويعاين المسائل ضمن كيفية تصورية استقرائية.. هناك المظهر وهناك علته، هناك الحدث وهناك سببه.. هناك الإشكال وهناك حله.. هكذا شب النورسي، وهكذا ذاع صيته.. طفل متفوق، يطرح من الأسئلة ما لا قبل للناس به، يستوعب بسرعة، وينتقل بين المناطق برأس تعج بالأفكار والمعلومات.

تأثير القرآن -إذن- على النورسي لم يكن عامل تخميل ولا علة تركيد، وإنما كان مُنشِّطا قويا زاد من تأجج نار الديالكتيك في ذهن النورسي، وأضحى فاعلية إسناد تحصيفي لا غنى عنها.

إن هذه العلاقة النوعية التي ربطت عقل النورسي بالقرآن هي مكمن العجب، ومناط الدهش والتأمل.

كيف نفذ النورسي إلى كيان المعنى القرآني بروح سابرة، مبرأة من شوائب الثقافة

التقليدية الركودية؟

لا شك أن روح التحصيف التي ميزت النورسي قد انجذبت نحو النص القرآني بجاذبية الاستنارة التي في عقله، لكأن عين النورسي وقعت أول ما وقعت من النص القرآني على سمته المنطقي.. لكأن النورسي نظر إلى القرآن على أنه في كليته كينونة معرفية معقلنة، مساقات الغيب، مسارد المعجزات، مواقف الخراقة الفوق عقلية التي يعرضها القرآن..كل ذلك بدا للنورسي وقائع عقلية وراءها لاحم معرفي منطقي، فلم تَسْتهْوِلْها -من ثمة- روحُهُ، ولم تر فيها ما يستجوب التحفظ، بل لقد سارع إلى احتضان مقررات القرآن جميعا، وراح يطيل الوقوف أمامها، يستديم علاقة التواصل معها، المستوى (الإعجازي) من القرآن استهوى النورسي وألهب كوامن التأمل فيه، بحيث رأيناه يستفيض في استقراء مواطن المعجزات والكرامات، ألم يخص اشكالية الإعجاز مثلا، وهي مظهر من مظاهر الخراقة، بعديد المباحث، ويلاحقها بعشرات المصادرات؟

عوالم الغيب وما وراء العقل استثارت شهية النورسي الفكرية، فاشتغل بها واستفرغ طاقته مفسرا لها. (هو كملاكم الأوزان الثقيلة، لا يختار إلا وزنه)، فكشف عما لم يتيسر كشفه لغيره، إن اشتغال طائفة كبيرة من القرآنيين -في عصرنا خاصة- طفق يتركز على نقاط الإشارة السافرة، فهم يُفَعْلِون القضايا الجلية ويباشرون المسائل الواضحة، فيعالجونها بفذلكات تصطنع الجهد، وما هي بالجهد، إن هي إلا افتعال لا يفضي إلا إلى تحصيل الحاصل، فلذلك دأبت النتائج تنطرح باردة، ميتة، لا حسَّ لها ولا تأثير على المواجد والمدارك.

- أجل إنهم يعترفون للأسطورة بنوع من العقل البدائي، والقرآن وسائر الكتب المقدسة عند الجاحدين هو نتاج العقل البدائي التوهمي، لكن النورسي لم ير لشخصية القرآن أي منحى انتروبولوجي، إنما رأى (رؤية) فوق إنسية، متناهية الكمال، إسقاطاتها حين يستهدي العقل الأرضي إلى حقيقة إيعازاتها، تُبهر ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك: ٣، ٤).

لو أن النورسي شاء أن يتراجع عن يقينيته هل كان في وسعه أن يجد الحجة الكافية التي يبرر بها تراجعه ويُقَوِّضَ صرحَ استدلالاتِهِ وحججه الإيمانية؟ الأمر صعب لأن الرسائل باتت شخصيتها مبنية أساسا على منهج الاستدلال الإيماني، العقلي.. فهي متلازمة مع مَشْغَلِ الإيمان وجودا وعدما.

ربما يجدر بنا أن نقول إن الرسائل خرجت عن نطاق صاحبها وامتلكت الاستقلالية والركنية (الماهوية)، فهي تنتمي بلا منازع إلى تلك الأعمال الكبرى والمصادر الأم التي أهلتها حصيلتها الفكرية والمعرفية لأن تحوز هويتها، بحيث يعود صاحبها تابعا لها وليست هي، ألسنا نقول كتاب الأم دون الإحالة إلى صاحبه إلا لما ذاع من شهرة هذا المصدر أغنت عن ذكر نسبه، وكذا الحال عن الموطأ، الكامل، المقدمة، والمواقف (رغم تعدد المؤلفين) والقانون، والشفاء، والحيوان، والتحفة، و.. فشخصية هذه الأعمال متعالية عن النسب، متجاوزة لمنطق التضايف، لأنها تموضعت بكيفية متسامية حررتها معرفيا من قيود الزمان والمكان والجنسية، وأدرجتها في سلك الآثار المَعْلَمِية، إنها جزء من التراث الإنساني، فاعتزاز الإنسانية بها مستحق لما حققته من مكاسب في خدمة المعرفة الإنسانية.

الرسائل هي من هذا الصنف البَرّي[1]، كنَبْتِ الطبيعة، تدور عليها الأيام وهي هي، في كل موسم لها رونق، وجنى، وازدهار.

بير الجير ، وهران في ٢٨-٨-٢٠٠٨

عشراتي سليمان

(١) أردت أن أقول الوحشي، ولكني تأدبت ، وإلا فهو أعرب!

مناجم النورسي

يرسو امتياز النورسي الإبداعي على أسس صلبة وأصيلة، لكونه خاض في مجال روحي لم يعد الخوض فيه يشد النفوس كثيرا، فالعصر بهر الناس بمبتكرات التحديث، وقد تواطأ الطلائعيون المعاصرون على أن يقرنوا الكفر بالحداثة، وأن يعقدوا لواء السبق والتفوق لمن يذهب بالقيم الكفرية بعيدا.. المجال الذي باشره النورسي -بحكم منطق العصر- تقليدي، تخلفي، أكل عليه الدهر وشرب.. لكن النورسي مضى يحترف التنقيب في المناجم القديمة، والحقول المهجورة، فيما كان الناس من حوله يتسابقون على الاستثمار في أسهم العصرنة والزندقة و(الحداثة) الفكرية.. ومضت العقود تترى، وإذا الحصيلة مذهلة، وإذا الورشة النورية تغدو بورصة يتهافت صوبها الجماعات والافراد، وإذا القطاع الذي كان مهجورا ومشاحا عنه يستعيد الحيوية، وإذا أحلام الأمس، التي كانت -وربما لا زالت- تغوي الدنيويين بما تلوِّح به إليهم من فتوح، تتكشف عن مأساة في أكثر من صعيد، فالإنسان المتعصرن، المتحرر من وطأة الحاجة المادية يستشعر الاغتراب، ويحس الوحشة ويجد النشاز يكتنفه من كل جانب، لأنه رأى نفسه يقع -ومن حيث شاء النجاة- في مهوى الحاجة، فشُرْبُ الماء الأجاج لا يورث إلا مزيدا من العطش القاتل.. عز على إنسان المادة تحقيق التكيف بالرغم مما أحاط به نفسه من مناعم ورفاهٍ، هناك جوع لم يجد سبيلا لإشباعه، ما علة هذا الجوع؟ لا يدري، إنما الذي يدريه هو أن نفسه استوحشت داخل قوقعتها بعد أن عدمت عامل التسرية الروحية..

طالما كان يجد النشوة في كفرياته، في تطاولاته على الغيب، في استشعارات غامضة تركبه من حين لآخر وتحرك فيه أنانية التفرعن والتأله.. لكن تلك النشوة-شأن كل شيء يشذ عن الفطرة- تقادمت ولحقها الركود، وارتدت النفس تارة أخرى تبحث عما يسكن توقها إلى المجهول..

كل اللذائذ جربها الإنسان المعاصر المترف، تعاطاها حية، وتعاطها مصطنعة، الجنس والقمار والمغامرات بألوانها والمخدرات بأنواعها، دون جدوى..

ما أشبه الإنسان المعاصر في تمرده بأحمق يسعى إلى إطفاء النار بالإمعان في النفخ

عليها، فإذا ذلك لا يزيدها إلا تأججا والتهابا..

النورسي بحث في مختبره الروحي، وداوم التنقيب عقودا كاملة، وخرج إلى الناس بالعلاج..

من الأعشاب والعناصر الطبيعية استخلص أنجع أدوية الروح والقلب..

منهج الرسائل

مما لاشك فيه أن النورسي الذي طالما أكد الصبغة الاستلهامية للرسائل وكَوْنُها ظاهرةً إبداعية تتم في أغلب الأحيان في صورة خطرات وانبثاقات وجدانية تخرج عن إرادته وتتمنع عن سيطرته، قد أكد لنا من صدد آخر المنحى التأملي الذي يميز هذه الرسائل، إذ هي تنشأ على هيئة أفكار غير محددة الملامح، ثم لا تلبث أن تتطرد في وجهة لا يلبث المتلقي أن يستبين فيها المرامي المتوخاة، والغاية المبتغاة.

> "إن رسائل النور تخالف الكتب الأخرى، إذ تستهل البحث بشيء من الإبهام الذي قد يخفى على القارئ ويغمض عليه، إلا أنها تتوضح تدريجيا، وتكشف عن معانيها رويدا رويدا "[1]..

ويرسم النورسي المدْرَجَ الذي تسير عبره مصادراتُه العقلية للقضايا والأفكار، فيقرر أن الموقف النوري -بما هو موقف نجوى- إنما يسير إلى غايته من مَعْبَر المراجعة اللجوئية (الشكاة) ويسميها المحاكمة الشعورية، ثم إلى مقام المعاملة الإيمانية وعرض الحيرة والبوح بالغصة، ثم إلى المحاورة القلبية حيث ينتهي إلى اللحظة الشهية، فيظفر بلحظة سعيدة تَنَزُّل عليه فيها قطرات الشفاء..

ما أكثر ما تلاطمت الشجون والأحوال على صعيد المتن في رسائل النور، حيث دأب النورسي يقابل بين أعراض الابتئاس وسوانح الابتهاج، بحيث أضحت الرسالة جلسة أو برنامجا من جلسات التحليل النفسي التي تفتش البواطن، وتحل العقد، وتورث البرء.

لا تودي بالإنسان تأزماتُ الغريزة بل تأزمات الروح.. والنورسي حلاَّل ماهر لعقدٍ لبثتْ تنفثها الفلسفات المادية وتَحْرِفُ بها النفس عن الجادة، فبدل أن تتزكى، تتدنس.

---

(١) الشعاعات - الشعاع الرابع٦٨.

إن تَخَلُّصَ المريض النفسي من عقدة غريزية ما، قد يرتد به سويا على صعيد علاقته مع ذاته، لكن هذا الاستواء يظل لا معنى له، لأن أزمة الوجود وعقدة العقد باقية في أعماقه، تنخره، وتورثه القلق الذي لا مسكِّن له، إنها عقد الحياة، عقدة الموت..

الإيمان يوطن النفس الإنسانية على أن تعيش رضية، خالية من الانقهارات الباطنية، لأنها تُسْلِم مقادتها إلى الخالق، تؤمن أنها تمضي من حياة عابرة إلى أخرى دائمة، فلم إذَن التفجع؟

لذا كله طفق الخطاب النوري ينضح بقطرات الشفاء يتعهد بها المرضى وفق منوالية حكيمة نفاذة تصيب هدفها..

إنه يتصدى للنفس، ويتحسس تشنجاتها، ويواجهها بمادة تنفذ إلى الخلايا، تُطَرِّي الروح، وتمنح الراحة، وتورث العافية، وتتحول بالنفس من حال إلى حال.

ولما كان النورسي يدرك ما للرسائل من فعل تغييري، راح يعير حجم الجرعات عنايته، فبقدر ما زاد من الجرعات، بقدر ما كان الأثر مفيدا.

إن استيفاء مساحة اللوحة التدَبُّرية يحقق للنفس فرصة التخفف من عنائها، فالنص يتحول إلى كائن موضوعي، إلى آخر، حي، نافذ، يخترق الحواجز ليصل إلى النفس المهزوزة، ويتلطف في مداواة الجروح.. الموقف النوري -هو كما القنوت- مجلس للترويح، للتسرية، للتخلص من الاحتقانات المعنوية بكامل الحكمة والتبصر والمشاركة

في متن كل رسالة يخصص النورسي مقعدا للمتلقي، يحاوره فيه، ويراجعه، ويستصحبه على نحو أو آخر، حتى في تلك المقامات النصوصية التي حملت السمة الشخصية الخاصة بمواجد النورسي...

لم يتعاط النورسي فن التسرية من موقف الاقتناع بأن النفس المصابة تعدم كل منطق وتتهافت على كل ما يُلقَى إليها من قول أو نصح أو موعظة..

النورسي نفساني جبار، من أول نظرة يدرك العلة، وعلى الفور ينصرف ذهنه إلى وصف العلاج، هاديه في ذلك القرآن، وهو يتميز عن الحكماء التقليديين بكونه لا يكتفي قط بإحالة على مألوف المستحضرات الوعظية المتوارثة، ولكنه يُجهِّز لكل حالة مرهمها، ويستخلص لكل داء دواءه من صيدلية القرآن..

ولن تجد رؤيته تنحسر في تشخيص الأحوال الآحادية، فهو لا يُجَزِّئُ المسألة الوجودية مهما كانت خصوصيتها وتفردها، كلا، إنه يعاين العلل قي إطارها الإنساني العام، فتراه يقتلع

الأدواء النفسية والروحية من جذورها لأنه يستخدم الترياق الفعال الذي يستهدف مداواة أصول العلل، لا أعراضها.

أجل إن ديْدَنَ كثيرٍ من محترفي الوعظ هو استظهار القرآن في وجه كل نازلة وضيق، إنهم يفعلون ذلك بالاعتباط والارتجال الذي يُفقِدُ القداسةَ سرَّها، ويزيل عن الكلمة روحها.. عكس النورسي الذي لا يعرض على الناس إلا ما ثبت لديه فعاليته بالتجريب.. هناك نية انخراطٍ خالصة وانغمارٍ روحي حقيقي يجعلان النورسي يظهر في عصر الناس هذا قطبا صديقيا لا يبارى.

من هنا كان تَفَوُّقُهُ في مضمار علاج الروح، ومن هنا جاءت وصفاته صالحة لأن تؤخذ في كل بيئة.

لم يحجز الوازع الديني بينه وبين أتباع الديانات الأخرى أو المنتسبين إلى حضارات غير حضارته، ولم تقطعه أنواع النقار القائم بين الأمم عن التحاور معها، إذ طفق ينظر إلى الإنسان كأخ في الآدمية، بغض النظر عن نحلته وصبغته.. ذلك لأن النورسي يجزم بأن الروحانية قاسمٌ إنسانيٌّ كينونيٌّ، وأن الإنسان مجهز بقابلية التدين فطرة، فهو على نحو ما متدين حتى وإن شذ عن الدين، إذ الاستعداد الجبلي الغيبي في الإنسان مكين، والإنسان لا ينفك عن التسبيح حتى وإن غفل العصاة عن تنشيط هذا النزوع فيهم، فلذلك راعت الوصفةُ النورية التركيز على البعد الروحي، وتعاطت العلاجات من هذا الاعتبار، فكان لها كل هذا النجاح.

وأما بنعمة ربك فحدث

حينما تسمعه يناجي نفسه قائلا: "وأنّى لها أن تُحصِّل غايةَ التحول والتغير إلى الحال الأكمل إلا بعنايته -عز وجل- غير المحدودة لهذا الإنسان -النورسي- الصغير الهزيل المتقلب في العجز المطلق، حتى كرَّمَه واتخذه خليلا مخاطبا، واهبا له المقام السامي بين مخلوقاته".[1] تشعر بالشفقة ومشاعر التصديق.

لو كان القول لغير النورسي لساورنا شك إزاءه، وأنه من باب الزعم.. لكن سيرة النورسي الممتدة أشطرا بعيدة في الزمن، تجعلنا ننحني ونشفق ونرى في القول حديثا بالنعمة وليس ادعاء وتظاهرا كاذبين.. بل إنه قول يتبطن مشاعر تعلن ضآلة الشأن وهوان القيمة، لأن المقام

(١) الشعاعات - الشعاع الرابع ٧٥.

استرحامي، حمدي، يعتد بمنن الله على المخلوق الضعيف، المقر بضعفه.. إنه خطاب يندرج في مقامات النجوى والشكر، ولا يحمل أدنى مسحة من زيف واعتدادية مجانية..

النورسي هنا لا يتلبس صفة غريبة عنه، فهو حين يضفي على نفسه صبغة الخِلّ، فلأنه قد مر إلى نيل المقام عبر طريق دامٍ لا يزال يُعلن عنه من خلال عبارات تستحقر الهوية وتصر على امتهانها (هذا الإنسان الذي يبدو حقيرا[1])، إنه مقام إمحاء يتمجد فيه الخالقُ عز وجل.

حركية ذهنه ترتحل بالمتلقي إلى آفاق غير متوقعة

من خصائص حركة ذهنه أنه ينفذ بك إلى زاوية غير متوقعة، حتى حين ينفذ معك إلى محيط واقعة استعارية أليفة.

فهو حين يخبرك أنه راجع آية ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وأنها دلته على الطريق إلى معناها بأن يتساءل عن كنه الجمع الذي يحيل عليه ضمير الجماعة (نا) في الفعل (حسبنا).. إن هذا البيان الذي ينطلق منه النورسي يجعل القارئ يتوقع بداهة أن يكون ضمير (نا) مُعَبِّراً عن جموع الأوابين من العباد المتوسلين إلى الله.. لكن النورسي يخرج بك عن دائرة هذا التوقع، فيحيلك إلى جموع أخرى، من أجناس أخرى لا يلتفت إليها الذهن في هذا السياق التدليلي الملح الذي يفترض فيه أن يكون الشاهد قريبا من اليد، فبدل أن تسمع النورسي يبين لك أن المحتسبين هم الصالحون الأتقياء المؤمنون المستغفرون اللائذون بالله من العباد، تسمعه يقول لك:

> نعم هكذا أمرتني الآية، فنظرتُ.. فإذا بي أرى طيورا محلقة لا تحد، وطويرات صغيرة صغيرة جدا كالذباب لا تحصى (انظر إلى الجرأة الذوقية، وكيف ساغ له أن يقدم من الأجناس الذباب، وهو ما هو من حيث استقذار النفس له) وحيوانات وحوينات لا تعد، ونباتات لا تنتهي، وأشجارا وشجيرات لا آخر لها ولا نهاية[2]..

إن فطنة الإقناع هي التي جعلت النورسي يطرح أمامك هذا الشاهد الذي أبعدك عن أفق انتظارك، إنه بهذا الإبعاد ضَمِنَ على الأقل مكسبين بحجة واحدة، إذ جعلك توسع نظرتك فتتقبل أنواع العجماوات والجمادات ضمن دائرة الأمم المسبحة الحامدة الممجدة للرب..

---

(١) الشعاعات - الشعاع الرابع ٧٦.

(٢) الشعاعات - الشعاع الرابع ٧٦.

إنها حقيقة ماثلة أمامنا لكننا لغفلتنا نجهلها أو لا نتدبرها، وهو من جهة أخرى يجعلك تكتشف بنفسك حدود الواجب الذي أنت ملزم به حيال خالقك، إذ يجعلك تحس بالتقصير في علاقة الاحتساب مع الخالق، إذ تتنبه فجأة إلى أن المخلوقات الأتفه والأقل اعتبارا في القيمة الحياتية قياسا بما للإنسان من منزلة، لا تكف عن الاحتساب، هي المسخرة، المحرومة من كثير مما يتمتع به الإنسان المكرم بنعمة العقل وبإمكانات الإنجاز والإبداع..

نشوة قراء نص النورسي

إن توسعات النص تخلق جوا استقطابيا من خلال توالي حججها الحسية والعقلية (الحسي عقلي، والعقلي حسي)..

إنه جو يكتنف القارئ من أطرافه جميعا وهو يتلقى المادة النصية، فلا يلبث أن يقع منه الاكتفاء باكرا، لكن فضول اللذة يدفعه، فهو يمضي تحت تأثير تلك النشوة، شاعرا بالترقي المتصاعد، ولا يفتأ يخطو من ردهة إلى أخرى وقد أترعه كؤوساً لا تزال تمتد بها أيدي السياق من هذا الصدد وذاك..إن حالا من الإشباع الرائع يتملك قارئ النورسي، إشباع لا يتولد عنه إلا مزيد من الانتشاء..

مزايا خطاب النورسي

لعل أبرز ما يُمكِنُ الحُكْمُ به على مدونة النورسي، أنه عصرن الصورة التعبيرية، وارتحل بالخطاب الديني بعيدا نحو التحديث والموضوعية، وخصَّب أسلوب الوعظ وجعله يرقى إلى صعيد المقاربة العقلية والطرح العلمي.. لقد أدمج الخطاب الإسلامي في أرضية الواقع (بعد أن احترف هذا الخطاب، ولقرون متطاولة، التجنيح في فصامية ميتافيزيقية تعويضية أكثر منها إيمانية)، وأوصله بثقافة المدنية الصناعية، وفتَّحه على المشاركة في حل الهموم الفكرية العالمية، وابتعد به عن نبرة الانغلاق والاستضعاف التي أوقعته فيها عهود الانحطاط والتقهقر الحضاريين..

المستوى البرهاني

يبني النورسي برهانه العقلي على مبدأ المقايسة، مقايسة الغائب على الشاهد.. وهذه

المقايسة تصح فيما يخص فرضيات النورسي لأنه يقايس كونا بكوْن مترابطين، يُعَدُّ أحدُهما امتداداً للآخر، وليس يقايس جزئية من نوع ما على جزئية من نوع مفارق، لأن النورسي يعتقد يقينا أن هذا الكون المشهود بحياته وآجاله المقيدة، يُكمِّله كونٌ عضوي، مغيَّب، له هو أيضا حياته وآجاله لكنها سرمدية (آجال الحياة مقيدة، وآجال الغيب مطلقة لأنها تتعلق بعالم الأرواح، فيما عالم المادة يتم استهلاكه وفناؤه في ردهات هذه الحياة الدنيا)، والنورسي يؤمن أن وراء هذا النظام الوجودي الدنيوي قوة مسيطرة تتصرف بمنتهى الدقة والكمال، لأن منطق الصدفة لا يصمد أمام بهارة هذا النظام الكوني، فالنورسي يقيم رؤيته الوجودية على أساس الإيمان، لأنه وجد -بالعقل- أن ما قرره القرآن من حقائق الغيب يتلاءم تمام الملاءمة مع ما يحدسه الحس السليم وراء معطيات هذا الوجود.

فما دام الكون يسير من غير ما عبثية تشوب انتظام كلياته وجزئياته، وما دامت السنن لا تتعطل ولا تخرج عنها أيةُ ظاهرة ما في أي عصر أو مصر، فذلك يعني أن وراء الشهود سنداً مهيمنا، جبارا، لا يمكن إلا أن يكون فردا في سلطانه، شموليا في إدارته، صارما في إرادته..

النورسي المقاوم

لا يفتأ النورسي يبيّن المسار الذي التزمه وهو يرمم جدار المعنويات في نفسه، وهكذا نتبين مداومته على الإثابة إلى الله واللجوء إلى العاصم القدسي، يلوذ به من كل ما يتهدد روحيته.

النورسي والصالحون عموما، يتَّقون الضربات بسواعدهم لا لأجل حفظ الذات وصون النفس، ولكن دفاعا عن المبادئ التي يعتقدونها والشريعة التي يؤمنون بها، فهم لذلك يسترخصون النفس في سبيل العقيدة، وإرادة البقاء تقترن بإرادة الجهاد عن المبدإ، فحياتهم من ثمة حياة موصولة بالرسالة والهدف، ولذلك ترى النورسي مُخَيِّما أبدا أمام باب الحضرة، وتراه دائما على عنفوان وعزة، لأن الروح تستمد اعتدادها ومَنَعَتها من خالقها (هنا قانون الحرفية يبرز في هذه العلاقة بالباري)، فهي موقنة بأن من يجاور العزيز لا يلحقه ضيم ولا حيف..

من جهة أخرى نراه يعول على خطة التجييش الذاتي[1]، إذ فَطَرَتْه الحياةُ منذ الصبى على مبدإ الصمود، فلذلك شبَّ لا يعتمد على سند -إلا السند الروحي- ولا يعتد بعصبية إلا

(١) أكثر من مرة أسقطت هذه الفقرة لأنها بدت لي مصنوعة، ثم وجدتني أعيدها، وإني أخيركم -هي ومثيلاتها- في الإبقاء عليها أو إلغائها.

عصبية الذات وبسالتها في المقاومة ودحر العدوان.. وإن من مظاهر المدافعة لديه استنفار القوة الروحية والزجُّ بها في المعركة وفق منهج حربي يقوم على تكتيك مطاولة الخصم، ودحره بما يُوَجِّه له من ضرباتٍ معنوية، وما يُلْحِق به من خسائر استراتيجية.. جل المعارك الكبرى خاضها النورسي-شأن كافة الأخيار- وهو في المعتكف (جبهة القتال المتفجرة)، يدير المعركة ويحرك الفيالق ويدفع بالتعزيزات.. القرآن قوته الصاعقة، والدعاء أحد أشرس ألويته، والابتهال مظلته الجوية التي تدك الخطوط، والتسليم والاحتمال احتياطه وقاعدته الخلفية..

ثم هو يبرع في عملية الانسحاب، ليس الانسحاب في حربية النورسي إلا مرحلة دقيقة تهيئ للانقضاض والوثوب من جديد، وحين تهدأ النار على الجبهة تشتعل في داخل النفس، فلذلك نرى النورسي يتفنن في إحكام الحوار مع نفسه..لا يعدد الخسائر، إنما يرفع تقارير الاحتساب للخالق، ليس طمعا في نيل نياشين الاعتراف، إنما أمَلا في تحصيل الرضى.

التفوق الاقناعي

ينطلق من تمثل واقعة قريبة من الذهن، بسيطة من حيث الإدراك، ثم يباشر الاستقراء في كلياتها، مرتدا في كل مرة من سقفها أو من قطبها (كمن يدهن قبة) ليتحدث عن أواصر تلك الكليات وعن صلتها بوقائع الحياة العادية، نراه مثلا يقرن عالم الأشجار وعالم الطيور[1]، ويربطهما بخاصية مشتركة، إنها خاصية اللباس أو تغير أحوال الكائنات كل موسم، ولما كان اللباس هو العلامة الدالة على ذلك التغير، كان لابد من تعميم هذه العلامة، فلذا استدعى الخيال فضاءً من الظواهر، استدعى الجبال والصحراء، فالمتلقي قطعا لا ينتظر من السياق أن يحدثه عن الجبال[2] والصحراء فكيف عن لباسها، إنهما الفضاءان اللذان يظلان أجردين أو بالأقل على حالهما الثابتة، وموسم الربيع لا يؤثر فيهما على نحو ما يؤثر في قطاعات الخصوبة الأخرى.. لكن النورسي حين يستدعي هذين المرفقين الكونيين ويجعل لهما قابلية تبديل اللباس والكساء، فإن الأثر على المتلقي يكون جِدَّ لافتٍ.. لأن السياق الافتراضي انطلق من حقيقة بديهية ثم هيأ لها من شروط المعقولية ما يسوغها ويجعلها تستجمع في ردائها المنطقي وقائع كانت قبل ذلك غائبة عن ذهن المتلقي، بل ربما كانت تعد من

(١) انظر: الشعاعات - الشعاع الرابع ٧٦.

(٢) حتى في البلاد الخضراء تظل الجبال على حالها من النضارة، فهي لذلك لا تلفت الانتباه بحكم قانون الألفة.

المفارقات التي لا صلة بينها، لكن ذهن النورسي لاقى بينها على نحو عقلي لا مراء فيه، بحيث لو أن المؤلِّف تحدَّث عن بديهة أخرى مغيبة، عن لباس البحر مثلا، وهو حقيقة أخرى يغفلها الذهن العادي، لما اعترض معترض..

التدليل بالجنس الأدنى

لا يميز النورسي بعقله الإيماني بين الكائنات، فهو قد نظر إليها جميعا من منظور العبودية، عبوديتها للخالق، واعتبرها جميعا تؤدي وظيفة التسبيح، واعتبر الإنسان على قمة السُلَّم بينها، لِما تهيأ له من ميزة العقل والإنسانية، فالإنسان متجانس مع المخلوقات الأخرى في الجانب المادي، متميز عنها في الجانب الروحي، وأن الجامع بينهما هو خصوصية المعبودية والطاعة، لذا طفق النورسي لا يفارق في مقارباته بين الأجناس والأنواع، الإنسان والحيوان والنبات والجماد كلها كائنات مؤمنة، حتى الكافر منها هو مؤمن بالقوة، ولذا استمر النورسي في عقد المقابلة بين المخلوقات، مقوما مستوى خضوعية كل جنس، متوخيا لفْتَ النظر لحقيقة تغفل عنها الأنظار، وهي تسليم الكائنات –على نحو أو آخر–لرب الكون بالربوبية، وفي ذلك ترشيد يسعى النورسي من خلاله أن يلقن دروس الإيمان لمن لا إيمان له. فلذلك لَبِثَ يستدعي أنواع الكائنات لأجل الاحتجاج على ربوبية الخالق، موازنا بينها وبين الإنسان، من حيث الانقياد والخضوع الإيماني، إذ أن فنية التذكير، من خلال التسديد نحو الجنس الأدنى، تحسِّس الجنسَ الأعلى بالمسؤولية، وتدين تقصيره، وتهديه من ضلاله، وتنزيل حيرته الوجودية[1]..

عالم ايكولوجي متبتل

النورسي عالم بيئة، وسيلته الملاحظة والاستقراء، واستخلاصاته المستقاة من الطبيعة والمشهد الايكولوجي تتحول دائما في فكره إلى مادة إثبات وأساس الاستدلال.. فالنظر إلى الكائنات في فصائلها وتنوعاتها يجعله يدرك أنها جميعا من منشإ عضوي واحد، وأن البيوض المتشابهة والحبوب المتشاكلة هي حقل عجيب للاختلاف، إذ يتولد منها أنواع الأجناس والكائنات من طيور ونباتات وأشجار وجماد، وكل جنس يتفرع إلى مئات الآلاف من الألوان

(١) انظر الشعاعات - الشعاع الرابع ٧٦.

والأشكال.. ولا يزال النورسي يلحظ كل ذلك ويسجله، وينتشي بتحصيله، ويكشف عنه بكامل الشموخ والحشمة.

بلاغة الحشمة

بل إن النورسي حين يعلن عن بعض حظوظه ومكاسبه الروحية-كما مر بنا- فإنما يفعل ذلك بكل الخشية والاستحياء.

هناك ملامح بارزة لما يمكن أن يسمى بلاغة الحشمة والانكسار يمكن استشفافها في متن النص النوري.. بل إن الحشمة –بحسب ذوق النورسي- هي امتياز إلهي وصِفَةٌ قدسية تختص بها الربوبية ذاتها" لا اله إلا الله الذي دل على وجوب وجوده في وحدته وعلى عظمة حاكميته في حشمة ربوبيته"[1].. ولعل أدنى وأظهر أمارات هذه البلاغة الاحتشامية[2] النورية أنها تساق دائما في مقام الامتنان والتحدث بالفضل والنعمة الإلهيين، فالخطاب يصطنع من أحوال الانكسار الفطري غير المفتعل، والتواري الطبيعي غير الممسرح، ما يجعل المتلقي يسارع إلى التأمين والتصديق وتقدير القيمة..

إن سر هذا التواري وهذا الإغضاء المعنوي والاحتشام المقامي يتجلى في روح الإمحاء التي تعرب عنها الاشارات البوحية المتزنة.. النورسي لا يتهلل ولا يعلي صوته بنشوة الظفر قائلا: بذراعي انتصرت، وبنضالي علوت، وبصبري أدركت..كلا.. إنها مشاعر الاعتزاز بالذات.. بالشخصي.. بالعارض.

النورسي انجرف في تيار الإمحاء من أول وهلة، فما أن مزَّق بطاقة التعريف المدنية التي عرفه الناس بها (سعيد القديم)، حتى بات خلقا آخر، لا حس له ولا ماهية، تحولت الحسية إلى شيء آخر يجهد لبلوغ مقام الشفوف. لا غرو في ذلك، إذ من أصيل قوانين الحقيقة عنده أن الاسم ماهيته في ذاته، والحرف هويته في غيره؟

فالنورسي حرف متعلق بماهية الأسماء الحسنى.

هناك حشمة في تصريحات النورسي الخاصة بشخصه، وهذه الحشمة تعلمها من تدبره

---

(١) بديع الزمان النورسي. رسالة التفكر الإيماني الرفيع ضمن سلسلة من كليات رسائل النور ٣٣. ص١٤٧. سوزلر. ط٣. ٢٠٠٣ القاهرة.

(٢) لا ريب أنني لمست شيئا من هذه الاحتشامية في بعض ما قرأت للأستاذ كولن..

في جلال القدرة الإلهية المتجسدة على الواقع، فالطبيعة تتجدد وتزدهر كل موسم، وهي تستعرض علينا آيات الحسن الباهر، تفعل ذلك بصمت وغفلة وامتثال تلقائي[1]..

خلق التدثر برداء الاستضعاف هو خلُق النورسي، من هنا بات يعزو كل فتح يتاح له إلى الباري عز وعلا، وحين يصادَف ويكشف النورسي عن بعض أحوال التحقق، فإنما ينوه بعظمة المقرِّب لا المتقرب، الله الذي مَنَّ وتفضَّل وتكرم على عبد شاء أن يجعل من الحقارة والعبدية والهوان والضآلة والتفاهة أخص صفات يتدثر بها قلبا وقالبا، ويمارس بها فرائض الخضوع والتمسح على أعتاب الحضرة، ويؤدي بها صلوات المرابطة في باب القيومية.

الخطاب العفيف

وإذا كنا قد وقفنا من قبل عند سمة الاستحياء التي تطبع خطاب النورسي في مواطن الإعراب الامتناني ومواقف الإفصاح الحميمي، فلا بد من تسجيل صفة أخرى تتجانس مع الأولى من حيث النبل، امتاز بها النورسي، نقصد بها عفة الخطاب..

لتأكيد طبع العفة في خِلقته وأخلاقياته نراه يقرر أنه يتورع عن ذكر الشبهة، ويجسد ذلك فعلا في المواطن كلها، مبررا ذلك التجنب لذكر الشبهات بالحرص على ألا تلحق ذهن المتلقي المسلم شائبة الفسوق والعصيان، فهو يسوق للمتلقي ما يحفظ فيه البكارة الشعورية الطاهرة "أما الشبهات فقد أجبت عنها أجوبة قاطعة من دون ذكر الشبهة نفسها وذلك لئلا تتكدر الأذهان"[2].

فصون الوجه وصون اللسان من أمارات الرهافة الإيمانية التي تبلغها الروح حين تسير على طريق الحق وتنشد درجات الصديقية.. ليس طهر الجسد وحده مطلوبا بالنسبة للمتقين، إنما طهر اللسان والجنان كذلك..

ومعلوم أن الكتابة كثيرا ما تجتذب أصحابَها نحو التجَوُّزاتِ، فتستميلهم إلى اللغو واللهو، بل وإلى التفحش، ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧) ، هذا إذا كانوا على ظاهر من تقوى، أما إذا كانوا مشروطين بثقافة فسقية كالتي تعم عصرنا، فإن التفحش سيكون من صفات (علو) المنتوج (الإبداعي)، وبمثابة علامة

(١) يراجع الشعاعات - الشعاع الرابع ٧٧.
(٢) الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٤٢٠

الامتياز في كل مادة فنية، ويتبرر ذلك باسم الموضوعية والواقعية والتنفيسية والتحررية والآدمية والمستقبلية، الأمر الذي جعل الأدب العالمي المعاصر في مطلقيته تقريبا، أدبا بونوغرافيا، غاويا.

التفكيك

هناك إجرائية تفكيك يجريها النورسي على صعيد البنية ويفاعل بها الخطاب القرآني.

فجملةُ "حسبنا " في قوله تعالى ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ توضع على المشرحة، ويتركز العمل على جزئها المحوري (نا) ضمير الفاعل، فهذا الضمير في حس النورسي هو إحالة تستوعب جموع المخلوقات العجماء قبل أن تكون جموع الكائنات البشرية العاقلة.. لماذا هذا الترجيح للأجناس الصماء على الناطقة أو بالأصح لِمَ يتم إدماج تلك الجموع العجماء واشراكها في شأن تعبدي يتأدى بالعقل والقصدية الإرادية الواعية؟

والجواب ببساطة هو أن النورسي يستشعر وجود جملةَ المخلوقات من حوله، ويرى ماهية الربوبية تتحقق في كل عنصر ومَعْلَمٍ يمْثُل أمام ناظريه، وشارة الربوبية مودعة في كل الكائنات الحية، فلا غرابة أن نرى النورسي يستخدم عبارة (ذوي الأرواح، ذوي الحياة) رفعا لشأن أجناس العجماوات وإقرارا للدور التعبدي الذي تجسده على ذلك النحو الصامت (لتتذكر سماعه تسبيح القطة على مخدته).. ولا غرابة أيضا أن يتصور لتلك الأجناس العجماء وظيفة تسبيحية على شاكلة وظيفة التكليف عند الإنسان..

ثم يمضي التفكيك فيستخرج النورسي (أنا) الفرد من (نا) الجماعة.. ثم يتركز التحليل على (أنا)، فهناك عملية تجزيئ للمعطى الخطابي بنيةً ومعنىً تقتضيه خطة التحليل ليتم التوضيح ويتَأَتَّى سحْبُ النتيجة وتعميمها على المقام.. هذا التعميم هو الهدف الذي يتوخى بلوغه منهج الاستدلال لتغدو به الأحكام قوانين ومسلمات..

فالنورسي الذي صوَّب نحو عالم الأشياء (بذور وبيوض متشاكلة تُوَلِّدُ أجناسا لا متناهية التنوع والاختلاف)، يتحول بنظره إلى عالم العقلاء فيدرجهم في قانون الخلق والتكوين الإلهي، خلوصا إلى الاقرار بالربوبية، بالوحدانية..

هناك استقراء تصاعدي تنازلي، بدأ بجنس العجماوات، وانتهي بجنس النواطق، فظهر أن القانون الذي يسري عليهما واحد.

هناك زاوية خفية تظل دائما غائبة عن منطق وبداهة القارئ في ما يسوقه له النورسي من شواهد ومُوَضِّحات، هذه الزاوية -حين ينيرها النورسي- تجعل المُوَضِّحة تتحول فجأة من كونها شاهدا عاميا وعظيا، إلى عَيِّنة فكرية وإشكالية بالغة الدقة والإفحام.. استمع إليه مثلا يتحدث عن نعمة الجوارح، إذ يقول "شق سمعي وبصري، ووضَعَ دماغا في رأسي، وقلبا في صدري، ولسانا في فمي.."، إلى هنا يظل القول مسوقا على نحو بديهي لا ميزة له، بل نحس أن الأولى لو أن النورسي ساق آية " ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين.." فهي أعرب عن الخاطر، لكن النورسي يستمر في القول".. خلق في ذلك الدماغ.. مئات الموازين الدقيقة والمقاييس الرقيقة".. وهنا يجد القارئ نفسه يتحول إلى أفق لافت، لأن الخطاب من خلال تصعيده الكشفي (موازين دقيقة ومقاييس رقيقة)، يشدنا حتما إلى منطقة الظل في ما نحمله من تصورات عن الأشياء والظواهر فينا ومن حولنا، إذ نظرتنا الإدراكية الاعتيادية غالبا لا تتعدى مستوى السطح والأوَّلية، فيما النفاذ إلى الحقيقة يستوجب أن يتعدى النظر السطح إلى الغور، وذاك هو بالضبط ما يتحقق للنورسي، إذ طفق في ما يكتب ويحلل، يسلط الضوء على الكوى الخفية في الأشياء المعتادة لدى الناس، فلبث يقدم لهم على ذلك النحو الجانب الجوهري الغائب عن تصوراتهم في كثير مما يعيشون ويلابسون، الأمر الذي دأب يطبع أفكاره بالجدة والجدية والغنى والنفاسة والمردودية..

لا يخرج قارئه خائبا مِن حيثما فاعله، فأنت تتلقى خطابا عامرا بالفائدة، كاشفا عن جهد مثمر لبث النورسي يتجشمه في غوصاته واستجلاءاته التأملية، وفي روحاته وغدواته الملكوتية.

* * *

في المثال السابق لم يكتف النورسي بالإعراب عما لتلك الفعاليات والحواس من دقة سماها الموازين والمقاييس، بل مضى في تشخيص كُنْهِ تلك (الجوارح)، فعرَّف وظيفتها، إذ أنها " تتمكن من أن تزن وتتعرف على جميع هدايا الرحمة.."، وواضح أن تعبير (هدايا الرحمة) هنا تعبير يرشح بالإيمان، فهو يجري على لسان النورسي في موقف امتناني سافر، لأن النورسي قد أدرك في تلك الأجهزة الربانية اللطيفة ما قد لا يدرك غيره، فهو إذن تعبير نابع من مشاعر حالية ومقامية. وهو من جهة أخرى تعبير يعرب عن علاقة التراحم التي تربط النورسي بعباد الله ومخلوقاته، فلذا نظر إلى ما يمنحه الله لهم من أفضال على أنه هدايا، وفي

اختيار لفظ الهدايا للتعبير إقرار بالابتهاج على تكريمية الخالق لجنس الآدميين وإعلاء منزلتهم، ولفظ الهدايا من جهة أخرى يترشح حمدا وشكرا واعترافا بالأفضال التي مَنَّ الخالقُ بها على العباد.. وهو لفظ -في المحصلة النهائية- يوعز بحس المسؤولية، مسؤولية تذكير الناس، لأن النورسي ظل في ما يقول ويكتب يعرب عن واجب الحمد والشكر لله، وإلى ذلك كله فإنه كان يدلي بشهادة ترى أن هناك لطفا إلهيا يتجسد في المكرومية التي شمل بها خلْقه..

إن هذا التمادي في التعريف بالشيء هو الجانب الإقناعي المؤثر في المقال الترشيدي النوري، لأن النورسي يرتحل بالحواس والمدارك إلى منطقة الظل، فيجلي ما في الأشياء والموجودات من معان معبرة، ويبرز ما لها من مقومات غير مدركة، ويظهر مدى فاعليتها، فهو إذا ما حدثك عن الشجرة فإن تسديده -قبل أن يكلمك عن الثمرة- يتوجه نحو الأصول والجذور وعن الثرى وما تحت الثرى قبل أن يشمل كلامه الفروع والجذع والغطاء الورقي.. ثم إن حديثه عن الجذور لا يكون ذا جدوى ما لم يربط بين التربة (الطين) الذي حوى البذرة أول أمر، والحمإ الذي تخمرت فيه وهي تنفلق وتنشق عن عرق يكون بمثابة حبل صرة لها تتغذى به البنية، وعرق آخر يعلو فيغدو ساقا فجدعا وفروعا وطلعا نضيدا..

بل إن ضربة الحسم في خطة العرض عند النورسي تتوخى بلوغ ذروة لا تكون في الأغلب إلا مشخصة لنوع من المفارقة تنبني عليها قاعدة الاحتجاج والبرهان والإفحام، فالحديث عن الشجرة لا يستكمل غايته إلا إذا انتهى مساق الكلام إلى الثمرة، وإلى الربط بين لذاذة طعمها وزكاوة شمها وعذوبة لونها، وبين طبيعة منبتها المفارقة لكل ذلك (بذرة متفسخة في قاع من الحمإ المسنون)..

هكذا يبني النورسي أفكاره الإثباتية، يغوص إليها، ويمفصل التفرعات والجزئيات، ثم يعقلن مواطن التنافر الظاهر والنشاز الحسي الماثل بين النتيجة والمقدمات، ملامسا البعد الغيبي الذي تنبني عليه الأشياء، متجاوزا سُلَّمِية الاستكشاف التي ينتهي عندها الوضعانيون، حين ينتهون بأفكارهم إلى الحد الذي تنتهي عنده حواسهم، فهم لذلك يؤلِّهون الأسباب، فيما النورسي يجعل من سقفية الأسباب مجرد محطة تنتهي عندها البصيرة الحسية البشرية، وتبدأ بعدها بصيرتهم الروحية، فيرون بالروح علة أُمَّاً، هي القوة المهيمنة على كل فاعلية سببية في هذ الوجود.. من الطين والحمإ تنتج أزكى الروائح.... ومن البقعة الواحدة تنبت آلاف الانواع، بالمزن الواحد تتخرج كافة الأزياء النباتية والاجناس المتساكنة في صعيد واحد،

فالخالق واحد والمصنع واحد ومباركته المسجلة واحدة هي ك.ن. (كن فيكون) [1]

النورسي.. والبيئة التواصلية من حوله

يكاد الدارس المتعجل أن يربط-ووفق نظرية الانعكاس- ظاهر نصوص النورسي مع بيئة إنتاج هذه النصوص.. بين البيئة الطبيعية الجميلة بل الساحرة التي تقلَّبَ فيها النورسي أثناء عقود من جهاده ونفيه، وبين الخلابة التي تميزت بها شعريته وتأصلت لخطابه..

حقا لقد شاع بيننا القول القائل (الفن ابن بيئته) وسار مسار المسلَّمة، غير أن التأمل الجاد في العلاقة الخفية القائمة بين نصوص الرسائل ومناخ بيئتها حيث تولدت، يبين أن البيئة الطبيعية لم تكن دائما شرط المنعكس الجمالي والاعتباري لمادة الرسائل، وإنما الذي ينعكس هو ما ورائية تلك الطبيعة وموعزاتُها وتوهجاتُها الروحية، بدليل وجود هذا اللفْحِ القوي الذي يسري إلى القارئ من ثنايا السطور، لَفْحٌ يُنسيه ما يجد من نعومة المناظر الطبيعية والمرئيات الفيزيكية التي يستدعيها النورسي ويصنع منها نصوصه وينسج عليها أفكاره..

الطبيعة حاضرة بقوة في الرسائل، والعاطفة التي يسبغها النورسي على الأشياء والألحان النابعة من تلك الطبيعة لا تقف عند حدِّ التغزل بالجمال الحسي كما هو شأن الحسّيّين عادة، بل إن العاطفة ترحل بالضمير إلى ما هو أعمق وأبعد من الديكور، إلى الروح الكلية التي تفيض على الكون وعلى ما يعمره من موجودات حسية ومعنوية وتعطيها ماهيتها الإيمانية الملموسة.. هناك روحانية في الرسائل تظهر بالقوة حينا، وبالفعل أحايين، هي التي تعقد الصلة بين القارئ وبين الرسائل، وتجعله يستكشف على الدوام فيها الجديد، والمقنع، والمعبر.

الخطاب القرآني

"..الخطاب القرآني هو من الجمالية الرفيعة بحيث يكون غذاء وقوتا في ذات الوقت".[2]

لابد أن يُبصر القارئ الأريب في كثير مما طفق النورسي ينعت به البيان القرآني من خصائص ويستشفف فيه من مزايا ونبوغ، نعوتا وخصائص تنطبق بنحو أو آخر على أسلوب الرسائل النورية ذاتها.

---

(١) انظر الشعاعات - الشعاع الرابع ٧٤.

(٢) انظر الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٤٣٧.

فحين يؤكد النورسي "أن البيانات القرآنية مؤثرة ورقيقة ومؤنسة ورفيعة حتى إنها تملأ الروح شوقا والعقل لهفة والعين دمعا"[1] فإنما يعبر -بنحو ما- عن خصائص أسلوبه هو، إذ أن الرسائل لم تتأثر بالقرآن قلبا فحسب، بل لقد تأثرت به قالبا أيضا، إذ انْشَدَّتْ إليه بعد أن سحرها، واتبعت نهجه المتفوق بعد أن بهرها، فورثت عنه شيئا من صفاته.

إن القارئ الخبير يتبين بسهولة تبطين القرآن للرسائل، إذ فوق كل سياق نوري تزدهر حقيقة قرآنية وتتجسد لمحة فرقانية.. والذي لا ريب فيه أن مواطن عدة من النصوص النورية تتشح بهذه الخاصية القرآنية الاستلائية، فهي على الدوام نصوص تصعد من تحسيساتها الفكرية والقلبية بحيث تَأَتَّى لها أن تواجه القارئ بعطاياها الغزيرة وبكل ما يملأ " الروح شوقا والعقل لهفة والعين دمعا "، ولا إخال أن هناك قارئا لم ترتعش نبرتُهُ تأثرا بمعاني الرسائل المستلهمة من معين القرآن، ولم تتَنَدَّ عيناه تجاوبا مع ما ينفلت أحيانا من مشاعر تحرِّكُ في النفس مكامن الشفقة والرحمة والتعاطف والتضامن مع مؤلفها رحمه الله.

جامعية ألفاظ القرآن

يعترف النورسي أن القرآن اشتمل على علوم شريعة وأخرى علوم حقيقة، وثالثة علوم طريقة، فهو قد ضم "الحكمة الحقيقية..المسخرة لدائرة الممكنات، وضم العلوم الحقيقة المناطة بدائرة الوجوب، وضم "المعارف الغامضة" المتوجهة لدائرة الآخرة"[2]، وضمن نطاق هذه الدوائر دأب النورسي على الحركة وتفعيل العقل، واستجلاء مكامن العبرة والنور في القرآن، ليشيد صرح رسائله، معتبرا عمله ذلك تفسيرا للقرآن واستمدادا لأسراره.

يقرأ آية من لفظين() بأكثر من عين وأكثر من عقل، إذ يرى أن الخطاب القرآني هو حمولة من الفوائد، وكل فرد ينال حصة على قدر ملكاته واستعداداته.. وهذا قانون تثبته نظرية التواصل. إنما الطريف اللافت عند النورسي هو هذا التعدد في المستويات الذي استطاعت ذهنيته أن تستشفه في الآية القرآنية وتقرأه بها.. حتى ليمكننا القول إن للنورسي ذهنية سبرية، متعددة المرايا (Polyvisuelle)، تستوعب طبقات من المعاني في الأرضية الواحدة، وأن عينَهُ تنفذ إلى أركيولوجية الدلالة وتخترق طبقاتها.. بل إن النورسي بهذا النفاذ الإدراكي

(١) الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٤٤٢. بتصرف قليل

(٢) انظرالكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٤٥٧.

يكشف عن عقلية عارفة بفوارق نفسية الآخرين، وأن هذه المعرفة هي ما أهله لبلوغ هذا التفوق والتوفيق ليس فقط في فهم الروح الإنسانية، ولكن في تجهيز خطابه بمقومات توصيلية تيسر من عملية تداول أفكاره بين الناس، وتقوي من فرص رواجها بين الأوساط المختلفة..

طالما أكد النورسي على تعدد أصوات الخطاب القرآني، إذ طفق يلمس في الآية الواحدة تعدد مستويات معناها ليس لأن اللفظ القرآني له قابلية حمل المعنى وضده، ولكن لأن "القرآن جاء مُكَلِّماً، متوجها إلى أصناف متعددة متباعدة من المخاطبين..بحيث يظن كل صنف أنه المخاطب وحده بالأصالة"[1]، لقد وعى النورسي أنه:

"ما دام الخطاب القرآني الكريم خطابا أزليا يخاطب به الله سبحانه وتعالى مختلف طبقات البشرية المصطفة خلف العصور، ويرشدهم جميعا، فلابد أنه يدرج معاني عدة لتلائم مختلف الأفهام، ويضع أمارات على إراداته هذه"[2].

يقرأ النورسي مثلا آية "والشمس تجري لمستقر لها.." فيرى أن (لام الجر) فيها يتضمن معناه الغائي ويتضمن أيضا معنى رديفا هو (في) (في مستقر لها..) [3]، ليس هذا وحسب، بل نراه يقرؤها على أوجه أخرى منها أن حرف الجر(في) هو رديف للعلة، أي أن الشمس تجري بعلة الاستقرار.

بل لقد رأى أن تبادل الألفاظ والحروف لمعاني بعضها بعض هو من جاري عرف اللغة، لاسيما في سياق المخاطبات، إذ نقول إن السفينة تجري في البحر، والأصل تجري على البحر، لكن وقع استبدال حرف على بحرف أدى مضمونه وزاد عليه خصيصة سياقية يدركها العارف " وكم من شيء يُرْكب عليه فيستحق لفظ -على- ولكن ما أن يكون ظرفا فإنه يستدعي لفظ -في- ك: تجري في البحر.. أو يكون غاية فيطلب -إلى- و-حتى- ولكن لكونه علة وظرفا يناسبه -اللام- و-في- كـ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا..﴾ (يس: ٣٨)[4].

كما نراه يرى أن الآية تبطن معنى رمزيا يجعل من الشمس شجرةٌ ثمارُها المجرات ومجاميع السيارات من حولها.. أو أن الشمس سيدٌ في حلقة ذكر يدير مجلس وجْدٍ، فمتى

---

(١) انظرالكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٤٨٢

(٢) الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٤٥٦

(٣)انظر الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٤٥٤

(٤) انظرصيقل الإسلام- محاكمات عقلية ١٠٩

صمتَ بردت الجلسةُ، وتعطل تيار الانجذاب..

هكذا يُخرِّج النورسي الآية من خلال إدراك إحاطي، فيجد عقل القارئ فيها ليس معنى واحدا -ملقى على الطريق، يقع عليه نظر العجمي والعربي- ولكن معاني جملة، تستشف من زواياها المختلفة، تتساوق كلها مع المنطق العقلي، وتعزز من رجاحة الإقناع والاعتبار التي توخى القرآن ترسيخهما من وراء منهج التدليل الحسي الذي اتبعه في طائفة كبرى من حججه.

نرى النورسي يتناول آية﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٥)، فيراها تختزل الكلام وتختصره لأجل أن يتسع معناها ويستوعب مساحة من أصناف الفاعلين[١]، حيث إن لفظ (المفلحون) يستجمع أطيافا من المرشحين لنيل الفلاح الأخروي.. لذا جاء اللفظ مطلقا من غير تحديد شرطية الفلاح.. فلم يحدد الكيفية ولا الوسيلة ولا السببية التي ينال بها الناس مقام الفَلاحية..إذ هو مقام يَصل إليه الإنسان بكيفيات وعطاءات شتى.. فالآية سكتت عن الحصر، لتوسع من أفق الخدمة وتنوع من إمكانات التوسل والعبادة أمام المؤمنين.. هكذا يأتي الاجتهاد النوري سمحا، فاسحا المجال في وجه التوبة والسعي والتوسل وعدم الوقوع في مغبة القنوط ومزلق الإحباط.

البعد التنويري الإضافي

كثيرا ما يجد النورسي في الدراسة الإعجازية عاملا مهمّاً يساعده على توسيع مساحة التنوير وتسليط الأضواء وإفادة المتلقي بالمزيد من التوجيه والترشيد، فما أكثر ما رأيناه يتناول موضوعه، ثم يتوسل إلى رصده من أطراف عدة بمجرد ايراد الآية القرآنية المتعلقة بذلك الموضوع، والتعليق عليها كما فعل مثلا في اللمعة الخامسة من الكلمة الخامسة والعشرين، حيث أدى به الاستطراد في بيان إعجاز الخطاب القرآني إلى أن يسترسل وبصورة شبه عفوية ، في رصد آيات وصفات بني إسرائيل وفضح حقيقتهم (الاثنو- سونترية[٢]) المتواترة عبر العصور، فلا يفرغ القارئ من قراءة ذلك الاستطراد حتى يخرج وقد تشكلتْ لديه صورة ثقافية وأخلاقية وروحية لذلك الجنس الابتزازي، فلكأن القارئ بذلك التنوير قد وقف على ما تضمنته أسفار العهد القديم (لا سيما خروج وأشعياء وأرمياء) وقرأ ما ورد فيها من تشنيع

(١) انظرالكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٤٥٥

(٢) المنغلقة والمتمركزة على ذاتها تمركز اعتلاء وعنصرية

باليهود وترذيلهم على لسان ربهم يهوه وبأفواه أنبيائهم وأصفيائهم.

للإنسان إرادة جزئية

في مخاطبته لنفسه يقرر النورسي أن خيارات الإنسان في الحياة والمصير ثابتة، أو أن للإنسان على الأقل هامشا مؤكدا من حرية الاختيار على صعيد الواقع "كذلك أنت، فبقلبك وبعقلك وبعملك يمكنك أن تغير صور عالمك، وباختيارك وطوع إرادتك يمكنك أن تجعل ذلك العالم يشهد لك أو عليك"[١].

لا ننس أن تثمير منطق الجزئية الذي جعله النورسي مبدأ من مبادئ بناء منظوره الفكري والفلسفي للوجود، سيمكّنه من وضع تصورات كلية تتعلق بأعقد القضايا الكبرى ومنها مثلا قضية الحرية والاختيار كما سبق أن رأينا أعلاه.. فعن طريق منطق الجزئية يحدد النورسي مبدأ الحرية الفردية التي يحاسب عليها الإنسان في أعماله.. إن النورسي يقرر أن الإنسان – وبسبب ما يتمتع به من هامش جزئي في حرية اختياراته– تكتمل دائرة قدريته..

للإنسان هامش من الاختيار، إذ أن إرادة الإنسان الجزئية وجزأه الاختياري ضعيف وأمر اعتباري، إلا أن الله.. قد جعل تلك الإرادة الجزئية الضعيفة شرطا عاديا لإرادته الكلية، أي كأنه يقول معنى: ياعبدي أي طريق تختاره للسلوك فأنا أسوقك إليه[٢]"، إذ اقتداره جزئي واختياره جزئي واستعداداته مختلفة ورغباته متفاوتة"[٣].

الإنسان يماثل الشجرة في المصير القدري ويخالفها من حيث إن له إمكانية اختيار جزئي.

– حياة الشجرة لها تاريخ[٤] هو هذه الأطوار والتحولات والإثمارات والاحتباسات التي يمر بها.. فهي لا إرادة حرة لها، مع كونها حية ومتطورة وذات شخصية مستقلة عن إرادتنا نحن البشر، ووجه التشابه بين الشجرة والإنسان أن للإنسان مثلها حافظةً سُطِّر عليها بقلم القدر تاريخُ حياته، وكذا الشجرة تحمل في نواتها فهيرس تاريخها وحياتها.

وإذا كان للشجرة ثمرة هي غاية وجودها، فلا ريب أن الإنسان هو ثمرة شجرة الخلقة، فهو تَرَقٍّ نهائي تهيأ ليجسد أثمن القيم وليؤدي أسمى الوظائف: العبودية لله.

---

(١) انظر الكلمات– الكلمة الحادية والعشرون ٣٠٢.

(٢) انظر الكلمات– الكلمة السادسة والعشرون ٥٤٨.

(٣) الكلمات–الكلمة الرابعة والعشرون ٣٨٠

(٤) انظر الكلمات–الكلمة السادسة والعشرون٥٥٠

وإن جِهةَ التشابه بين الإنسان والثمرة، أن كليهما هو نتاج مخاضٍ نوعيٍ مفارقٍ لأصله ومصدر تَخَلُّقِه، فالثمرة لا تشبه في شكلها ولا في مذاقها شكل ومذاق شجرتها، وكذا الإنسان، لا يتصف بمادة تخلقه الأصلية: الطين.

وجهة التفاوت بين الإنسان والحيوان، أن الحيوان يأتي إلى الدنيا وكأنه قد اكتمل في عالم آخر. فيرسل إليها متكاملا حسب استعداده، فيتعلم في ظرف ساعتين أو يومين أو شهرين جميع شرائط حياته وعلاقاته بالكائنات الأخرى وقوانين حياته.. أما الإنسان فيقدِم إلى الدنيا وهو محتاج إلى تعلم كل شيء وإدراك كل شأن.. فوظيفة الإنسان الفطرية هي التكمل "بالتعلم" أي الترقي عن طريق كسب العلم والمعرفة والعبودية بالدعاء.. وأساس كل العلوم الحقيقية ومعدنها ونورها وروحها هو معرفة الله تعالى، كما أن أسَّ هذا الأساس هو الإيمان بالله جل وعلا"[1].

أهل الحقيقة طبقات ثلاث والنورسي أحد هذه الطبقات

يعدد طبقات أهل الحقيقة، ويُبيّن السبل التي يسلكونها لنيل الحقيقة، إذ هم ثلاث طبقات، طبقة أهل المجاهدة، وطبقة أهل التسليم، وطبقة أهل الحكمة..

ونحدس نحن -دون تردد- أن النورسي يوجد ضمن إحدى تلك الطبقات، أي "الذين يصلون إلى الحقيقة سريعا بالإيمان والقرآن والفقر والعبودية[2]". فمنهجه الروحي وفلسفته الإيمانية منصوص عليهما في الرسائل، ولا يمكن للقارئ أن يخطئ في تحديد ملامحهما ومرتكزاتهما.. علما بأن النورسي يشارك الأصناف الأخرى في ما أخذوا به من سبل ووسائل لبلوغ الحقيقة.. فهو ينتمي من بعض الوجوه إلى أهل الحقيقة الماضين إليها بالمجاهدة بتزكية النفس وإعمال العقل.. وهو أيضا ينتمي إلى أولئك السائرين إلى الحقيقة بتصفية القلب والإيمان والتسليم، وهو أيضا من "الذين يتحرون الحقيقة بالعلم والحكمة والمعرفة[3]"..

على أنه قطعا ليس من الذين حصروا السلوك إلى الحقيقة في استدلالهم، ولم يدَعوا الأنانية والغرور.. بل إنه يحذر أن يقع المرء في ما وقع فيه هذا الصنف الذي اعتدَّ بعقله ولم ينوِّرْ مداركه بروح الشريعة.

---

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٥٥

(٢) الكلمات-الكلمة الرابعة والعشرون ٣٨١

(٣) الكلمات-الكلمة الرابعة والعشرون ٣٨١

فاعلية الاستنباط العقلي

- يتناهى خطابه في تثمير فاعلية الاستنباط العقلي، فهو -مثلا-بدل أن يقول: التفكير عبادة، نراه يدرج مسعى العبادة ضمن منظور (الأجْرية الفطرية) الذي أصَّلَهُ للخدمة، إذ يجعلنا ندرك أن اللذة المتحققة من أداء الفعل الفطري هي جزاؤه العيني الحاضر، إذ كل فعل يقوم به الإنسان وفق ضوابط الشريعة -حتى الشهوة الحلال- إنما يؤجر عليها[1]، فالإنسان ينقاد لكثير من الواجبات بالباعث الفطري، ذلك لأن النزعة الآدمية قد ركب الخالق فيها قابلية السعي، وشَرَطَهُ بالباعث الغريزي، وزرع حافز اللذة في النفس الإنسانية بل وفي روح كل حي، بما في ذلك الحيوان والنبات، لتكون تلك اللذة هي محرك الحدب والطلب والتلقائية التي يدبر الإنسان بها شؤونه، ولذا لا تتفتح الزهرة إلا لتعرب عن ضرب من الالتذاذ.. إن فعل تكاثر الأجناس مثلا -بما في ذلك جنس الإنسان- إنما يتم من خلال آلية طلب اللذة وبحافزية الباعث الذي يحمل كل كائن حي على إشباع الباعث الفطري، وبذلك تستمر الحياة وتتوسع.

فاللذة بحسب النورسي هي الجزاء العاجل الذي يتلقاه الفاعل الحي وهو ينهض بالفعل السوي، زيادة عما رصد الخالق له -لقاء ذلك- من جزاء آجل هو الثواب الأخروي[2].

من هذا المنطلق يغدو العقل نفسه حاسة أو جهازا ينتصب على صعيد واحد مع الحواس الاخرى: العين والأذن والفم والأنف، ويتهيأ مثلها للمأجورية العاجلة، إذ أن تَلَذُّذَ هذه القدرات بما تصيب من طيب أو متعة أو هارمونيك أو جمال أو يقين إنما يُعَدُّ أجرة فورية تهيأت لها عن طريق الجِبِلَّة وفق اقتضاء إلهي عادل.. وفي هذا السياق يرى النورسي أن العبادة هي حق يقتضيه الخالق من عباده جزاء ما تكرم به عليهم من نعم "يا نفس إن وظائف العبودية وتكاليفها ليست مقدمة لثواب لاحق، بل هي نتيجة لنعمة سابقة[3]"..

بل إننا نرى النورسي يذهب بهذه الرؤية المنطقية في اتجاه ميتافيزيقي إعلائي تتقلص به المسافة بين الحياة الدنيوية والأخروية، وتغدو حوادث الأولى امتدادا للآخرة مع فارق النوعية طبعا: الفاكهة التي تأكلها في الدنيا وتذكر عليها الحمد لله، تتجسم في الجنة فاكهة فردوسية

---

(١) والأصل هنا، ما ورد في الحديث بهذا الخصوص.

(٢) انظر انظر: الكلمات- الكلمة الثانية والثلاثون ٧٧٤

(٣) الكلمات-الكلمة الرابعة والعشرون ٤١٣

وتقدم لك لذة طيبة [1].

فقه الحروف يفيد في بناء مواقف الاعتدال

ينسحب التحسس العقلي عند النورسي على المجال اللغوي أيضا، حيث نراه يظهر اقتدارا جليا في فقه قيم الحروف والمحددات اللغوية البسيطة، فتمرسه بمعاني الحروف - مثلا- يجعله يفترض للحروف دلالات تضمينية وقيما استعاضية تتراوحها حسب السياق أو التخريج العقلي، وإلى ذلك نراه يؤكد لنا أن الوعي بالدلالة الحرفية أمر بلاغي، تواصلي، وعلى أهمية كبرى في حياة الناس، فبقدر مهارتنا في توظيف الحروف وتوجيهها وجهة سديدة يمكننا أن نجد الصيغة الأنسب التي يتحدد بها خطاب التسامح، نرى ذلك مثلا في معالجته لدال (الحق)، فالاختلاف في قولنا (هذا الحق)، و(هذا حق) ليس في حرف التعريف فقط، وإنما في الجوهر أيضا، إذ معنى الحقية في العبارتين متفاوت، فهو مع إضافة حرف التعريف حصري، ومع إزالته إطلاقي، لأن قولك (هذا الحق)، يحمل روحَ دَفْعِ الآخر وعدم الاعتراف له بالموقع، فيما قولك (هذا حق) يتضمن الاعتراف بالآخر، وبأن الحق متعدد الوجود، وأن الموقع يستوعب الرأي والرأي الآخر..

لقد رأى النورسي أن تجريد لفظ الحق من (ال) التعريفية يترك باب التفاهم مفتوحا، ويسد كل احتمال للتعارض السلبي والتنافي الإقصائي، فقولك لخصمك هذا الذي أرى هو حق، أدعى إلى التفاهم من قولك له هذا الذي أراه هو الحق.. إذ (ال) هنا استحواذية، تلغي رأي الآخر، فهي أبعث على الصدام والخلاف..

هكذا وبفضل هذا التخريج الذي نستلهمه من نظرة النورسي التسامحية التي عبر عنها من خلال حسن تقديره لقيمة الحرف ومنزلته الوظيفية في البنية اللفظية، نتعلم كيف نكيِّف علاقتنا بالآخر من خلال تحوير جزئي في الخطاب (بتنازل جزئي على مستوى بنية اللفظ، يعكسه تنازل جزئي على مستوى الموقف) وكيف نلطِّف موقفنا من الحدة والحدية، وكيف نوسع من مساحة التفاعل الإيجابي مع الآخرين.

لا ريب أن هذه الدراية بمنطق الحروف وبفحوى الخطاب إنما تهيَّأتْ للنورسي جراء تمرسه بالمراس العقلي، فاشتغاله الدائم بالتفكير وتفكيك الظواهر، ومنها التدبر في معاني

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثانية والثلاثون ٧٧٥

الآيات وتفسيرها، قد عزز لديه هذه القابلية الإدراكية على صعيد اللغة وموادها البنائية.

الحقل الإحالي التمثيلي

مادة الإحالة التمثيلية لا تنحصر عنده في حقل بعينه من المشخصات والشواهد، بل إنها مادة إحالية عريضة، إلا أن المتواتر منها في ثنايا الرسائل بصورة محسوسة هو (النواة، الشجرة، الثمرة)، إذ الحدث الإنباتي، باعتباره التجسيم الحي والأمثل للفعل الخلقي الإلهي ولقدرته الإيجادية، طفق يتكرر متخذا من معاني الغراسة والتلقيح والتجرثم وما في معناها مجالا تصويريا وتوضيحيا لمظاهر الإيجاد الإلهية ولقدرة الباري في الإنشاء والتكوين والحشر..

وطبيعي أن تتداعى إلى هذا الحقل الإحالي ألفاظ الماء، القطرة، النطفة إلخ.. إذ المجال المعنوي واحد والتشابه بين الوقائع النمائية لشتى الأجناس قائم، فماهية التخليق تتم -حسيا- بالنواة وبالنطفة وبالقطرة.. ولذا رأينا النورسي لا يَني يُقرِنُ بين الإنسان والشجرة، بين الإيمان والثمرة، بين الحياة والآخرة.. لأنه يرى أن الدنيا شجرة، ثمرتها الآخرة.

هناك مجال إحالي آخر تستدعيه مواقف التمثيل والإيضاح هو المجال الإنساني، قوامه فواعل اجتماعية وعلائق تعاملية، ومحور الصلات والتواصلات فيه هو صراع الخير مع الشر، ولعل من أهم عناصر التشخيص والأداء التي يوظفها النورسي: السلطان والقصر، السيد والعبد، القائد والجند..التاجر والبضاعة، السفر والسياحة.. كما أن مسرح هذه الأحداث التمثيلية إنما يكون الواقع والخيال، الحلم واليقظة، البحر واليابسة، الليل والنهار.. والصورة التقابلية التي يتمحور حولها التمثيل ليست مجانية، إنما توعز بحقيقة التقابل بين العوالم والبُنى التي انطبع عليها ذهن الإنسان وتهيأ لها حسُّه الجبلي، إذ هناك ثنائية مفاهيمية تؤطر فكر الإنسان وتحدد ماهية معارفه ومداركه.. فالإنسان قيمة شعورية تتحدد معالمها من خلال إحداثيتي العدم والوجود، الحضور والغياب، الحياة والموت، السعادة والشقاء، الزمان والمكان، الكفر والإيمان..

لا شك أن مادة الاستلهام في ما تداوله النورسي من شواهد وتمثيلات كان أساسها التجربة والحياة، وكذلك المقروءات والأخبار التي اختزنها النورسي في ذهنه زادا للعبرة والموعظة، وهي أيضا تركيبات ذهنية تُوَلِّدها المخيلةُ التي تَرَيَّضتْ طويلا على اصطناع المشاهد البديلة عن الواقع المكفهر، وعلى تجديد العوالم النفسية والروحية تعويضا عن كآبة

الأحوال الكابسة..

هناك مساحة ثالثة من وسائط التمثيل والتوضيح هي عالم الجمادات والعجماوات أو عالم غير العاقلين.

لَطالما حاورت مخيلةُ النورسي الجبال والبحار والنجوم والقفار، وطالما استنطقت عناصر الكون الصماء وشخصتها في سياقات حية، معبرة عن المشيئة الإلهية التي أوجدتها وأدمجتها في نظام شمولي تؤدي فيه وظيفتها بحكمة التسخير وبفطرة التسبيح التي جبلت عليها الأشياء والموجودات.

هناك حنكة فنية لديه وقدرة عقلية -ظلت محل اعترافه هو- لبث يستثمرها في مَسْرَحَة أفكاره وتجسيد معانيه في صور شاخصة من خلال سوْقِ الأمثلة القصصية واستعراض المواقف السردية التي كان النورسي يدرجها في رسائله كبطاقات بريدية تذكارية يرسلها إلى القارئ من مواطن ساقه إليها ارتحاله الروحي، وانتهت إليها سياحاته القلبية وسرحاته الروحية وجولاته العقلية.

-الاقتدار على الاستقراء نلمسه في هذا التمرس الذهني الذي يجعل النورسي يجتاز باستمرار إلى ما وراء منطقة الشهود، إلى تخوم قصية من مدارات الغيب واللاشهود، فلكأن مخيلته منظار مسلح بألوان ما فوق البنفسجي، تخترق الكثافة وتشخص عوالمها المحجوبة، وتحصيها، وتترصد حياة من يعمورونها وتحركاتهم تماما كما يُجري دارسٌ منقِّبٌ تحقيقاته تحت الماء في أعماق المحيط..

إن النورسي الذي ظل يعتبر المخلوق الإنساني قلب الكائنات وواسطة المخلوقات (ذوات الأرواح) ظل ينظر إلى المحيط الكوني وما يملؤه من أجناس وموجودات ومرافق على أنها عوالم تعمر الفضاء السفلي من حول الإنسان، تماما كما أن هنالك مرافق وأجناس وعوالم تملأ الفضاء العلوي من حوله.. وظل من جهة ثانية يقابل بين عناصر هذا الواقع المركب الذي يحيط بالإنسان ويقرأ من خلاله الواقع اللامرئي من حياتنا وعوالمنا، فكما أن الشجرة -وهي من مكونات العالم السفلي- كائن مسبح مسخر يؤدي وظيفة حيوية في هذا الكون على أكمل الوجوه وأدقها، فكذلك هناك فصائل الروحانيات اللامرئية في العالم العلوي من ملائكة وأجناس أخرى مسخرة مسبحة، تؤدي دورها الكوني من حول العرش، وتعمر الملكوت، وتدأب على تأدية ما أسند إليها من مهام بشكل دقيق وحي ومستمر..

والنورسي وهو يوجه الكاميرا نحو هذه العوالم اللامرئية يدهشنا -فعلا- لأنه لا يباشرها في ضوء ما تواتر عنها في التراث والمدونات القدسية فحسب، بل إن النورسي ليتعمق حقيقة هذه العوالم ويشخصنها ويواصف منظوماتها وبُنى اجتماعها وعلائقها وأجواء روحانياتها، وهو في كل ذلك لا يتجرأ على الغيب ولكن يستثمر جُمام مشاعر وتصورات استهدى إليها بتنقيب عقلي واستخطار روحي، مسنود بتعاليم الكتاب والسنة، (تذكروا توصيف القرآن لمجتمع الجن في سورة الجن مثلا).. من هنا يسعنا القول إن النورسي يُسَخِّر فائض قدرته العقلية في استكشاف وتوسيع حدود الرؤية الغيبية، من موقع إيماني، تنويري.

فكما تعود النورسي أن ينقِّب في كنه الذرة والرشحة وفي صلب الجزيئات العضوية، ويبين فطرتها وسلوكها وروحيتها، فهو يفعل ذلك كذلك مع عالم الملائكة والروحانيات، إذ يتصور أحوالها واستجاباتها وصلاتها بوظائفها، ويتحسس وازع التسبيح الذي جبلت عليه.. كل ذلك يفعله النورسي دون أن يجد القارئ في هذا التفعيل المباشر والتوصيف الحي لعوالم الماوراء إلا مزيدا من الاستطراف والتذوق والمشاركة والتأمين..

إن حنكة النورسي تتمثل في هذا التمَكُّن المنطقي والأدبي الذي يجعله لا ينجح فحسب في إضفاء الصبغة المنطقية على عوالم الغيب وعوالم الطبيعة الصماء وعوالم العجماوات، ولكنه إلى ذلك ينجح–وبمعقولية لا مراء فيها - في افتراض البيئة الموضوعية والعاطفة النابضة والسلوك الفطري والمأمورية الراتبة لتلك العوالم.. إنه يشخصن ذلك دونما أدنى افتعال، وما ذلك إلا لأنه يرقى إلى تصوير تلك العوالم الطاهرة بروحية طاهرة، روحية تعكسُ ذاتَها[1] وتعرب عن تَحَنُّفها وفَنائها وانصياعها وطمعها وذلتها الدنيوية المتطلعة إلى مرضاة الله وإلى استنزال رحمته وبركاته، في ما تصف وتستشرف من عوالم الغيب، فتعاين اللامرئي بروحية الذات التي استطاعت أن تنفذ إلى ما ورء الحواجز، وترقى إلى ما فوق الحجب..

إن النورسي بهذا التمثل الإقترابي لعوالم المغيب يوسع من دائرة المعرفة الروحية الإنسانية، ويستصلح آفاقا أخرى مما أفسدت ثقافة الحس واللا إيمان.

قابلية اقتحام الإشكالات الشائكة

لا ريب أن القدرة العقلية التي تميَّز بها النورسي هي التي تقف وراء ظاهرة اقتحامه

(١) (أو تسقطها على ..كما يقال في لغة علم النفس)

للمسائل الدقيقة والقضايا العويصة..

فلقد رأيناه يبدي نوعا من الإصرار على معاودة القول في طائفة من الموضوعات الحرجة المتعلقة بالغيب وبما فوق العقلي..

فحين نراه يطرح مثل هذا السؤال: إنك تقول في هذا المقام لقد أحاط الحسن والجمال والعدالة بالكون، ولكن ما تقول فيما نشاهده من القبائح والمصائب والأمراض والأموات؟

فلا ريب أنه يجد في نفسه الباعث العقلي على الخوض في هذه الإشكالية الفلسفية والشرعية وتبسيطها وتنوير الفئات المسلمة عنها، مدللا بذلك، وفي نفس الوقت، على نزعة تحَدٍّ وإرادة نزال لا تكون إلا عند المقتدرين.

لا شك أن قراءتنا لرده عن هذا السؤال ستكشف لنا عن طبيعة التصور والتفكير التي تميزه.

نراه -للإجابة- يطرح المسلَّمة الحاسمة التالية، وهي أن الحسن ما كان ليظهر للناس ويعرفوه لو لم يوجد بإزائه القبح.

من الواضح أن الاكتفاء بهذا الرد المجمل كان سيجعله ردا عاميا لا يخرج عن سياق الإثباتات الوعظية كما يدور على ألسنة الخطباء العاديين، لذا نرى النورسي يصعِّد في عملية التدليل، فيعزز مُسَلَّمتَهُ بفذلكة منطقية تؤكدها، حيث يبيِّن أن ملابسة القبح للحسن يجعل درجات الحسن تظهر للعيان، ويستدل في هذا الصدد بما يحصل للأجسام حين تلابسها البرودة، إذ أن ملابسة البرودة للأجسام تجعلنا نميز درجات الحرارة فيها، فكذلك تداخل القبح في الأشياء يمكننا من تمييز مستويات الحسن فيها.

من هذا الاستدلال يخلص النورسي إلى الحقيقة التالية وهي أن القبح الذي يتيح للحسن أن يظهر هو بالضرورة شيء جميل، لأنه يقوم مقام العلة من حيث أهميته في الكشف عن حقيقة الحسن.. وما هو علة للخير هو حتما خير، وما هو علة للحسن هو بطبيعة الحال حسْنٌ حتى ولو كان قبحا.. (وهنا يجد القارئ نفسه -آليا- يستدعي عشرات الأحوال التي تؤكد هذه القاعدة، فسماد الأرض -الطيبة- يغدو شيئا حسنا رغم فساده، وتذكير الثمار بالذُّكَّار المحموم كذلك هو أمر حسن، وتلقيح الطفل بالمصل الذي هو جرثوم أمر حسن..).

من هذا المنطق يستدعي ذهن النورسي مسائل أخرى أكثر تعقيدا يسحب عليها قاعدته، من ذلك موضوع الموت، إذ يرى أن الموت لا تتنافى مع مبدإ الرحمة العامة والحُسن

المحيط والخير الشامل، لأن الموت من مقتضيات هذه الأمور، باعتباره ظاهرة تجدد، وموعدا لاستخلاف الدفعات بعضها ببعض، ومنعطفا تتحول به الحياة إلى عالم الأبدية.. فما يفضي إلى السعادة هو بالفعل حسن وخير ورحمة، حتى وإن جهل الإنسان ذلك.

هكذا منهج النورسي العقلي، إنه يطرح الإشكالية ثم يتخذ منها صعيدا لبسط قناعته ورؤيته.. وأغلب ما تكون الإشكالية حادة في تحدِّيها.. ثم، ومن معالجتها يأتي الجواب بكامل المعقولية الهادئة والتبصر غير المنتظر في الغالب.. ليتولد القانون في النهاية "بوجود الشر الجزئي تظهر الخيرات الكلية"[1]، ويتعمم المبدأ على سائر الظواهر المشاكلة للموضوع.

وإذا ما تَمَعَنَّا في فحوى هذا القانون الذي استنتجه النورسي عن الشر والخير "بوجود الشر الجزئي تظهر الخيرات الكلية"، فلا شك سيشدُّنا فيه مفهوم (الجزئي) الذي ظهر كقيمة طرفية في المعادلة التي يتأسس عليها نص القانون" =بوجود الشر الجزئي تظهر الخيرات الكلية"، هناك إذَنْ شرٌّ كلِّيٌّ، وشَرٌّ جزئي، فالشر الكلي لا حُسن معه، وهو العدم، لأن الوجود من حولنا يفيض بالحسن..

إن مفهوم (الجزئية) قد سبق أن رأيناه متداولا في خطاب النورسي حين حديثه عن مسألة الإرادة الإنسانية حيث قرر أن (إرادة الإنسان جزئية، جعلها الله شرطا لإرادته عز وجل الكلية).

وهنا أيضا نجد مفهوم الجزئية يتناظر مع مفهوم الكلية في ضبط مبدئية القانون (قانون الخير والشر). فرؤية النورسي هنا كذلك تفكك الإشكالية الفكرية(القضية)، وتنفُذ إلى فهمها وتَصَوُّرِها من خلال إجرائية ربط الأواصر ولَحْم الصلات بين البنية وعناصرها، الفرع وأصله، الورقة وشجرتها، قطرة الماء والنهر الذي انفلتت منه.

بل إن النورسي وفي ضوء هذا التفكيك التصوري قد فهم قضايا أخرى فلسفية ووجودية من مثل حقيقة (الإرادة).

لقد استوعب النورسي مسألة الإرادة (الحرية) وأثبت أن للإنسان هامشا منها، دون أن يُقِرَّ لذلك الهامش بالاستقلالية-كما فعل المعتزلة- لأن النورسي لم يفصل بين إرادة الإنسان وبين ترسُّخ الإرادة الإلهية الضابطة لكل شيء. لقد أرسى النورسي الوشائج بين إرادة العبد وإرادة الرب على قاعدة الاكتناف والتوجيه، فكأن الخالق يسأل عبده حين يهم بفعل ما : يا عبدي أي

(١) انظر الشعاعات- الشعاع الثاني ٣٧.

طريق تختاره للسلوك فأنا أسوقك إليه"[1].

-هناك عُلُوٌّ قانونيٌّ أو خلاصةُ الخلاصات تفضي إليها مطارحاته، إذا لا تكاد تتوقف رؤيته التمحيصية عند حد استخلاص القانون الخاص بالأعراض والجزئيات، لكنها تتعدى إلى سن قانون المبدإ (المبدئية) كما هو الحال هنا، عندما أردف نص القانون النِّسْبي " إن قبحا يكون سببا لإنتاج أنواع من الجمال أو سببا لإظهارها يعد كذلك جمالا.."[2]، بنص القانون الشمولي "بوجود الشر الجزئي تظهر الخيرات الكلية"، إذ جاء بمثابة تحصيل المحصلة وتوثيق القاعدة.

بل إنه لا يكتفي بالتنصيص على القانون فحسب، وإنما يستطرد إلى التدليل على صدقيته واطراديته، وهذا بإيراد الموضِّحة التي ترسخه ".. تبلل المرء المتكاسل بالمطر لا يقدح في النتائج الخيرية للمطر[3]..

وحين يتيقن النورسي من أن القارئ قد استوعب فكرته ووعى نظرته، ووثق من وجاهتها العقلية، من خلال ما استعرض له النورسي من سياقات حسية مُوَضِّحة، لا يتردد في تصعيد إثباتاته والذهاب بها مذهبا تعميميا، بل إن النظرية لتلح عليه في أن يتناهى في تعميمها حتى على نطاق دائرة الغيب واللامشهود، من ذلك ما فعله بقانون الشر والخير، إذ استنتج منه منطق خيرية وجود نوع الشيطان..إذ وجود الشياطين أمر خيري لأن الشيطان علة لتحريك عوامل الرقي والازدهار في البشر! كيف؟ بشحذ وازع المنافسه والتنازع بين الناس!

بهذا الاستدلال لا يسع القارئ -بطبيعة الحال- إلا أن يهز رأسه ويؤمِّن، لأنه يرى في النظرية منطقا لا تكذبه وقائع الحياة.. بل إن قانون المدافعة كما سنه القرآن يؤكد هذه الحقيقة ويرسخها .

بل لا غرابة -وضمن هذا التمثُّل المنطقي- أن يغدو حتى أمر جزائي كـ(تعذيب الكافر) شيئا جميلا! لم؟ لأن الكافر تعدَّى على حقوق الكائنات قاطبة، واستهان بمنزلتها الرفيعة، إذ أناط كمالها وعلو سلطانها بعلل وأسباب غير جوهرية، من قبيل القول بأن الوجود هو نتيجة فعل الصدفة أو أن المصير الإنساني تحدده الصراعات الطبقية أو تحكمه الصيرورة العضوية

---

(١) الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٥٤٨

(٢) الشعاعات- الشعاع الثاني ٣٧

(٣) انظر الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٥٤٢.

الارتقائية.. (لننظر كيف أن وعي النورسي بعوامل الإلحاد التي سادت عصره كان حادا، فقد سجل على الشيوعيين إقرارهم للتاريخ بالعلة الأولى في تحريك المجتمعات والحضارات، ولاحظ على البدائيين تأليههم آلهة زائفة، وسجل على آخرين القول بأن الصدفة والدهر هما علة الوجود وعلة الفناء)..

ولأن النورسي يدرك أن نزعة اعتراض الخصوم لا تهدأ، وأن سجالهم لا يقف عند حد، لاسيما في موضوع إيماني كهذا، نراه يستطرد في مَدِّ مساحة الإثبات إلى حدود أبعد حتى يحسم ما قد يكون باقيا في نفس المتلقي من أسباب التشكك.. فلذا نراه يجدد استعراض ذات الإشكال من مستوى جدالي آخر، فيطرح السؤال التالي :

لِمَ يبتلِي الخالقُ الرحيم أفرادا ضعفاء؟

ويأتي رد النورسي متساوقا مع النظرية الأم (كلية الخير وجزئية الشر)، مستلهما (مبدأ الجزئية) الذي رأيناه قد استنبطه في مسألة الحسن والقبح والشر والخير، فيبين أن إرادته -عز وجل- اقتضت نتائج جزئية أليمة ناشئة عن إرادة الحفاظ على تلك الكليات والقوانين التي تدير عليها دواليب صناعة الحسن والجمال، فكتب على من شاء من مخلوقاته البلاء، وذلك ليجلي للناس نعمة العافية التي يسهون عنها، إذ بأضدادها تتمايز الأشياء.. لكن الله لا يغفل عن المبتلين من عباده، فإن خزائن إمداداته تمدهم على قدر حِدَّة الألم والاستغاثة والاستنجاد، فتقع لهم الاستعاضة ويتبدل الضر شفاء والأذى مكسبا والقبح حسنا..

ثم إن في مبدإ قدَرية البلاء توجد مسطرة من عدالة الله لا تخفى، إذ ليس هناك من لا تجري عليه مقادير الله حتى وإن تفاوتت الحظوظ العارضة والضربات الواقعة.. ومن ضحك صبحا لا يسلم أن يبكي مساء.. هكذا الأيام دول، إلا أن القوانين الكبرى واحدة، الميلاد والموت من مقتضيات الحياة، وحوادث السعادة والألم هي في حراك دائم بين الكائنات، والضغوط والإنفراجات على نِسَبٍ.

-لابد أن يرقى القارئ إلى منزلة نورية تجعله يتوطن على رؤية دلائل الإيمان ومعالم التوحيد في كل ما يحيط به من عناصر الكون، ليتسنى له أن يربط بسهولة بين اللوازم والملزومات، بين الظواهر والمُقَوِّم الربوبي الذي يحكمها ويحكم عللها العيانية.

ولأن النورسي -الذي انتهى بجهاده إلى بلوغ هذه الدرجة من اليقينية- كان يعي هذه الحقيقة وهو أن الإيمان يسهل على الفرد مهمة الوعي بقوانين الكون وصلتها بالخالق، لذا

ظل يحرص على أن يجعل نصوصه تنحو إلى المفاعلة المتواصلة من خلال توطيد منهج الاستقراء والمساجلة الترشيدية.

لم يكن يكتب محاضر تعرض الحال النفسية والاجتماعية التي هو فيها بقدر ما كان يعقد جلسات عمل روحي، تتخللها استراحات يقابل فيها مراجعيه وقراءه فلا تتملكه نشوة الإعجاب مما يرى في عيونهم من إكبار لشخصه، وإنما كان يثابر على التوسع في الطرح، وعرض الأمثلة القريبة، وتبسيط المعاني البعيدة، والتدرج في التفهيم.. وعلى قدر تقدمه في التوضيح والكشف كان يستمر في اختراق مناطق وأحوال أكثر دقة وتجريدا، فلا ينتهي منها إلا وقد بلغ قصي الآفاق ومنتهى الأدوار المعنوية والروحية، كل ذلك وهو هو، ثابت، يستميت في تشخيص أفكاره وعرضها بما يقَرِّبها من ذهن المتلقي بروحية وقوة، فلا يزال متمسكا بأناته القولية، وسكينته القلبية، مالكا لصفاء خطابه ونصاعة لفظه.

فديدنه في الرسائل هو التناهي في بلورة المعاني، ورصف الخواطر، والتغلغل بعيدا في عالم الأفكار، والذهاب إلى أقصى حدودها التجريدية، والتعبير عنها بالبساطة اللازمة، وإظهارها للقارئ، وإغناء المعرفة الإنسانية بها..

إن اختياره القضايا الجوهرية الميتافيزيقية مادة للتأمل والبسط جعله يختار الفضاءات (الفيزيقية) المفتوحة صعيدا لخطابه، فالطبيعة والأرض والنباتات والجبال والأنهار والحشرات والكواكب والذرات.. كلها وسائل تأمل ومدارسة روحية واستنطاق اعتباري.. فالعين تطوي المسافات المترامية حيث الشواهد أكثر إعرابا عن مسائل الوجود الإنساني وعن آماد رحلته البعدية، ولا نهايات عوالم هذا الكون الذي يحيرنا بانغلاقه البليغ وببلاغته الصماء.

وهو في أحايين أخرى يدقق مساحة الشواهد بحيث تغدو مادة التنقيب والرصد عبارة عن عيِّنة من الصغر والتناهي والمحدودية، فهي تارة النملة، وأخرى البذرة، وهي ثالثة حُبيْبة ثمرة.. وهي في كل الأحوال المادة المرصودة والمنتصبة شاهدا للشرح والتجلية، ومن خلالها يعاين الراصد القضايا الكبرى والأفكار العظمى.. إذ لا ينقب النورسي إلا في الكليات، لأن ذهنه يشتغل بصورة ثابتة على إشكالية الوجود وصلة هذا الوجود بموجده، فلذا تراه لا يفتأ يطوي الحجب ببصيرته، ليستكشف بعد كل نوبة إبحار يقوم بها، فائق هذه الإنجازات الربانية المشهودة، الموعزة بفصيح اللسان على عظمة الباري.

بل إننا نجده يستقرئ معاني اسم الجلالة في الظواهر الحسية المجسدة في الطبيعة، من

ذلك مثلا قراءته عناصر التوحيد التي تختزلها صيغة (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)، إذ طابق بين معاني هذه الأسماء الحسنى وبين الشجرة، أو بالأحرى استجلى وقائع هذه الأسماء الإلهية في هيئة الشجرة، بحيث وجد أن مقومات الشجرة تلخص معاني القول التوحيدي الشمولي وتقوم شاهدا يجلي تلك المعاني.

ذلك لأن النورسي وهو يدلِّل على هذا التشاكل، راح يقابل بين اسم الجلالة (الأول) وبين اسمه المستتر (العلي) الذي يجسده الكيان المكتمل للشجرة، ويقابل بين اسم الجلالة (الآخر) وبين اسمه (المستوفي) الذي ينعكس في هيئة الشجرة واستوائها.. ويقابل بين اسم الجلالة (الظاهر) وبين اسمه (الجلي) الذي يتجسد في سَمْتها وفروعها وكثافة ملبسها، ويقابل بين اسمه تعالى (الباطن) وبين اسمه (الخفي) الذي يستبطن الشجرة في صورة عضويات كامنة في كيانها هي بمثابة الأجهزة الحيوية في كيان الإنسان (شرايين، قلب، كبد، جملة عصبية).

" إن أول كل شجرة عُليبة صغيرة وبرنامج، وآخرها نموذج ولائحة تعريف، وظاهرها حلة مزركشة ولباس مزين، وباطنها مصنع ومعمل، فهذه الجهات الأربع تلاحظ إحداها الأخرى، فتنشأ من هذه الأربعة علامة عظيمة جدا، بل اسم أعظم، بحيث لا يمكن قطعا أن يقوم بتلك الأعمال غير الواحد الذي بيده زمام الكون كله"[1].

إن السداد هنا يكمن في الاستهداء إلى قالب تشخيصي وإلى (مُوَضِّحة) مستمَدَّة من الطبيعة ومن محيط الإنسان، وإبراز مبدإ الوحدانية كما تجسد فيها، فالقول التوحيدي هو هنا نص معنوي تمفصلت قيمُهُ في نص آخر مادي، حسي، على نحو طباقي، وهو ما هيأ للقارئ أن يستبين كيفية استقرائية يستدلُّ منها على حقيقة الربوبية من خلال استجلاء معاني الأسماء الحسنى في الظواهر الكونية من حوله.

وهو ما فعله النورسي إذ تحول بمنطق المطابقة (تماهي الأسماء الحسنى في الشجرة) إلى منهج لاستحضار كلية أشمل لقانون تماثلي أعم، تتلابس فيه المعاني الإلهية مع الظواهر المادية، فالربيع يغدو شجرة تتجلى في خمائلها ومجالي خضرتها بعض أركان القول التوحيدي، وكذلك الخريف..

بل إن الإنسان نفسه لينطبق عليه هذا الاعتبار، لأنه يشخص أسماء التوحيد، إذ يُعَدُّ " هو

(١) الشعاعات- الشعاع الثاني ٤١

شجرة أيضا، بذرتُه وجذورُه في أعماق الماضي، وثمراته ونتائجه في المستقبل، فكما أن وجود القوانين المنتظمة الجارية ضمن حياة جنسه وبقاء نوعه يحمل علامة توحيد واضحة، كذلك الدساتير المنتظمة لحياته الشخصية والاجتماعية في وضعه الحالي تحمل ختم وحدانية مستترة تحت الاضطرابات الظاهرية، مثلما تحمل دساتير القضاء والقدر لحياته وهي مقدراته الحياتية المتسترة تحت الأحوال البشرية الظاهرية ختما مخفيا منتظما للتوحيد"[1]

هناك -إذن- امتداد استقرائي تنهض به البصيرة انطلاقا من المُحَسَّاتِ البصرية والموجودات الماثلة للعيان، يُقِلُّ الروح إلى عالم الماوراء، حيث تشارف انفساحات برزخية تكمّل بعوالمها معاني الوجود المشهود ودلالاته الجلية.

يذكر مبدأ لقضية كبرى، وينتهي في رصدها إلى الغاية بصورة كشفية لطيفة تجعل المتلقي يقف عند السلسلة الكاملة من أفراد المعاني الجزئية المكونة للمعنى العام أو للفرضية.. وما أكثر ما يتبع النورسي نهج التبريج، أي الإحاطة بالقضية من خلال المسح القطاعي، أي بتتابع عملية البدء والعود على البدء في الرصد، كمن يمسح سطح كوكب.. ينطلق بالمسح من رأس القطب إلى غاية القطب المقابل، ثم يعيد الكرة مع مساحة أخرى من الكوكب إلى أن يأتي عليه في كليته..

والحقيقة إنه نوع من تجدد الانبثاق أو من التَّنَجُّم الذي رأينا النورسي ينهجه في كتاباته من خلال تفريع القضايا والمسائل في عملية البسط، ومن خلال الاسترسال في التعقيبات التي يُتَوَّجُ بها أحيانا كثيرة رسائله..

فلكأن الرسالة على ذلك النحو الاستيفائي عينٌ نجلاء تحفها رموش، أو شجرة باسقة ترخي ذيولها في دلال..

إنه يفعل ذلك لأن الهدف هو إجلاء ما تحتويه القضية الفكرية من أبعاد دالة على عمق حقيقة هذا الوجود، وعلى ما للنورسي من رغبة وشوق إلى معرفة خفاياه وخلفياته الغيبية..

إن مسألة الإيمان بالنسبة للنورسي مسألة حاسمة لأنها تتعلق بحق الخالق على عباده من جهة، وتتعلق من جهة ثانية بحقوق الكائنات والموجودات إزاء بعضها بعضا، لأن الإخلال بمبدإ الإيمان التوحيدي هو تعد على الكائنات، وتشويش سخيف على الفطرة في الأشياء (..)

---

(١) الشعاعات- الشعاع الثاني ٤١.

والمؤكد أن هناك تساندا كبيرا بين حِزَم التفريعات والتكميلات التي يتخرج فيها موضوع الرسالة، فكما أن التفريع الواحد منها يكفي لتجلية الحقيقة وإرضاء قناعة المتلقي، فكذلك تغدو الحزمة المتظاهرة وسيلة حاسمة في ترسيخ الإقناع.

فالنورسي يشاء للرسالة النورية أن توطد موضوعها على نحو متمهل (أجل، إنه يختزل أفكاره أحيانا، ولكنه غالبا ما يفعل ذلك في سياق تذكيري، أو تمهيدي)، فمن سمة الرسائل إنها تمعن في الإحاطة، تفعل ذلك بكامل الدأب والأناة.

هناك دورة استعراض تحليلي تُكْتَمَل ثم تعقبها دورة أخرى، وهكذا دواليك.. الاستئنافية مظهر عقلي، تبحُّري، من ديدن المتدبرين.

بل هناك جو من الذكر يستغرق متن الرسالة، أشبه بحال من يدير سبحة في يده، يمسح حباتها، وحين ينتهي إلى شاهدها ينطلق في دورة تسبيح أخرى، إلى أن يستوفي الورد.

-كثيرة هي الخصائص التي تَرَسَّمها النورسي في الخطاب القرآني، ثم تحولت عنده بالتمرس والتنفيذ إلى ناجز رؤيوي تحلى به النورسي، من ذلك مثلا خاصية خرق المألوف وتمزيق الألفة..

فخطاب النورسي يعتمد دائما استراتيجية التسديد نحو المدرك الخفي، فهو خطاب تنبيهي بامتياز، فلذا أضحى طرحه تنبيهيا على الدوام.. يشرع معك في مناقشة قضية ما تلابس وعيك.. من قبيل الإيمان والوجود والحياة والموت والقدر والمكتوب والحظوظ والرضى والألم والإنسان والكائنات الأخرى.. ثم يتدرج بك من البديهيات المعلومة والمشهودة ليرقى بك رويدا رويدا في مدارج التنبيه الحي والتحسيس الحميم.. إلى أن يضع أمامك شبكة من الحقائق ويوزع لك الحجة في بساط أحمدي من التفاصيل المحيل بعضها إلى بعض، بحيث تجد نفسك أمام مشهد معرفي لا قبل لك به رغم أنه من لوازم حياتك في كل حين..

انظر كيف يسوق لك الشمس شاهدا على حضور الله ووحدانيته، وكيف أنه لا يقنع بالقول إن وحدانيتها تدل على خالقها الواحد، ولا إن رتابتها تدل على وطيد نظام موجدها، كلا، ولا هو يكتفي بأن يلفتك إلى مثل هذه الدلائل المعادة في أدبيات الترشيد الاستهلاكي.

إنما يباشر ذهنك بأن يضعك أمام صفحة هندسية تستوعب الفضاء بكامله، وتخترق التفاصيل المكانية الزمانية بسهولة مذهلة، وهنا مكمن براعة النورسي واقتداره الاحتجاجي في مجال الروحيات.. فالشمس تتحول فجأة في مصورته إلى آلاف بل الملايير من الشموس،

ويغدو صعيد تجلياتها مرآة هي كل هذه المساحات الشاسعة من الكواكب والأقمار ومن البحار والسيول السائحة على الأرض، ومن القطرات المنتظمة في معاقد الندى على ألسنة النباتات، وفي مجالى الاغوار والجبال والسهول، وفي تموجات الظلمة وعبر تأجج أنوار السراب..

هكذا يفتت لك النورسي الوحدة، ويكثر لك العنصر الطبيعي الوطيد في فرادته، ويحاصرك بتعدديته اللامتناهية، فتجد نفسك قد خرجت من الألفة إلى الغرابة، ومن الاستنامة إلى التأهب، ومن الطمأنينة إلى القلق، ومن الشعور بالكفاية إلى الشعور بالحاجة..

إنه ببساطة يضعك أمام مشهد إدراكي صادم، لكن روحك لا تلبث أن تعلن تصديقها وتأمينها عليه..

فأنت قبل أن يفرد لك هذا المشهد الكوني الحافل بملايير الشموس كنت تعتدُّ بمعرفة يقينية تربطك بهذا العنصر الكوكبي الأم (الشمس) لدرجة أنه أضحى من مكونات البداهة الوجودية في خَلَدك، فبات مألوفا لديك، لا يخالجك قط أي شعور لأن تبحث في ماهية هذا العنصر الكوني أو أن تجدد من معرفتك به.. ألم نسمعهم يشبِّهون جاحد الشيء بمن ينكر وجود الشمس في رابعة النهار، ومعنى ذلك أن الشمس باتت في الوعي الإنساني، بل وفي شعور كل كائن ذي روح، موضوع إدراك غريزي بسبب الملابسة المستديمة التي تصبغ صلة الكائنات بها، بحيث فقَدَ هذا العنصر الوجودي الحيوي إمكانية أي إيعاز مستجد أو أنه-على الأصح- بات معلما طبيعيا خابيا في ضمائرنا، لا يخامرنا أدنى نزوع أن نطلب من صدده أي مدد عقلي أو معرفي رغم الحيوية الحاسمة التي يضطلع بها في حياتنا، والتي تعكسها- بالأقل- النشرة اليومية التي تطلعنا على أجندة الشمس وبرنامجها اليومي في ما يعرف بالأحوال الجوية..

إذ كثيرة هي تفاصيل الحياة التي تتوقف على مزاج الشمس.. بل إن التوقيت المدني والشرعي لَيستمد جدولته من حركتها اليومية والموسمية الظاهرة لنا، فالشمس هي الناظم الأساسي لإيقاع حياتنا كأفراد ومجتمعات، بل وكحضارة..(أزمة الاحتباس الحراري الراهنة).. فعلى الرغم من كل هذه الاقتضاءات اللامحدودة لوظيفة الشمس إلا أن الإنسان لا يخطر على باله أنه سيحصُل له من قِبَلِها شيءٌ يجدد روحه (والامر يطَّرِد، بالقياس إلى حضور الماهيات الكلية.. أليس حضور الله في كل مظاهر الكون-كما يستشعره الأصفياء- يغيب عن حس الناس

العاديين تماما كما تغيب عنهم مثلا حضور الشمس وهيمنتها وجذرية وظيفتها في الحياة عامة).. ضمن هذه الرتابة في المنحى الاعتباري يباشر النورسي عملية تنقيب ورسكلة، ويجدد إمكانية ربط الجسور بين الإنسان المعاصر وبين كتاب الكون، بين العين وبين صفحة الغلاف التي من طول ما توطن النظر عليها لم تعد جاذبة للحس، ولا جالبة لشيء روحي طريف..

وهكذا يتمكن النورسي من بناء قبة من مرايا حسية للشمس، كل شيء في فضائها يتلألأ بعلامة وينقدح بدلالة.. حضورها يتراءى في طيّات التراب وأعالي البحار ومن قصي الكواكب، من عشب الأرض وندى الزهر وترقرق الأودية والتماع ذريرات الرمل والمعادن والأحجار.. كل شيء يتحول في عين النورسي إلى شاشة عاكسة لوجه الشمس، بحيث تنتصب بنورانيتها في كل سطح وكل مَجْلى.. كل مكونات الوجود الحسي مرآة، وكل بقعة مثابة استقبال، والشمس طلعة بهية من نور، في كل حيز تلوح بهجتها.. هكذا يتعدد الواحد ويَشيع حضورُه فلا يخلو منه موقع ولا تفتقده مساحة.. وهكذا يتجلى الواحد الفردُ عددا لا نهاية له ولا حد..

وهكذا تقرأ الروح في هذا المشهد الشاخص الذي خطته فرشاة النورسي للشمس، مثالا ناطقا بحضورية الإله الأوحد، خالق الشمس ومديرها، ومسخرها بما أنفذ فيها من جامعية أسمائه الحسنى.

أركان العملية الأدبية التواصلية أربعة

حدد النورسي أسس الفعل الأدبي ومقومات العملية الإبداعية حين تحدث عن امتياز الخطاب القرآني وعلوه عما سواه من فنون الخطب كالآتي:

> أن القرآن الكريم لا يمكن أن يقاس بأي كلام آخر، إذ أن منابع علو طبقة الكلام وقوته وحسنه وجماله أربعة: الأول المتكلم، الثاني المخاطب، الثالث المقصد، الرابع المقام، وليس المقام وحده كما ضل فيه الأدباء، فلابد من أن تنظر في الكلام إلى من قال، ولمن قال، ولم قال، وفيم قال، فلا تقف عند الكلام وحده وتنظر إليه "[1].

بل إن النورسي ليضع لنا هنا أساسا مهما من أسس النظرية التداولية التي ترى أن نفاذ القول، وتأكد فعاليته إنما يتحقق بدرجة تتناسب مع قوة وتصميمية المتكلم، فالمتلقي يتلقى

(١) الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٥٠٠

رجاحة الخطاب بكيفية تعكس ما للمتكلم من طاقة تأثير " إن الكلام يستمد القوة من المتكلم، فإذا كان الكلام أمرا ونهيا يتضمن إرادة المتكلم وقدرته حسب درجته، وعند ذاك يكون الكلام مؤثرا نافذا يسري سريان الكهرباء من دون إعاقة أو مقاومة، وتتضاعف قوة الكلام وعلوه حسب تلك النسبة[1]".

أعطى النورسي لكل مقامات العملية التواصلية ما تستحق من الاعتبار والخدمة، لقد كان يحرص على تأصيل خطابه بحيث تنعكس هويته الشخصية فيه، فتحقق له ما أراد، بل لقد أضحت الرسائل هوية أخرى تفوقت على هوية المبدع ذاته، بحيث بات ينكر نسبها إليه حين يطالعها، وما ذلك إلا لأن القريحة كانت تعيش حالة من الاستيجاش الحقيقي كلما همت بالإفراغ والإعراب. وفي غضون ذلك المخاض كان الوعي الباطن يستكمل مزايا التخصيب والاستقطاب التي يتطلبها الفعل التواصلي ويقتضيها مطمح شد المتلقي، إذ لا أمل لعملية خطابية لا تضمن لمستقبلها شروط اللياقة والاستدناء وتهيئه لحسن الاستماع..

أما الفحوى فإن الرسائل صوبت نحو لب إشكالات الوجود الإنساني، الإيمان.. إذ بالإيمان يتحدد الانتماء ليس الجنسي والسلالي، وإنما الانتماء الوجودي، فالمؤمن ينتسب لفصيل الأتقياء المعمرين للأرض، المتصالحين مع الحياة، المتواثقين مع الأجيال بما ينجزونه لهم من جلائل ومآثر.. الأتقياء المتواطئين على مسالمة كافة الكائنات وموادعتها، واعتبار الكون وخيراته سماطا حافلا بسطه الله للعباد، إنعاما وابتلاء لهم كي يعلم الصالحين من غيرهم.

وأما القصد من الرسائل فإن النورسي (البلبل الروحي) قد اختار أن يُسمع للإنسان ألحانه الشدية، فانبرى بمعازفه القرآنية يسجع ويهزج، فكان أحد أمهر العازفين، وإن الرسائل لهي بحق أروع سنفونية معاصرة في حقل الإيمانيات.

امتياز السلف الأول بالتفوق الذوقي والاجتهادي

يعترف النورسي-وقد تاقت روحه هو أيضا إلى أن يبلغ مرتبة الصحابة[2]- أن الأجيال بمرور الزمن فقدت قدرة تذوق أسرار العقيدة.. فالزمن جعل اللطائف تغط في نوم عميق،

(١) الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون ٥٠٠

(٢) لقد اهتدى النورسي إلى حقيقة استحالة أن يدرك أحد من الناس درجة الصحابة الكرام في العبادة . انظر الكلمات ص٥٧٦

والمشاعر والأحاسيس تنصرف عن الحقائق لا تكاد تستخلص شيئا من مكنوزية تلك الأسرار واللطائف إلا بإجهاد الذهن وإعمال التفكر: ما للصحابة بفضل الملابسة الحية لنهج الرسول ﷺ يعجز عن تحصيله أهل أزمنتنا التي..(لوثتها الأفكار الفلسفية المادية والبلادة المدنية الناتجة عن الإسراف في الاستهلاك).

ضمن هذه الرؤية الهرمية يرتب النورسي المقامات والاستحقاقات والحظوظ، بحيث تظل النبوة تمثل رأس الهرم، قياسا إلى الولاية.

إن نسبة النبوة إلى الولاية كنسبة الشمس المشهودة بذاتها إلى صورتها المثالية في المرآة..[1]

ونراه يضع مخططا لمراتب السلف من الصحابة مع الخلف من الأولياء :

- ---➲ شمس الرسول
- ----➲ كواكب الصحابة
- ----➲ نحــن

مرتبة الولاية الكبرى لا تسامي مرتبة الصفوة المتقدمين في الصف الأول، ذلك لأن العصور المتأخرة فقدت أهم عوامل الشحن الروحي الأصيل نتيجة ارتحال الرسول ﷺ وتغير البيئة الثقافية بتغير الأجيال وتحول الأفكار والقيم عن أصليتها..

فالبيئة المدينية (يثرب) كانت بفضل ثقافة التنزيل الحي والمفاعلة العضوية للمبادي النبوية الشريفة، تُنمِّي لدى الصحابة ملكة الاستنباط والاجتهاد..عكس الأوضاع المعاصرة حيث الثقافة الدنيوية طمَّتْ وتقهقرت بمساحة التعاملات الشرعية إلى حدود متراجعة خطيرة.

إن الصحابة نالوا كثيرا من أنواع العبادة بأجهزة النفس العديدة، وإن الأولياء بعد فناء النفس تتيسر عبادتهم وتخف..وإن عمل الصحابة لا يرقى إليه عمل الأولياء، لأن الأول تأصيلي، بكر، والثاني تبعي، احتذائي، ولا شك أن الخاصية في الجذر تغدو صورة عظيمة في الفرع [2].

وواضح أن هذه الرؤية المبجلة للصحابة والمنوهة بزمن التأسيس المحمدي الأول، إنما

---

(١) الكلمات – الكلمة السابعة والعشرون ٥٧٦

(٢) انظرالكلمات – الكلمة السابعة والعشرون ٥٧٩

تخفي وراءها موقفا استراتيجيا كان النورسي قد شرع في التزامه بكامل البسالة رغم أنه كان يعرف أنه يعدم أدنى الأسباب المشجعة على الانخراط في تحقيق ما أراد.

لقد كان يعي دقة ما كان يحيط به من ظروف معادية للهوية والشريعة، وعلى الرغم من ذلك فقد تصدى للعمل على مدافعة الأسباب المناهضة للوضع الشرعي، وذلك من خلال تصميمه على إرساء الأسس لميلاد بيئة قرآنية تتراجع فيها علاقة الغلبة المادية ورجاحة الثقافة اللادينية.

العزلة تتحول من نقمة إلى نعمة

كان على النورسي أن لا يستنيم للعزلة المضروبة عليه، وأن يبحث عن سبل تجاوزها واستثمارها من أجل أهدافه، فلذلك أصر على التحدي وعلى الانطلاق من حيث ينبغي أن ينطلق..

احتجازٌ مطبق، وتقييدٌ كابس، ووحشةٌ يعز معها الأمل حتى في البقاء، بلْهَ الثورة وأحداث الانقلاب الجذري..

ومع ذلك تصدى للعزلة فصيرها صعيدا حافلا بالمواعيد والأجِنْدات..

العزلة التي حسب الخصوم أنها الموت البطيء الذي يقضي على الخطر في المهد، تحولت بذاتها إلى معمل يدور بلا انقطاع، يخرج في كل لحظة آلاف السيوف البتارة والتجهيزات الحربية التي تتسلح بها الفيالق..

ما عتَّم النورسي أن استبان في العزلة أنعما هيأها الله له من حيث لا يحتسب، لقد أدرك أن الوحدة ستكون هي العامل الحاسم لديه لتحقيق التحولات الكبرى، وأن الانقطاع سيمكنه من أن يهندس بكل أناة وعزم مخطط الكيان الإسلامي الصافي الذي تطلعت نفسه لأن تراه ماثلا في بيئته الصغرى التركية وبيئته الكبرى الأمة الإسلامية.

يمكن القول هنا إن النورسي قد دشن في أولى الرسائل التي خطها من محبسه مشروعا انبعاثيا كانت كل الدلائل تؤكد لا معقوليته، لقد حملت تلك الرسالة موجزا مقتضبا عن خطة العمل وتصاميم البنيان ومد الأرضية.. ثم لبثت الرسائل تتلاحق، واتسعت الخريطة، وتهيأت ورشة صغيرة، ثم أخرى، ثم طائفة من الورشات، ثم انتشرت الفرق تقيم الكيان الروحي لبيئة النقاء القدسي..

وإذن فإن المعتزل كان هو المحط الحميم الذي عرف على يد النورسي ميلاد النموذج المجسم للموقع المدني المستقبلي..

النورسي جعل من عالمه النفسي والروحي كومبيوتر تصميم، ومنصة تنفيذ، أنجز فيها رؤية انبعاثية تستعيد بها الأمة ماضيها وتعاود سيرها المثمر أمام العالمين. افترض النورسي للبيئة القرآنية في ذهنه مثالا ناهضا لبث يؤثثه بالمقوم الشرعي والمكون المدني.

لقد استغرق التفكيرُ في مصير الأمة حياته، ووجد في الوحدة عاملا مساعدا يتهيأ فيه نفسيا وروحيا ليكون بحق أحد أبرز مهندسي الانبعاثة الإسلامية المعاصرة، فباشر جهدا ارتقائيا، وكانت نتائج ذلك الجهد الشمولي تنعكس على الجانب العقلي والفكري والاجتهادي، وهو ما جعل الرؤية تغدو سديدة وخالصة ومستبصرة.

لقد أقر النورسي بما كان للعزلة من فضل عليه في تلك المرحلة العاصفة بالترديات السياسية والروحية والفكرية، إذ قلصت من عناء الهموم الحياتية عليه، وجنبته الوقوع في التلويثات الثقافية والفكرية الوضعانية، بل لقد شحذت فيه همة البحث وممارسة الاجتهاد الخلاق، لأنها صانت قواه العقلية والوجدانية والفكرية من أن تتشتت وأن تستفرغها تشعبات الحياة ومطالبها التي لا تُحَدُّ " لأن الأنظار في الوقت الحاضر متوجهة إلى نيل حياة دنيوية رغيدة دون سعادة الآخرة الأبدية وحياة النعيم المقيم فيها، فالأنظار مصروفة عنها. فهموم العيش التي تتضاعف بعدم التوكل على الله تُلقي ثقلها على روح الإنسان وتجعلها في اضطراب وقلق، والفلسفة المادية والطبيعية تكل العقل وتعمي البصيرة، فترى المحيط الاجتماعي الحاضر مثلما لا يمد ذهن ذلك الشخص (الذكي) ولا يؤازر استعداده الفطري نحو الاجتهاد فضلا عن أنه يشتته ويرهقه أكثر"[1].

من هنا ينبغي على المستنيرين من أبناء الأمة أن يسعوا إلى الاستفادة من التجربة النورية وحسن استغلالها للظروف.. بل على الاستراتيجيين وفي كل قطاع أن يتوخوا العمل الصامت، أن ينشدوا السرية، أن يسلكوا طريق الخلوة التي طالما سلكها الأخيار-ومنهم النورسي- وأنجزوا خوارقهم فيها.

(١) الكلمات - الكلمة السابعة والعشرون ٥٧٧

منهج السير نحو بلوغ الغايات

كان الرهان الذي واجهه النورسي يتركز حول الكيفية التي يفاعل بها الأوضاع المضادة.

هناك واقع جديد متفسخ يتهدد الهوية بكل ضراوة، ويعمل على اجتثاثها من أصولها لأجل إلحاقها بالغرب، تشبها ونحلة. وكان على النورسي أن يبحث عن الاستراتيجية التي تفيده في تفادي الغرق.. وهكذا عمل على أن يواجه زمنا بزمن معاكس له، وأن يستميت في بعث قيم الماضي المجيد ليئد بها تفسخات الحاضر التعيس. في هذا الإطار كان عليه أن يسلك لتحقيق الغاية مسلكين، إما أن يقتنع بأن المعركة خاسرة سلفا لانعدام الإمكانات والنصير، وأن عليه من ثمة- أن يرتد إلى عالمه الباطني فيتبتل ويتنسك ويعيش الانغلاق الروحي والفكري كما ظل كثير من السالكين يفعلون على مدى القرون، وإما أن ينتفض بما ملك من قوة شخصية ومن إيمان عتيد، ويسير على درب المقاومة والدعوة إلى الجهاد، مستمدا النصرة من الله وممن يوفقهم القدر لأن يكونوا طلائع الكتائب.

لقد رأيناه يحدثنا عن هذا المنعطف المزدوج الذي يواجهه الثائر حين يهم بالانتفاضة، فهو إما أن يجعلها غضبةً للنفس، فينسلخ عن واقعه ويلجأ بمواجده إلى عالم الأمس، فيكون حضوره في هذه الحياة كالعدم، إذ يغلق كل منفذ بينه وبين الأحداث، ويقطع كل صلة له بالحياة إلا صلته بربه، فالورشة تصير معتكفا والجهد تَعَبُّداً، والجبهة هي جبهة النفس الأمارة ولا شيء خارجها.

وإما أن يرتمي بكل كيانه الروحي والحسي في قلب اللهب، ويتصدى لمنازلة المفسدين، حاديا الناس إلى الانخراط معه في المعمعان، غير عابئ بما يلحقه من طعنات وتضحيات.. يقول النورسي:

لأجل إدراك الأمس من هذا اليوم هناك طريقان: الأول الانسلاخ عن وقائع الزمن الحاضر والعروج إلى ما فوق الزمان واستحضار قيم الأمس وأحلامه وإحلالها في أحلام اليوم وقيمه.. أما الثاني فهو قطع مسافة سنة كاملة لملاقاة الأمس من جديد، ومع ذلك لا يمكن أن تمسك به لأنه يدعك ويمضي[1].

طريقان كلاهما لا يساعد على تحقيق النجاعة الكاملة في المسعى، فإما أن تكون غريبا

(١) انظر الكلمات - الكلمة السابعة والعشرون ٥٧٨

في المجتمع لأنك تفاعله من خارج أسوار العصر، وإما أن تلهث في أكثر من وجهة لتشد بطرفي الثوب معا: الماضي والحاضر، لأجل إيجاد الموطئ القارّ المساعد على العمل، وهو ما لا يتيسر، لأن قاطرة الحاضر تجري على غير سكة الماضي.

ترى ما السبيل الذي سلكه النورسي؟ هل ارتد إلى الماضي وانسلخ عن الحاضر وعاش يتأسّى بتقليب قيم هذا الماضي في نفسه ويضمها بين دفتي روحه، أم تراه عاش يتواثب (ويتثاءب) على الجسر، يتأرجح في ارتداداته بين إحداثيتين، ينجذب إلى منطقة الوهج، لكنه يعجز عن أن يقبض عليها، فعجلة الزمن تكر، وهي لا تكف عن جرفه وفصله عن مناط أحلامه بلا هوادة.

لابد أن نؤكد أن النورسي قد سلك السبيلين معا وبنسبةٍ محسوبة، وزاد عليهما ثالثا، حين وسع من اجتهاده وأدمج في رؤيته معطيات العصر ومنجزات المدنية..

كان على النورسي إما أن يعيش لاجئا في معسكر الماضويين، فيحقق شيئا من السكينة المحفوفة بالمخازي والهزائم، وإما أن يسبح ضد التيار، فيحيا مُثُلَهُ ويتقمص مبادءَه كما هي بأصليتها في بيئة معادية لا تفتأ تسدد نحوه لترديه وتردي معه قيم ذلك الماضي..

لقد صمم النورسي على أن يحضن كنز الأصالة وأن يختزنه في مطاوي قلبه ويشد عليه بين فكيه، وحرص من جهة أخرى على أن يشق طريقه بكامل العزيمة والقوة والمهارة في استغلال عامل الوقت واستثماره، فيعيش زمنيته في بعديها التليد والطارئ، متكيفا مع معطيات العصر، تكيفا ليس تكتيكيا فحسب، ولكنه تكيف جذري، وتأصيلي، وحاذق، إذ أن النورسي قد تيقن من أن في ما يتهيأ للإنسانية من مظاهر الترقي في سائر ميادين الحياة يمكن استغلاله وضمه إلى الرصيد القيمي الأصلي، فهو بمثابة طاقة تضاعف من حركة السير بالإسلام على طريق الإحياء والانبعاث.

بهذا التكيف المتوازن صنع النورسي إيديولوجية متصالحة مع الأزمنة كلها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، لأنها إيديولوجية اعترفت للتاريخ -ليس في شطره المنقضي فحسب- بالأحقية في الحضور، ولكنها خصصت للقابل والآتي مكانة ظلت الرؤية الإسلامية المنكسرة تغفلها وتتجاهلها وترفض التسليم بها.

فمن أخطر المعاطب التي أصابت الفكر الإسلامي إلغاء المسلمين لمبدإ المستقبلية - مخالفين فلسفة عقيدتهم ..إذ -خطأً- سَمَّوْا المستقبلَ غيباً، وسفهاً تحللوا من تبعات العدة

ومقتضيات التجهز للآتي.

لا ريب أن العمل الدعوي النوري كان من العمق والتسارع بحيث أمكنه أن يسجل في أعوام معدودات نتائج ويعطي بواكير طيبة كالرطب يجنى في غير إبَّان..

لقد ارتكز العمل الدعوي على أسس الأصالة في البناء، والنجاعة في الفعل، والسرعة في التنفيذ، والمراقبة والمصاحبة في التوسع.. ويمكن اختزال أركان خطة العمل النوري في تلك المرحلة الافتتاحية في الآتي:

لقد سار النورسي منفصلا عن الحشد لا انقطاعا عن القافلة، بل لاستقطاب الخيرين والْحَدْوِ بالنيرين والسير بهم في طريق المغالبة القدسية.. ولبث يُسَوِّقُ-تحت ضغوط السرية- العلاجات القاعدية لمواجهة الأمراض الفتاكة، ويشيع مبادئ أولية وأساسية من التعاليم الوقائية القادرة على الحد من الاستشراءات.. كما لبث يمارس إرشاد الجماهير المنْظمَّة إلى المعسكر، ويلقنها أساليب المقاومة والتطبيب الذاتي، لأنه أيقن أن الشبكة الجهادية -بذلك التجند الفعلي والذاتي فقط- ستتمكن من أن تنتشر وتتحول إلى ظاهرة (ثورية) وإصلاحية ينهض فيها كل قطاع وإقليم بالواجبات حيال أوضاعه خاصة وحيال أوضاع الأمة عامة.

تحول النورسي في هذا التشكل التنظيمي إلى شمس تُفيضُ على الأرجاء والجماعات نورَها، وتضبط بكل هون وبساطة أجندتهم ومواسمهم ومهامهم.

لقد تصرف في ورقة بروتوكول العارفين، فاختصر مراحله، وطوَّع عوده، وجعل منه منهجا جماهيريا يلبي حوائج الناس الدنيوية والأخروية معا.

فمنهجه" منهج العابرين إلى الحقيقة مباشرة دونما مرور ببرزخ الطريقة.. وأما منهج المتوسلين فهو طريق العروج ومبرر المراتب[1]".

لم يفتأ النورسي يتصدى لإشكالات تطعن في العقيدة روجت لها مرحلة الردة بقصد إضعاف الوازع الديني والتأثير على الناس، وكان هدف النورسي من وراء الخوض في تلك الإشكالات هو تقوية وازع الصمود والثبات في الأوساط المسلمة. وغالبا ما كان يتخذ تلك الردود والمطارحات الفكرية مناسبة لفضح مناورات الخصوم وكشف أساليب المغالطة والاستدراج الشيطاني الذي يسلكونه مع الفئات الشعبية بغرض ردهم عن إيمانهم.

(١) انظر: الكلمات - الكلمة السابعة والعشرون ٥٧٩

فعن سؤال حول إمكانية اعتبار إيماننا أقوى من إيمان الصحابة لأنهم رأوا الرسول ولابسوه، أما نحن فلا، ومع ذلك آمنا به.. يرد النورسي من منظور تنبيهي ترشيدي، إذ يرى أن إيمان الصحابة لا يرقى إليه إيماننا لأن إيماننا لم يتعرض لتلك العدوانات المناهضة للإسلام كالتي عاشوها وواجهوها وتعرضوا لها في ذواتهم وممتلكاتهم، أما نحن فإيماننا اليوم يهتز ويهوى في شباك الشبهات بمجرد كلام يطلقه فيلسوف مادي أوروبي[1]".

النورسي هنا يعمل على تحصين الإيمان في قلوب الجماهير من خلال انتقاص حال الإيمان التي باتت عليها طوائف جرفتهم تيارات الزندقة، فالحجة هنا راجحة لأنها تعكس حقيقة لا ينكرها المسلم التركي، اعتبارا لما كان يحدث أمام عينيه في بيئة أعلنت (تَلَيّكَهَا) وخروجها من ربقة الدين باختيارها منهج العلمانية [2] أي الكفر..

لاشك أن فرضية القول بأفضلية أهل العصور المتأخرة من حيث الإيمان، تقبل الإثبات هي الأخرى (مثل المؤمن في آخر الزمان كالماسك على الجمر بيده). لكن النورسي الاستراتيجي لا ينظر إلى المسألة من زاوية التوفيق الغافل والتلفيق المفوّت، فداعي الجهاد يجعله يتبنى فكر التنبيه والتحفيز، وقناعته هي أن يُحكم الصلة بين الخلف والسلف، ويربط العلاقة الروحية بين أول الأمة وسلاسلها المتلاحقة، وعيا منه أن التقليل من شأن السلف هو التمكين لحزب الردة من إيجاد موقع قدم يستفيدون منه في حربهم للعقيدة.. إذ أن إيديولوجية دوس المقدسات لا تتردد في قراءة أي معطى-مهما كان- واستثماره في الاتجاه الضار، ثم إن منطق النورسي يستند إلى رؤية شرعية طالما نَزَّلت الطلائع المحمديين منزلة السطوع.. فعديدة هي تأكيدات الرسول ﷺ لأفضلية الصفوف الأولى من محتضني الرسالة القرآنية، فقرون الخير[3] هم أصحاب العهود الأولى (خير القرون ثلاثة، قرني هذا والذي يليه والذي يليه أو كما قال عليه الصلاة والسلام).

---

(١) انظر الكلمات - الكلمة السابعة والعشرون ٥٨٠

(٢) لا ننكر أن مفهوم العلمانية لا يعني الكفر، ولكننا ندرك أنه شعار يفتح الباب واسعا في وجه كل احتمالات ضرب الدين وامتهانه، إن العلمانية تعني في الحقيقة تعرية ظهر الدين ، وضمان الحماية لأعداء الدين من أجل أن يتطاولوا على الدين تحت مبرر حرية المعتقد.. وإذا كانت هناك مدنيات أخرى آمنت بالعلمانية واعتبرتها وعاء يحفظها من مخاطر الفتنة الداخلية، فإن المؤكد أن المدنية الإسلامية إذا ما تعلمنت، فإنها تكون قد أعلنت انتحارها.

(٣) انظر الكلمات - الكلمة السابعة والعشرون ٥٧٥

من جهة أخرى وكما نلاحظ، فقد شفَّ خطاب النورسي عن روحٍ سخريةٍ مريرة عندما قال (أما نحن فإيماننا اليوم يهتز ويهوى في شباك الشبهات بمجرد كلام يطلقه فيلسوف مادي أوروبي)، ذلك لأن السياق نقدي، وتغليظ الصوت بهذا المستوى اللافت، من شأنه أن ينبه ذوي الألباب.

المعقولية والقلبية سمة الرسائل

له مكنة في أن يلاقي بين الدليل العلمي والمقتضى الروحي بمعقولية لا ترد ودون أن يلاحظ القارئ أدنى تمويه فذلكي في الحجة.

لا شك أن الإنشائية تستجيب بيسر كبير للخطاب الدعوي، فالحقل السجالي يجد في الخطابة والشعرية داعمه الجاهز وسنده الطيع، اعتبارا لنوع القاعدة الجماهيرية التي يتوجه إليها الدعاة، إذ هي قاعدة في أكثرها من البسطاء ومن ذوي العقول الساذجة، لذا يستسهل الخطباء -البسطاء بدورهم- التأثير على متلقيهم من خلال إشهار عدة الشقشقة الكلامية وحدها في غالب الأحوال.. لكن النورسي ظل متحرِّزا أبدا في ما يتوجه به من خطاب دعوي إلى الناس.. لا يصطنع من الخطب إلى ما يكون ذا قدرة تعبوية ومعقولية. ومن المؤكد أن ملكته كانت ملكة علمية، لذا كانت أفكاره تأتي على الدوام مطبوعة بالصلابة المنطقية..

من جهة أخرى لا ننس أن النورسي كان يتوخى ليس فقط توجيه الجماهير المسلمة ولحم صفوفها، وإنما بجانب ذلك كان يرمي إلى إيصال خطابه إلى الآخرين، إلى الخصوم الذين كانوا يجسدون اندفاعة تدميرية دالة على جهلهم العارم بالدين الإسلامي، لذا كان النورسي يحرص على أن ينصب أمامهم حججا وبراهين لا تطاول.. فلذا كان يشحن رسائله بالإثباتات السائغة عقليا والصحيحة منطقيا.

بل إن النورسي كان في مستوى آخر من رسائله يخاطب الدنيا قاطبة على اختلاف أديانها وتباين فلسفاتها وتعدد إيديولوجياتها، حاديه في ذلك شعوره بالواجب الدعوي، وإلحاح وازع مسؤولية التبليغ عليه.. ألم نره يتطرق في مواطن كثيرة إلى مهمة المسلم في نشر الإسلام، بل ألم نلمس لديه إحساسا قارا بحتمية رجوع أمم الأرض إلى الإسلام بعد أن تنهكهم الضربات ويجربوا ما طاب لهم تجريبه من العقائد والإيديولوجيات العقيمة. من هنا لا غرابة أن تأتي رسائل النور تستجمع هذا السمت العقلي والروحي والإنساني المتساوق الذي يعطيها

وجاهتها وتميزها.

هناك مرحلة وسطى وحلقة مغيبة يبرزها النورسي في إثباتاته، فهو لا يعرض الحجة على الطريقة المألوفة في خطب الواعظين، أي من خلال المثال والخطو منه إلى الناجز البرهاني.. كلا، إن النورسي يعرض الشاهد ويباشر في مرحلة تالية عملية تشريح تفضي بالفرضية إلى أن تتحول إلى برهان عيني، فالحديث عن الشمس ووحدانيتها وتظليلها للكون من حولنا في سقف واحد ومسحة منفردة لا يجعله يبادر رأسا إلى استخلاص التدليل على حضور الله وانبساط سلطانه –عز وجل–على المشهد الكوني كما تنبسط أشعة الشمس، كلا، إن النورسي يتوصل إلى هذا الاستنتاج بعد أن يعْبُرَ طورا شاسعا من التبيين الحسي المثبت لتلك الحقيقة، فلذا تراه يلفت ذهن القارئ إلى ظاهرة انعكاس صورة الشمس في مرايا الكون وفي كل تفاصيل الأشياء، في الأرض والسماء، في أدق ذرة وأرحب مكان..

إن هذا التبيين هو الذي يشد ذهن القارئ، وهو الذي يتحول إلى معطى عقلي سائغ ومحقق للإشباع الروحي..

هناك خدمة ينهض بها النورسي على صعيد العرض الاستدلالي، هناك تسويق نزيه يُسوِّق البضاعةَ الروحية، هناك إجرائية تحليلية تفكيكية للمعطى الاستشهادي هي التي تدفع بذهن القارئ إلى بذل جهد تنتعش به عملية التلقي، وإلى التمرس بتفاصيل الظاهرة في تشخُّصها موضوعيا على يد النورسي..وهذا التمرس الإيضاحي لا يحصل مجانيا وإنما ينتج عن أثر، هو تلك القناعة التي يخرج بها القارئ بعد إنهاء تلك الدورة الكشفية التي يقوم بها صحبة النورسي من خلال استعراض حزمة من التفاصيل.. ففكر النورسي قائم على البعد الإثباتي، والحاصل الرياضي يتم من خلال عملية بسط تقف عند الجزئيات وفحص الخلايا، مرورا إلى الاستنتاج..

إن قارئ الرسائل يكتسب –دون ريب– حساسية إزاء بيداغوجية الارتجالات الإثباتية الشفاهية التي طالما تكيف عليها في دروس الوعظ التقليدي، لأنه يجد نفسه يفاعل بيدغوجية المقايسة العقلية المستندة إلى الإيمان بالروح. فمن القياس العيني إلى الموازنة الذهنية، ومن الفحص المجهري إلى الاستحصال المنطقي، ومن المعاينة العضوية الخلوية إلى الاستنتاج الاعتباري الفقهي، لذا تيسر على النورسي أن يدمج المعيار العقلي في استدلالاته مدعَّما بالخاطر القلبي دونما افتعال أو تلفيق، لأن خطواته الاستقرائية تحتمل ذلك النوع من الإسناد الروحي..

هناك تبطين في الخياطة يحفظ سُمْكَ الثوب، لأن الراجح في العملية الإجرائية ليس هو البداهة الجزافية، بل المنطق الفكري الذي لا يتنافى مع الشرط الروحي ومنطق الحدس الإيماني، ولا يتعارض معهما، إنما الجميع يتناغم في الخطاب النوري وعلى نحو وطيد.

السوفسطائيون

-إنه على وعى بهرطقة السفسطائيين ومنهجهم الزائف في المحاججة، إذ عدتهم منطق فذلكي من خاصياته تدبير أحوال الغلبة بكل السبل الخطابية المشبوهة، منطق غالبا ما يتوسل إلى تحقيق الغلبة عن طريق التمويه، لذا رأينا النورسي يستحمقهم[١].

طالما توهمنا صواب المنطق واعتبرناه عدة التمحيص وإثبات الحقيقة، ولكن حقيقة المنطق غير ذلك يقول (ألان شوف)[٢] في كتابه المنطق ودلالته:

"المنطق[٣] يهتم بتساوق وانسجام الخطاب دون أن يهتم بعلاقة هذا الخطاب مع الواقع أو مع الحقيقة"[٤]. في المنطق لا يختص البرهان القولي بالأشياء التي نبرهن عليها، وإنما يختص بشكل البرهان، أو بالكيفية التي نسلسل بها إثباتاتنا". إن المنطق ليس معرفة أشياء نحاجج عليها، لكنه هو الكيفية التي نحاجج بها على الأشياء.. المنطق هو أداة تستخدمها العلوم، لكنه ليس آلة للبحث عن الحقيقة.. إنه يفيد في العرض الصارم للحقائق، ويسهر على أن يكون التحاجج صحيحا، وأن لا نناقض في المنطق الحقيقة الشكلية.. فهو لا يبحث عما إذا كان ما نقوله هو صحيح في هذا الاتجاه ".

ويردف:

في المنطق العقلي لا نبحث إلا عن الحقيقة، حيث ننطلق من مقدمات لنستنتج نتائج تتقبلها قواعد المحاججة، وإذا انطلقنا من النتائج فلكي نتأكد أنها متساوقة مع مقدماتها..أما في المنطق العاطفي فعلى العكس تكون الخاتمة محددة قبلا، فهي مطلوبة مرغوبة.. فنحن ننطلق دائما من النتيجة ونبحث عن تلك الخاتمة بأي مقدمة تستطيع أن تبررها، فالأمر هنا

---

(١) راجع الشعاعات- الشعاع السابع ١٤٠

(٢) (Alain Chauve. La logique et sa signification philosophique) (٢)*

(٣) Méthode من اليوناني, هو من Odos الذي يعني الطريق. م.س.١٠- Organon(٣) .يعني آلة

(٤) م.س. ١٣

ليس هو كما في المنطق العقلي حيث المقدمات تنقل حقيقتها إلى الخاتمة، بل بالعكس، فان الخاتمة هي التي تجعل المقدمات حقيقية، أي تجعلها تُقْبَلُ وتُعْتَقَدُ..

إن المحاججة المنطقية حقيقية وصحيحة فيما المحاججة العاطفية زائفة ووهمية وفي أغلب الأحوال خاطئة"[1]. ليس هناك إلا منطق واحد، وعلم واحد للحقيقة هو المنطق العقلي[2]

من المؤكد أن النورسي الذي كان يقر بأهمية المنطق لدرجة أنه اهتم به تدريسا وإشاعة بين الطلاب، كان على معرفة بمنهج السوفسطائيين وأسلوبهم المخادع.. والحقيقة أن السجال السياسي والعقائدي والفكري الذي عاش في أجوائه النورسي، كان –ولا يزال-يسخر السفسطة على أوسع نطاق من أجل قلب صفحة الحق وطي كتاب الإسلام..

لذا ارتكز الطرح النوري على العلمية العقلية الصميمة، لأن القناعة التي تسكنه كانت على قدر عال من الرجحانية، فهي لا تحتاج إلا التمحُّل والافتعال من أجل تمريرها، وهي من جهة ثانية تتطلب الالتزام بالصرامة العقلية لأنه لا سبيل آخر للمنافحة عن الحقيقة القرآنية، إذ أنها من القسطاسية والجلاء ما لا يمكن التغطية عليه.

لا ريب أن عالم السياسة عالم تدجيلي، وكل سياسي داهية هو سفسطائي على نحو من الأنحاء..

والنورسي القرآني كان يعتدُّ في مرافعاته بما يناسب طبيعة قضيته القدسية، إذ لا يمكن أن نناصر الحق بالتدجيل.

بل لقد رأينا النورسي يتمادى في تمحيص رزنامة واسعة من الحقائق بمنهجه التدبري، كل ذلك اعتدادا منه بميزان الروح الذي استلهمه من القرآن وسبر به المسائل، المعنوي منها والمادي. استمع إليه مثلا يحدثك عن الرزق، باعتبار الرزق من الحظوظ المقدورة للإنسان، الدالة على أن من خلق الإنسان كفل له حاجته من الأسباب البقائية .

لقد نظر النورسي إلى المسألة فصنف الوازع الحيوي لدى الإنسان حيال طلب الرزق في

---

(١) م.س٣٤

(٢) الفيلسوف (كانت) يستخدم مصطلح أرسطي للحديث عن المفاهيم المنطقية: المقولات ليكاتيغوري.
يرى أصحاب مدرسة بورت رويال انتوان ارنولد، وبيار أن المنطق يلابس خطاب الإنسان الذي لا يكتفي بمعاينة الأشياء فحسب، ولكنه يقَوِّمُها ويؤكدها ويثبتها.
ويرى نيتشة أن هكذا المنطق الطبيعي هو المنطق اللاشعوري، وأن المنطق هو في فكرنا دون أن يكون في وعينا نيتشة. راجع م.س ٨٠

رتبة الغريزة.

فحس الاحتياج إلى الرزق هو في الكائن بمثابة السوط الذي يلهب شوق المخلوق ويحثه على نبذ الكسل [1].

انظر إلى الرأفة التي يتحسسها النورسي في ما زود به الإنسان من دوافع وقابليات، وانظر إلى التعبير المتميز القائم على المفارقة اللبيبة والذي عبر به النورسي عن الوضع الإنساني إزاء مهام البقاء والمعاش= السياط، والشوق، فكأن القسوة التي عبَّر عنها لفظ السياط بَرَدت وفقدت لهبَها بلفظ الشوق، وتلك هي حقيقة الوضع فيما يخص علاقة الإنسان بحظوظه الحياتية، إذ يعتقد أن نيلها يتم صراعا، والواقع-كما يقرر النورسي- أنها مزمَّمة ومقيدة ومحتجزة للعبد وإن كان الله جعله يغفل عن ذلك لحكمة إدامة الحراك والعمارة، فلذا يشتاق الإنسان إلى التحصيل الحيوي وأول درجاته طلبُ التقوتِ، إذ حتى الفاقد لعقله يسعى على نحو غريزي لنيل قوته، وكذلك بعض الملذات لا سيما ملذة المنكح، فلولا الشوق والشهوة الملحة على الكائن الحي ما استمرت الحياة، ولزهد الناس في الزواج لما له من تبعات وتكلفة آنية وآجلة بالنسبة للجنسين..

الأدبية

له قدرة على إدارة خطابه على ألسنة الكائنات الوجودية الماثلة في الطبيعة من حوله، الجو والنجم والثريا وكرة الأرض، و.. ولا يدل ذلك إلا على طغيان القريحة، وذاك شأن يتميز به أهل الإبداع جميعا.

من هنا يمكن للقارئ المتمرس أن يستظهر في كتابات النورسي علامات أدبية طالما ترسخت لأهل الأدب في ما يكتبون.

وإنه لواضح اشتراكه وتقاسمه لعاطفة الحنو وحس الرأفة مع أدباء العصر الكبار.. ينعكس ذلك مثلا في توصيفاته لصغار الحشرات (للفراش مثلا وهو يتخبط متخلصا من شرنقته باستماتة وضعف)، بل إن سيرة الحنُوِّ التي تميز علاقته بالحيوان والطبيعة، لتعكس رهافة الحس وقوة المشاركة وأصالة الرؤية.

هناك تأدُّبٌ جَمٌّ إزاء الكائنات جملةً، لا سيما العجماوات، يَسِمُ كتابات النورسي.. إن

(١) انظر–الشعاعات، الشعاع السابع٢٢١

سيكولوجية الشفقة لتترشح من ألفاظ النورسي بما لا يخفى على لبيب، وإن ذلك لراجع إلى رحابة الروح التي تصدر عنها تلك الشفقة، فالعظماء يكْنِفون بأجنحتهم الرؤوم أبعاد الكون كلها، فهم يسلكون بإزاء عوالمه، سلوك المسؤول المعني بأمرها، هناك وصاية، وأبوة، وأخوة، وأمومة، تشِفُّ عنها آثار الصديقين، فلكأنهم يتقربون بما يبذلون من مشاعر المشاركة والحدب إلى الباري، بل كأنهم يستغفرون للكائنات ويتشفعون لفائدتها لدى الخالق الجليل.

غزارة الخطاب

ثرارة دفقِ الروح تنعكس في ثرارة الخطاب وغزارة احتياطاته من الطاقة الإعرابية، وإن ذلك لموصول بلا محدودية المعين من حيث تمتح الروح أحاسيسها ومشاعرها. ولقد اقترنت الغزارة المشاعرية بالرقة الخطابية، الأمر الذي أدرج النورسي في مصاف القمم من رجالات الأدب.

ومع ذلك لا يقتأ النورسي يقوم نفسه وأدبيته فيقر أنه اهتم في إنجاز أدبيته بالمعنى دون اللفظ [١]، وأنه يأبى أن يكون من الذين ينحتون الجسم من أجل أن يوافق اللباس [٢]ولا يفتأ يستظهر ضعفه وقصوره، تواضعا وشهامة "أسلوب مهتري يحوي حقائق رفيعة[٣]، ولم يكن يعز عليه أن يكون من صفوة المُدبِّجين المنشئين، إنما كان قلبه مصروفا إلى استقراءات الحكمة وكان وعيه الفني مشغولا بالحقائق العالية"[٤]، هناك مهارات أخرى انشغل عنها النورسي .(أعترف بفقر قابليتي في صنعة الخط وفن النظم)، بسبب ضراوة المعركة التي انخرط فيها، فهي لم تترك له أي هامش من متنفس يسعه أن يمارس الهوايات.. ليس في دنياه ترف، فكل شيء يمضي على ساق الجد دونما هوادة.

ومن آيات هذا الانخراط الكلي انشحان خطابه واكتنازه وامتلاؤه حتى ليبدو أحيانا كثيرة غير ممفصل، لأن عملية الضخ كانت من القوة بحيث لم يعد معها مجال للأسلوب لأن يبدي حدا من المرونة كما عليه الحال عادة في الأساليب الأدبية.

---

(١) انظر الكلمات- اللوامع ٨٣٤

(٢) انظر الكلمات- اللوامع ٨٣٥

(٣) انظر الكلمات- اللوامع ٨٣٥

(٤) الكلمات- اللوامع ٨٣٦

المخيلة وأسلوب المفارقة في تجلية الحقائق

وله القدرة على اعتماد المتخيل المفارق في تجلية الحقيقة والحقيقة اللامتوقعة، فمن اكفهرار سماء ملبدة بالغيوم يستدعي النورسي صورة الرحمة الإلهية..من حيث إن تغشي السماء بالغيوم هو مبعث فرح للأرض والأحياء، لذا نلفي النورسي يرى الرحمة في وجه السماء الكمداء.. إن السماء تتفجر خيرا عميما حين يكفهر فضاؤها..وإن اعتمال أجوائها بحمحمة الرعد ودويه المخيف يحمل رحيق البشرى.

ومن وفرة المخزون الطاقوي لبث النورسي ينوع من مستويات الرسوم والكليشيهات المجسدة لأفكاره.

انظر مثلا كيف يعبر النورسي عن إرادة الخالق عز وجل وعن قدراته المطلقة في إدارة العالم كما حفلت بها الرسائل، والتي جاءت غايةً في التشخيص والتعبيرية.

في هيئة القائد المسير لحركة الجيوش يقرأ النورسي دلالة وجود الله، ويقرأ صورته حين يأمر السُّحب أن تنحسر والأجواء أن تنقشع.

بل إن ملكة التشخيص تتجلى لديه حتى في تلك المستويات التجريدية البحتة، ومواقف التأويل وقراءة المعاني والإشارات .

انظر كيف تأول تواتر آيات التذييل القرآنية المختتمة بأسماء الله الحسنى، إذ رأى أنها أركانٌ تُدَرِّس القارئَ علمَ التوحيد..

إن هذا التخريج يحمل من دلائل الفطنة ما يشهد للنورسي بالألمعية.. وفعلا إن آيات القرآن في سائر السور، وهي تخوض في كل شأن إنما تحرص على أن تعود باستمرار إلى نقطة ارتكاز ثابتة وهي توحيد الله وتعداد تجليات ربوبيته من خلال عبارات التقديس التي تنبني عليها الفواصل..

بمثل هذه اللفتات القبسية جدَّدَ النورسي القراءة، ونفض عنها غبار السذاجة الذي لحقها بسبب بدائية ألوان المعرفة الماضية التي قرأ بها أتباع السلف مادة التراث القدسي.

بل إنه يرتفع بالدلالة القدسية إلى مستوى عقلي متنور، ويوظِّف معارف تقنية وعلمية لا غبار عليها، يظهر ذلك في مادة مهمة من أمثلته وشروحه، من ذلك مثلا ما يقرأ به معنى

جريان النيل ونبعانه من الجنة[1].

فالعقلنة التي باشر بها النورسي تصفية الخامات التراثية هي عقلنة المؤمن الملتزم الذي لا ينطلق إلى الهدف التجديدي مشروطا ببواعث توفيقية وتحسينية لأجل أن يظهر بمظهر العصري والديمقراطي والمعتدل وما في معنى هذه النعوت المغرضة التي بات الخصوم يخدعوننا بها لأجل أن نفرِّط في الأصول، وأن نقبل لعبة المجاراة التي لا تفضي إلا إلى الهاوية والخسران.

التداولية عند النورسي

مسار الإنسان عبر محطات الحياة تعكسه منجزاته العملية وتنجزه أيضا خطاباته وما تسجله له الذاكرة من حصيلة..

لا جرم أن محصلة الأيام هي في التحليل الأخير هذه الاختزالات الخطابية لأنشطتنا وعراكاتنا التي لا تفتأ تراوح بين الحقيقة والمجاز، البسط والإيجاز في تعيين المحاصيل.

وإن وازع النفعية واقتصاد الجهد في تصريف الخطاب، يحمل الإنسان على التقلب بين الحالين.. ذلك أن ما نظهره من أقوال يُقابَلُ بما نبطنه من مشاعر، لذا تتزاوج في مقولنا الافضاءات السافرة والأخرى المقنعة، الانفعالات المصرح بها والأخرى المسكوت عنها.. مواقفنا وأحوال تواصلنا هي سجل ترتسم على مداهُ وقائع حياتنا ومجرياتها، وعند فحصه نتبين فيه متوالية كبرى من أحوال المطارحة التي ربطتنا بأنفسنا وربطتنا بالآخرين..

مع الآخر تمتد جسور التواصل، وتنشط الوتائر أو تفتر حسب درجة الحافز وقوته أو ضعفه، وحين نرتد إلى أنفسنا نسدل الستائر من حولنا، ونلغي الآخر من الحساب، ونتركز على ذواتنا، فنوسع من دائرة الشأن الخاص، ونمد من آفاق العالم الداخلي، ونتداول الأفكار بحميمية لا مراء فيها، أحيانا نخاف من تبكيت الضمير على ما بدر منا من مواقف شائنة، فنماري على الحقيقة بالقفز فوقها أو بتزويرها، لأن الإنسان مفطور على الخوف حتى من نفسه، وإلا كيف يُقْدِمُ المأزومُ على الانتحار؟

إذ يعيش الإنسان المعاني عواطف وأحاسيس مجردة، فلذلك تكون المعاني أحيانا حادة كالشَّفرة، وأحيانا أخرى لينة مثل لُبِّ المَوْز..

---

(١) انظر – الكلمات- الكلمة العشرون ٢٧٠.

والحميمية تغدو أقوى كلما تلامست الذات مع ذاتها بدون وسائط لفظية.. اللفظ قشر، لذا هناك من اللفظ ما يشف عن درجة أكبر من الحميمية، فيما هناك ما تكون درجة تعبيريته أقل شفوفا..

الطفل يعيش حميميته بدرجة أخصب وأكثف لأن المعجم الذي يتداوله في تواصله محدود الرقعة، لذا يعيش نوعا من الانجراف وراء الأحاسيس، فيعبر عنها بوسائل شتى منها الحركة، والمزاج، والانفعالية..

الراشد تنحسر طاقته التخيلية تحت وطأة المواجهات الحاسمة، ويستعيض عنها بالوسيط اللغوي، يستغل ما ملك من رصيد لفظي على وجه عملي متقشف، إلا أرباب القرائح وأهل الملكات، فهولاء يحتفظون ببكارة المخيلة الطفولية ويضيفون إليها المكاسب والقدرات التداولية التي لا يفتأون يوسعون من نطاقها بما يستحصله وعيهم من تجارب الحياة ومن القراءة والتعمق في التفكير.

والنورسي بلا مراء هو أحد هؤلاء الأساطين المفصحين الذين امتلكوا القدرة على إظهار المعاني في رتبها الجوهرية المتقدمة.. يمكن القول إنه يسمي الفكرة في جيلها التجريدي الثالث أو الرابع.

لماذا؟ لأن النورسي ظل في جانب من ملكاته طفلا زاخر الأحاسيس، وظل في جانب آخر، صوفيا احترف تعاطي الاختراقات البرزخية والإفصاح عن بوحياته.

مبادئ التداول هي الإفراغ والإشباع والتعويض، والنورسي في رسائله لبَّى هذه الحاجات كلها، وباستحقاق لا يمارى.

منهج الرسالة

إنها تصطنع الإبهام في وجهتها، ثم تدريجيا تكشف عن نتائجها.. فالكيفية هي إغفال الغاية مؤقتا، ويترتب عن ذلك انخراط القارئ في عملية استكشاف متبصرة، ليكون منتهى الجولة هو الغاية التي يستنفد القارئ عندها شحنة فضوله، والشارة التي تُعْلِمُ عن ذاتها بذاتها.

القراءة

لم يتعامل النورسي مع الآيات إلا على أساس أنها كائنات حية، لها قدرة التواصل

واستعداد التحاور وقابلية الإفصاح.. فلطالما أخبرنا عن طبيعة ذلك التواصل قائلا " أمرتني الآية.."[1]"، "أفهمتني الآية[2].."، ولابد أن وجدانه الذي يختزن نص المصحف، كان بستانا يعج بصبايا لهن خاصيات حور العين، كل واحدة منهن تتصدى له في سرحاته وتعترض سبيله وتخاطبه: اقرأني.. تدبر في معناي"[3]، بهذه العلاقة الاعتبارية كان النورسي يستحصل من مخاطبة الآية مزيدا من الفوائد، لأنه كان يفاعل مخلوقا قدسيا له الحياة والإرادة، كائن يلتفت إلى الجهات الأربعة فيعاين في كل جهة وجها من الحقيقة، هو ما كان بريد النورسي يوصله إلينا، لأنه أول من يتلقى المعلومة..

حين يستمطر سحاب الآية.. يغشاه الهطل مُزْناً يَعْقُبُ مُزْناً، ويدرك النورسي في كل وجبة مباهج وأنعما.

لا يقنع النورسي وهو يستقرئ الآيات بمستوى واحد من مخزونها، بل يحرص على أن يتجاوز إلى أبعد من ظاهر المعنى السطحي، ولذلك كانت قراءته للنص القدسي تمنح القارئ السكينة، وتجعله في موقف من ينتهي إلى سمعه فجأةً خبرٌ غير منتظر، فلذا هو يريد أن يستوعبه بكامل التركيز وبما يستحق من الاهتمام. ولأن النورسي امتلك تلك القابلية على التواصل مع الخطاب القرآني، فلذلك حطَّ رحله على ضفاف بحر القرآن، وطفق يتعاطى حرفة الابحار، حتى بات ملاحا لا يعرفه الناس إلا ربانا يرود الآفاق ويعود محمل الشباك بأنواع من اللآلئ والمرجان لا قبل للناس بها..

قابلية التواصل مع المرفق القرآني كانت صفته الأساسية بحيث شمل الدرسُ القرآني كل بحوثه وانجازاته، إذ الرسائل وإن صنَّفها النورسي تفسيرا للقرآن، إلا أنها جمعت علوم القرآن جملة، وزادت عنها تخصصات أخرى هي من استحداث النورسي.. لابد أن نقر أن النورسي تضلع في ما يمكن تسميته علم النفس الإيماني، وتمرس بعلم الروح، وفقه السرمد..إن رياضة القراءة لديه هي فاعلية قوية لتوليد المعاني المبتكرة، لأنها رياضةٌ تشمِّر الستارَ وترى من وراء الحجاب[4].

---

(١) انظر الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٦

(٢) انظر الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٦

(٣) انظر الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٩

(٤) طالما قرر النورسي أن الرسائل هي ترشحات روحية وقلبية ، لا فضل له في عملية إيجادها، إلا التقييد والتحرير.

بل إن النورسي وبسبب ما لديه من قابليات الكشف، قد بات يرى في رسائله ذاتها ماهية مستقلة عنه، هو كيان والرسائل كيان ثان، إنها معادله الموضوعي، بل إنها حلوليته المجسَّمة، هي تمثال من التسبيحات نصبه لذاته، تقَرَّبَ به إلى الخالق، وكان هو فَناءٌ رامَ الخلدَ، وفقرٌ نشد الغني. بالاستماتة تحصل على المقامية، ولم ينشد البركة المعنوية إلا لكونها مظهرا سيثبت له أن أسماء الله الحسنى تكتنف حياته. ما يقَيِّدُهُ في الرسائل من حاصل الأفكار والخواطر هو ما يتلقاه بعين اليقين من إشعاعات الإشراق القرآني، وما يفوته –ولابد أن يفوته الكثير لأن عملية الإفصاح عملية شاقة واستنزافية- كان يستدركه في جولات أخرى تالية، الرسائل كانت بضاعة مستجلبة من عالم الماوراء، الروح فيها تدفع تكاليف الجمرك، فلا ينتقص ذلك من مردوديتها، لأن السوق مزدهر، ولأن من يتاجر في الألماس غنيٌّ أبدا، ورخيٌّ دائما، ومتعامل مع العلية حصرا..

بحفول القلب بالإيمان كان النورسي يرى في الآية الأطياف السبعة، وكان ذلك يجعل القريحة معينا زخارا، وكان العطاء يسترسل ويتناهى في النوعية، وكان من دلائل غزارة الدفق لديه ما دأب على اصطناعه من استطرادات ليس ضمن حبل الأفكار فقط، ولكن خلال تسلسل الموضوعات، فالذيل هو في حقيقة الأمر موضوع استتبع موضوعا. فلأفكاره تذييلات وتبلورات ولموضوعاته تعقيبات وتتويجات. الفكرة في ذهن النورسي لا تطل برأسها فحسب، وإنما تتخرج بكامل قامتها، وإيمانه ليس عقليا فحسب، بل إنه إيمان قلبي وتدبري، وكل ذلك سنقف عنده بالتفصيل لاحقا.

كيف يستبصر غريزة البقاء

يفسر محبة البقاء والخلود بكونها فطرة إنسانية ناشئة عن تلبس ماهية الفرد بشيء قدسي هو أثر لروح الله في النفس البشرية، أو هو ظل من ظلال أسماء الله الحسنى الممازجة للكينونات والعناصر والمخلوقات.

أما حين تتحول هذه المحبة عن فطرتها، وتشذ عن منهجها وصلتها بالخالق، فإنها تولّي على عقبيها، وترتد إلى مستوى أرضي، فتضحى محبة الدوام والخلود تعني محبة الحياة الفانية[1].

(١) انظر الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٠

هكذا يعلل النورسي الاختلال بكون عشق البقاء الفطري انحرف عن مقصده لأن الأنانية أسدلت دون القصد أستارها " لقد ضل عشق البقاء الشديد في فطرته عن محبوبه (الباقي) بسبب ما أسدلته الأنانية على ماهيتي من أستار دونه، فتشبث بالمرآة وافتتن بها فصار حائرا غويا"[1].

إن الوعي المتجدد بنسائم فيض الآيات يجعله يجدد علاقته بالواقع، ويغير من هواء الرتابة، ويصلح ما ترسب في النفس من كدر، فلا يلبث أن يدرك أن المحبة الحق هي محبة الخالق.. وأن بقاء النفس يتحقق لها حين تتعشق الخالق الباقي..

من مقاصد ترقية الروح عند النورسي دفع هاجس العدمية فلذلك هي تصطنع الاسباب المقوية لروح الثبات

من شأن الإيمان أن يرشد صاحبه إلى إيجاد الطمأنينة من خلال إناطة الذات (المحدودة الأجل) بالغيب، بالذات الكلية تحقيقا للمطلقية..

وعلى العكس من ذلك نرى الفكر اللاإيماني يَسُدُّ الأفقَ في وجه النفس الجاحدة، وعندئذ تُقوِّي لديها وطأةُ الاحتباس نزعةَ التمرد والرفض.

ولقد ظهرت نزعة صناعة الوجود وتحقيق الذات عند الوجوديين القدامى والمعاصرين، ولكن شذوذ الفطرة سرعان ما ربط نزعة تحقيق الوجود بالعبثية[2]..إذ جنح الوجوديون في كل عصر إلى الشذوذ العقدي، ورفضوا القول (بالمابعد)، وتوهموا أن فلسفة (اللابعد)، تبرر لهم السير نحو الخلْف، وما برحوا يتناصحون معلنين أنه من خلال السباحة ضد التيار يحقق المرء ذاته.. وأن العبث هو منطق هذا الكون.. فالحيرة المدمرة التي عجزت عن استشراف الغاية الثاوية وراء الأجل المحتوم أفضت بأصحابها إلى إعلان إفلاسهم، إلى الاعتقاد بإيديولوجية اللاعقل، وباتهامهم نظام الكون بالأصم.

ضمن هذا المنظور السجالي نجد النورسي يواظب على إماطة اللثام عن المنصة الأزلية، منصة ما تحت الثرى وما وراء الثريا، ويتحدث عن القبر والموت وعما بعد القبر والموت، إذ

---

(١) الشعاعات-الشعاع الرابع ٧٣

(٢) الأبيقورية القديمة مثلا تحمل جانبا من روح العبث التي تميز شطرا من فلسفة اللامعقول المعاصرة.. هناك أبقورية معاصرة.

كان يرى أنه بذلك الحديث يتيح لنفسه –وللآخرين–أن يتداوا من عقدة الموت، ذلك الداء العضال الذي لم يزل يكدر صفو الإنسانية منذ أن وجدت، فلكي ينعتق الإنسان من الخوف من المجهول لا مندوحة له من أن يوطن النفس على معايشة أجواء ذلك المصير المريع معايشة روحية ووجدانية.. ذلك لأن أجبن الكائنات هي تلك التي تخاف الموت، والمؤمن الحق وحده ينتشي للموت لأنه قد وطَّن النفسَ منذ البدء على الإيمان بالخلود، إنما الجاحد ومن لا إيمان له يفقد الهمة والكفاءة اللتين يستطيع بهما أن يهزم خوفه من المصير المحتوم.

وطأة اليأس هي التي تشهر سيفها وتسلطه على العبثي، وتعدمه حيا، حتى قبل أن يحين حينُهُ.

"علمت بعلم اليقين –بذلك الشعور الإيماني والانتساب بالعبودية– أن وراء ستار التراب عالم منور، وأن الطبقة الترابية الثقيلة التي يرزح تحتها الموتى سترفع عنهم، وأن النفق الذي يدخل إليه من باب القبر لا يؤدي إلى ظلمات العدم كذلك"[1].

إن الفطرة السوية تتفنن في الحفاوة بمنطق البقاء السرمدي، فيتحصل لها –من ثمة– التلَذُّذُ المتواصل.

هناك تبريد لحرقة عشق الدوام، يحصل نتيجة تعويد الإنسان نفسَهُ المماهاة في الأبدية.

وهكذا يتولد –وجدانيا– عند المؤمنين شعور تَشَكُّلِ الجماعة الخيرية، إذ الجامع الروحي يستقطبها، والتيقن من بقاء الأخيار حتى الذين عبروا بعدُ جسْرَ الأجل، يورث ذوقا رفيعا ساميا تغدو به الحدود بين الحياة والموت شبه عديمة، ويضحى التواصل بين السابقين إلى الدار الآخرة واللاحقين بهم أمرا واقعا، فهم يشهدون أفعالنا، ويشاركوننا أفراحنا بكل كسب صالح، كما أنهم يتألمون لكل مزلق نقع فيه. إن السلف –بهذا الاعتبار– يتحولون في الوجدان إلى ضمير يراقب ويرافق ويمد الخلف بالطاقة المعنوية المساعدة على بناء الصرح[2].

هناك ترشيد للنفس لأجل أن ترسخ إيمانها بالباقي، كي تترسخ لديها عقيدة البقاء، الأمر الذي يكفل لها أن تختار صفها وأن تنتخب صفوتها من أهل الصلاح المصطفين لتستخلص البقاء لهم، فينعكس ذلك على النفس بالسعادة والانعتاق، لأن الكسب يكون مزدوجا، فمن جهة يتم استحياء الأعزة الراحلين وإعادة بعثهم إلى الحياة، بجعلهم أشهادا علينا، مسددين

(١) الشعاعات–الشعاع الرابع ٧٢

(٢) انظر الشعاعات–الشعاع الرابع ٧١

لنا، ومن جهة ثانية تتطبَّع النفس على الاعتقاد بأن مصيرها ليس فنائيا، وإنما دوامي تماما كدوام الخيّرين، إذ هم أحياء في الضمير، وهم أحياء عند ربهم يرزقون.

هناك عملية بناء لمنطق مضاد لزلزال الهزيمة الوجودية يتم من خلال تمكين عقيدة البقاء في النفس.. فحبي للبقاء قد تسامى واكتسب تلك السكينة التي انتشلتني من وحل الجبن..

كان حبي للبقاء زائفا إذ كان مقتصرا على العرضي دون الجوهري، كان البقاء في عيني يعني بقاء الجسد والحظوظ المكتسبة فكان القلق والوجل.. إذ طبيعة الحياة تضاد مبدأ دوام الماديات.. وحين انعكست الرؤية وأدركت أن البقاء للهوية المعنوية، للروح المشروطة باسم الباقي.. عندئذ انعتقتُ وآمنتُ بأن سائر الأخيار ممن أنهج منهجهم بدءا بالرسل وفي طليعتهم محمد ﷺ إلى سائر من ربطني بهم سبب ما، جميعا باقون.. لذا حصل لي من السعادة ما انتشرت منه مشاعر الحبور"[1].

منعطف التجرد والتحول الحاسم في حياته[2]

شعور العدمِ وَلَّد لديه شعورُ اليقين بالخلود، ورستْ روحُه بفضل ذلك اليقين عند مستوى شمولي حَصَلَتْ لها به الطمأنينة، إذ تجاوز إحساسُهُ الماهيةَ الحسية (أي شخصَهُ) إلى لازمها وهو الماهية المعنوية (أي رسائل النور)، إنه تماهٍ في المابعد، حيث ستحقق الرسائل الرواج بعد الركود، والمحفلية بعد العزلة، والتجلي بعد الكمون.

هكذا يتشكل للنورسي وجودان، الوجود الأول تماهيه -هو بشخصه- في الاسم (الباقي)، والوجود الثاني تماهيه في (الرسائل).. فالحلقة استدارت، والمعادلة جعلت بقاء الباقي يستنقذ الروح القانطة فيشملها برحمة الإيمان والتيقُّن من جزاءات السرمدية، ولما كانت الروح هي هوية وأثر، فقد غدت الرسائل -من ثمة- ماهية وأثرا لنفسٍ اختارت أن تَمْحُضَ عبوديَتَها للخالق "الرسائل ثمرة حياتي ومبعث سعادتي ووظيفة فطرتي[3]"، إنها قُرَّةُ عينيه في الحياة ، والغُرَّةُ التي تُحَلِّي جبينَه يوم يقرأ الناس صحائفهم بإيمانهم.

ومع أن الرسائل ماهية ثانية له، ووجود رديف لشخصه، ومع أن إعجابه القلبي طافحٌ بها،

---

(١) انظر الشعاعات-الشعاع الرابع ٧٢

(٢) انظر الشعاعات-الشعاع الرابع ٧٥

(٣)الشعاعات-الشعاع الرابع ٧٢

ومعلن، إلا أن روح التماسك تظل من شمائله، إذ لا يجمح به الشعور بالرضى حتى وهو يرشح الرسائل لأن تقف في مصاف الهويات الدائمة، فهو في سائر مواطن الاعتزاز بها ولدى كل تصريح تنويهي وتثميني للرسائل، لا يفتأ يستدرك ويعقِّب (إن كانت موضع رضى الله سبحانه وتعالى)[١].

ولا يفتأ يعدد مكارم تأتَّتْ له من جهة الاشتغال بهذا العمل الفكري المميز، فهو يُقِرُّ أن الرسائل مقامات ترقٍّ وأحوال وجْدٍ ويقين، عكست ما كفلني الله به من نعم سابغة لا تحصى" إذ منحني ذوقا وشوقا مَلَكا علي كياني كله، وأخذا بمجامع روحي"[٢].

بل إن تعاطي التفكير لأجل إقامة صرحها الشامخ قد كان نوعا من العشق الأصيل، استغرق الباطن واستحوذ على جماع الهوية، وبات يحقق مقتضيات الإشباع والتعويض والإعراب.. وتلك هي وظيفة العقيدة والعبادة حين تستوطن مُثُلُها وقيمُها الروحَ.

جدلية التحول والتغير

"إنه يسيطر عليَّ عشقٌ في منتهى القوة للبقاء، وتهيمن علي محبة شديدة للوجود، ويتحكم في شوق عظيم للحياة"[٣]

لقد كان عليه أن يتخلص نهائيا من علائق ماهيته القَبْلِية، ولا يكون ذلك إلا من خلال تحقيق الطفرة الروحية التي لا رجعة فيها، ذلك لأنه بالتجدد والانبعاث يتحقق اليقين، وهكذا سار على طريق الانصهار، فترك قشرته ليتحول إلى شجرة باسقة ملآى بالثمار، لأنه استقرأ من البذرة أبجديات التخلُّق والاكتمال " فأقنعت نفسي أن أكون كالبذرة التي تترك قشرتها لتتحول إلى شجرة باسقة..[٤].

نلاحظ أنه في دال (تترك) إحساس دفين بالخسارة، لكن التعويض حصل فورا من خلال صورة التجدد التي يعبر عنها السياق بعد ذلك " أقنعتها أن تترك بقائي الدنيوي الشبيه بالقشرة لتعطي ثمرات باقية"، وفي اختيار قالب الماهية البديلة (الشجرة) الذي يستجمع صفات

---

(١) الشعاعات-الشعاع الرابع ٧٢

(٢) الشعاعات-الشعاع الرابع ٧٣

(٣) الشعاعات-الشعاع الرابع ٦٩

(٤) يضيف " أي أقنعتها أن تترك بقائي الدنيوي الشبيه بالقشرة لتعطي ثمرات باقية، فقلت مع نفسي (حسبنا الله ونعم الوكيل). م.س

الشموخ والسخاء والرحمة، يتسامى النورسي بمشاعره من صعيد الإحساس بالخسارة والانهضام إلى صعيد آخر أرحب وأطيب يعمره الشعور بالبقاء. "إن الطبقة الترابية الثقيلة التي يرزح تحتها الموتى، سترفع عنهم وأن النفق الذي يدخل إليه من باب القبر لا يؤدي إلى ظلمات العدم كذلك، فقلت من الأعماق ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1].

منهج الاستشفاء بالآية

يعلن عن الحالة، ويصف العلة، ويبين كيف عمل على معالجتها، ويعين الطبيب المراجع.. ودائما تكون الآية -أو الحديث الشريف- هي الطبيب،" إن جيوشا كثيفة عارمة تهاجم شخصا واحدا ضعيفا مريضا مكبل اليدين، أو ليس له -أي لي- من نقطة إسناد"[2]، ويجري التواصل بين النص القدسي وبين النورسي على نحو مشخصن، فالنص ماهية أو هو كائن حي يتم التواصل معه بلسان المقال وليس بلسان الحال فقط.. وتقوم المحاورة على قاعدة من التواصل الاستعاري يتشرع بها الفضاء للجواب..

ويمضي الخطاب وفق استراتيجية التريث، لأن السؤال ثقيل ومحبط ومنهك وينوء الكاهل به، فلابد أن يكون الجواب بمستوى ذلك الثقل والإحباط والإنهاك.. لذلك يباشر الخطاب بناء صورة ضافية لا تختزلها الكلمة ولا العبارة، كلا، إن الموقف يقتضي تمهلا في العرض، وأناة في التقديم، وسكينة في التشخيص، ورباطة في الإيعاز، وصبرا في التجلية، ومروءة في التدليل، وحكمة في التعليل، لذا تأتي الاستعارة مثالا متحركا، ومشهدا حيا، وموقفا له فضاؤه وسيرورته ومآلاته، فحين يشتكي النورسي علته للآية ويطرق بابها بانكسار عميق مرده وطأة الشعور بالعدم وباللامصير، تشرع الآية ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ في الرد عليه لا بالتطمين والتشجيع الفوري الانعاشي أو الاستنقاذي، وإنما تبادر الى تخلية قلبه واستفراغه وإعادة تحليته وشحنه، فلذا هي تحيله فورا من خلال عرض الشاهد الحيوي، إلى موقف يجتمع فيه مع الحقيقة الغائبة، ويتواجه مع المشهد الذي توعز له فيه كل لفظة في السياق بما يسكِّن جنانَهُ ويعيد إليه السلوى."فما دمت قد ظفرت بنقطة استناد مثل هذه بهوية

(١) انظر الشعاعات-الشعاع الرابع ٧٢-٧٣

(٢) الشعاعات-الشعاع الرابع ٧٣

الانتساب الإيماني، يمكنك إذن الاستناد والاعتماد إلى قوة عظيمة وقدرة مطلقة"[1]، هكذا تسارع الآية إلى تبديد حالة العسرة التي هو عليها، تفعل ذلك ضمن جو من الترحيب والبشارة ترافقه بهما وهي تمضي به بفورية جادة نحو محطة الانتشاء.

الشاهد الاستعاري والمثال الموضح

لماذا يحرص النورسي في المواطن المأزومة (مواطن الشكوى) أن يسترسل في القول ويوظف الشواهد الاستعارية؟

لا شك أن النفس المرعوبة تتعطش في مواقف الإحباط إلى التداوي بالكلمة، وأشد ما تكون الكلمة أثرا متى تعززت بثقل تصويري، بشعرية، فهي تجد في المعطى الخطابي المؤَسِّي حاجتَها، وتستشعر في الكلمات المخملية بلسماً ومرهَمَ علاج..

إذا استطاعت أنامل الخيال أن تنفذ إلى ثنايا الواقع المتردي وتُظِلُّه برأفة ولطف، وتجعله يأخذ هيئة حادثةٍ عابرة وعارضٍ زائل، تَهَيَّأَ للنفس أن تَغنم الإسعافَ المناسب والتسرية المطلوبة..

هناك طقوسية استشفاء تتنزل بها مخاطبات النورسي رحمة وسلاما لأنها تستهدف الروح، فهي -من ثمة- مخاطبات تستلزم استخدام تركيبا من البلسمية يفي بالغرض.. وعلى قدر ما استوفت الكلمة شحنتها من الجرعات الروحية، على قدر ما تجهزت بما يفيد في إخماد الأذى..

ذلك لأن الخَلْطة طبيعية، مبَرَّأة من أي لَوْثِ كيماوي، فهي لذلك قادرة على أن تعيد للنفس صفاءها، وهكذا تتفتح العين على حقيقة العلة، وتتقبلها في الحال، لأن وسيلة الكشف جد دقيقة، والمعطيات التي يعرضها الشاهد الاستعاري والمثال التوضيحي هي من الوضوح والموضوعية ما لا مجال لردها أو التشكك فيها.

الأمثلة الموضحة قريبة المنال بعيد المغزى

تشرع في قراءة الشاهد فإذا أنت متحفظ، متحرز، إذ لا تكاد تلمح الفكرة حتى ينتابك إزاءها شعور القرب والألفة، فتهم بالزهد فيها، ثم تقرأ وما تكاد تخطو خطوتين حتى يتملكك

(١) الشعاعات-الشعاع الرابع ٧٤

إحساس المفارقة، وتلقي في الحين بغرورك، وتعترف أن الأمر أعمق مما ظننت، وتنساب وراء الصورة، فإذا الموقف يسرد وقائع تتعدى إطارها البسيط، المحدود، وإذا أنت حيال كليات وشموليات رغم إقرارك بأنها غير غريبة عنك ولا بعيدة عن فكرك أو تمثلك، إلا أن السرد يجعلك تقر بأنها حملت جديدا إليك، فقد ركَّبتْها لك مصورة النورسي بحيث خرجتْ بك عن نطاق الألفة الذي توهمته فيها أول وهلة، فبدل أن يقول لك النورسي".. الخالق يجدد في كل موسم الأرض وما فيها والأشياء وصفاتها، ويخرجها من وضع إلى وضع، ومن حال إلى حال، وأن في ذلك دلالة على قدرته في كونه يحيي ويحقق البعث والحشر.. بدل هذا ترى النورسي يسيح بك سياحة حقيقية، في كل مشهد يريك واقعا مبهرا.. وما أشبهك حينئذ بمن تكفلتْ به هيئةٌ احترافيةٌ، فجالتْ به عبر أوطان كان يحسب أن معرفته بها كاملة إذ سبق له أن تصفَّح عنها مطوياتٍ دعائية عرضت عليه مناظر فوتوغرافية ملونة عن معالمها..

أجل هذا ما يتملكنا عندما نسوح مع النورسي، فشواهده تنقلك من بيئة عرفتها معرفية (فوتوغرافية) افتراضية، سطحية، مقطعية، عن بعدٍ، ومن وراء المسافات الزمانية المكانية، إلى بيئة حية، حافلة بالحراك والإثارة، ويذرعها بك من مواقع تمكِّنُك من أن ترى كل الأبعاد، فتلمس ماءها لمس اليد، وتشم هواءها، وتذوق ثمارها، وتعيش طقسها ودورة نهارها.. إذ يتمادى النورسي في استقراء تفاصيل المشهد التوضيحي، فيظهر للقارئ في كل مفصل منه آية تبهر وعبرة تذهل ولفتة تدهش!

ومن المؤكد أن مهارة النورسي في انتقاء الاستعارة بمعناها الأوسع (أو القيمة الموضحة) هو ما يقوي من أثر صوره ويلونها ويعطيها الرشاقة والحظوة والقدرة على الإفتان.. انظر إليه يضع هذه اللمسة التصويرية في بعض سياقاته التوصيفية "..يجدد ملابس جيشيه العظيمين وهما الأشجار والطيور[1]"، إن المشهد يقوم هنا على المفارقة، فالجيش لا يكون من الأشجار، والأشجار لا يكون لها لباس.. بل إن الصورة لا تحتبس عند هذا الحد، فالزخم عارم لذا يسترسل القلم في تدبيج وتنسيق ما يدفع به الخيال من جواهر "..ويلبسهما ملابس جديدة.."، إن النكتة هنا تقوم على هذا الربط غير العادي بين الأشجار والطيور وبين الملابس الجديدة! فصيغة إسناد المَلابس إلى الأشجار والأطيار قد اكتملت طرافتُها حين

(١) الشعاعات-الشعاع الرابع ٧٤

نعتَ الملابس بالجديدة، فأمعنتْ الصورةُ في التلويح بامتيازها.. وبذلك -أي بما توطد للصورة من أسباب السبوغ والتأصيل- تمكنت الفكرةُ التي تَتَبطَّنُها من أن تستقر في الذهن، وأن تنفذ إلى الأعماق، وأن تصبح مُسَلَّمة من مُسَلَّمات الذهن.

إن الشاهد التوضحي يغدو لوحةً تفاصيلُها تشد الضميرَ، فرغم أن عناصرها الافتراضية ومناطها التمثيلي هو من البديهيات، إلا أن الكيفية التي يسردها بها النورسي، والهيئات التي يُظهرها فيها، والبناء الذي يبنيها عليه، تغدو جميعا مادة ليس للتجلية الشكلية ولا للتوضيح التعييني، ولكنها مادة أصلية تستقطب الفكر وتشبع حاجته الإقناعية.. فالتفاصيل الإستعارية قيمٌ أصلية وأبعاد عضوية تدخل في عملية تشكيل الفكرة العامة وتوطيد وجاهتها..

يضيف متحدثا عن الجيشين (الشجر والطير)، ".. مبدِّلا أنواطهما وشاراتهما".. إن هذه الإضافة التصويرية يعلو بها صرح الصورة الأم التي دشنها حين لفت الأذهان إلى مجال التغيير والتجهيز الرباني الذي يطرأ على الأشياء في كل موسم..

بل إن هذه الإضافة تغدو بذاتها موطئا لوثبة أسلوبية جديدة تتوسع بها اللوحة، إذ عَقِبَها نسمع النورسي يستطرد قائلا ".. حتى إنه يبدل لباس الجبل ونقاب الصحراء".. من أين جاء بصورة النقاب؟ وكيف ألبسه للصحراء؟ الصحراء القفر في لمسة عابرة تتحول في حسه إلى فاتنة حسناء وكاعب عروب تخفي صفحة الحسن بنقاب، بل تُجَلِّي ذلك الحسن بالحجاب!.

ونفس الدهش تولده فينا عبارة "لباس الجبل"..فأي ذهنٍ شَخَّصَ الجبلَ في صورة كائن ذي زي وهندام؟ بل إن صلة تالي العبارة ليوغِل في التوليد التصويري "..فساتين الدجاج اللطيفة وأثواب الطيور الجميلة.."، فتترادف الاستعارات، الأمر الذي يجعل الخطاب سلكا منظوما من الإثارات التي تعمق من وهج المخيلة وتكثف من إشعاع الدلالة.

ويمكن أن نقرأ أيضا في قوله "مثلما يبدل فساتين الدجاج.." صيغة تكميلية لمعنى ناجز استجمع في متنه فلسفة بصيرة تُقوِّم الأشياء بعين القرآن.. ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٦)..

لقد حقق الخطاب هنا طرافة دلالية لافتة، حين جمع بين النفاسة والهوان في هذه الصورة، (الفساتين =نفاسة)، (الدجاج =هوان).. لكن النورسي كان منخرطا في حال شمولية، متحدثا بلسان العبرة، لأنه كان بصدد تعداد مظاهر الجلالة، لذا استوت في حسه الأشياء،

واكتسبت قيمتها وثمانتها بكونها من مصدر واحد هو الخالق الفاطر..

ثم لا ننس أن للنظرة القرآنية مسطرتها التقويمية العلوية، التي تسَوِّي بين الأشياء من حيث الأصلية، فمادام صانعها واحد فالأشياء في حقيقتها جميعا من إبداع الخالق، فهي –من ثمة- ثمينة بالقوة والفعل، لكن الاعتياد الذي نقوِّمها به يجعلنا في أكثر الأحيان لا نقدر نفاستها..(إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها..).

القراءة وقوة الاستلهام

لا ريب أن موهبة النورسي تكمن في هذا الاقتدار الكبير الذي جعله يستلهم من النصوص القدسية ما يكفل له السلامة الروحية والعافية المعنوية.. حتى لكأن هناك صيدلية في متناوله يتحصل منها على الأدوية النافعة متى شاء..

الامتياز لديه يظهر في أهليته الراسخة وقدرته على تفعيل وظيفة القراءة.. القراءة التي طالما تمثلها المسلمون من أجيال الخلف في هذا الراتب الصوتي[1] الذي يلازمونه جماعات أو فرادى، وفي هذه التمتمات الهامسة التي يؤثثون بها خلواتهم وأوقات فراغهم، ويلجأون إليها لمحاولة إجلاء أحوال الضغط الكابسة عليهم.. هذه القراءة تمثَّلَها النورسي على نحو استثماري نوعي مكين، إذ القراءة عنده هي استنطاق روحي وقلبي وسيكولوجي تترشد به النفسُ وتتزَكَّى الروح ويستيقظ الضمير..

هناك القراءة الشرطية وهي التي تجعل من النص مادة استرواح ووسيلة استعاذة.. والقراءة من هذا النوع تكفل حقا شيئا من الوقاية والسكينة، لكنها لا تجذر اليقين، إنها تخفف من الألم ببركة المُقَوِّم القدسي الذي فيها، لكنها لا تذهب بالنفس عبر المدى الإعتاقي الحاسم..

وهناك قراءة العروجية وهي التي لا تضمن الإعتصامية فحسب، بل البرزخية أيضا، إذ تبلغ بالروح إلى آفاق المتعة الفائقة واحتياز اللذة والرضى..

من قراءة المَنَعَة إلى قراءة المُتعة اجتاز النورسي، ومن تلاوة الاطمئنان إلى تلاوة الامتنان عَبَرَ!

النورسي راهن على هذه الغاية، أنْ يمارس القراءة المجذرة لمشاعر الرضى في القلب، القراءة العروجية التي يغدو بها ترسيخ اليقين مقصدا أولا وغاية نهائية.. إنه نشد السقف

(١) أعترف أنني مستهام بسماع راتب الحزب الجماعي، لا أشبع منه.

والحدِّية، فورث بصيرة تنفذ إلى الدرجات العلى..

العقلنة والتجريد

للفكرة معنى شعوري هو الذي يبادر النورسي إلى تسجيله في مطلع الرسالة وعلى مقدمتها، ثم يعقب ذلك معنى عقلي يتجلى لبصيرته فينتهي بالنفاذ إليه ولمسه واستخراجه ليعرضه علينا، وأحيانا يأبى إلا أن يعقلن العقلي ويجرد التجريدي، وعندئذ تراه يفرض على القارئ خطة إيصال يتم فيها عرض الرسالة بكيفية تَقْنِينيَة، تقتضي الترتيب في بسط المعطيات، والتمهل في سوْقها، وأحيانا يمارس منزعه التجريدي هذا من خلال التذييلات والتتميمات.

إن نزعة التجريد تتجلى لديه في أصعدة عدة منها هذا الاستعداد اللغوي التعييني السديد المتمثل في تلك القدرة على وضع العلامة اللغوية المناسبة للواقعة الذهنية المناسبة.

وربما رأينا ملكة التجريد هذه تلازمه حين يُعنون مباحثه بصور واستعارات تجسد الدقة والصغر(حبة، قطرة، ذرة..)، إنها معالم تكشف عن الطابع الفلسفي الذي يميز فكره، فهو فكر لا يجنح إلى الطرح الإجمالي، فحتى في مسروداته وموضِّحاته التمثيلية نراه يعرض الفكرة من خلال وقائع وأشخاص وحيثيات، هي في الواقع تشخيصات معنوية تحيل على مغزى ومقصد، فقارئها يطلب من ورائها رسالة مستخلصة، أو معنى المعنى.

لقد تعودنا في ثقافتنا التقليدية على التعامل مع العروض الوجيزة والمماثلات المجملة الجاهزة، من قبيل تشبيه الدنيا بالقصر الخرب، أو بالحقل البور، أو بالوادي المتوهج بنبات الدفلى، أو ما إلى ذلك، فالعقل الوعظي كما تكرس في شطر غير قليل من ثقافة الأمة، عقل جزافي، يحجِّم المعاني(يختزلها)، ويوازن بينها بكيفيات ارتجالية، سطحية، تيسر على المتلقي (العامي) الفهم العابر، والإدراك المارَّ، الذي لا يقتضي منه إجهاد نظر ولا إعمال بصيرة..

لكن النورسي يذهب بذهن المتلقي مذهبا مخالفا، فهو ينقِّب عن العلة ليجعل المتلقي طرفا في عملية الاهتداء، وفاعلا معْنِيّاً بالمطلب اليقيني، فلذلك لا يفتأ النورسي يساجل في كل موقف قراءه لأجل أن ينتهي بهم إلى بلوغ مستوى تحصيل المعرفة بذواتهم وبقدراتهم الشخصية، بحيث لا يلبثون أن يدركوا درجة من الاقتناع لا يسعهم معها إلا أن يسلِّموا بأنَّ بهارة هذا الكون، وخراقة نُظُمه، وبَداعة مكوناته، تفقد كل اعتبار إذا ما كانت ظواهر وعوالم

لقيطة، بلا نسب ولا وصاية، وبلا مصدر حافظ ولا علة تُعِلُّ هذه المعالم المترامية، وتضبط صنوف أشيائها اللامحدودة بقبضة مهيمنة، عالمة، قادرة، مريدة، محاسبة..

معارف العصر ومنجزاته العلمية شكلت للنورسي مددا تنويريا مهماً

تلقَّى من معارف العصر أبجدية التفوق والشمول والتحرك على مطاوي الزمان والمكان بيسر ووعي..

من فعل الكهرباء، وهي تنير الأرجاء من أقاصيها في ذات اللحظة بضغطة واحد على زر واحد، اتخذ مثالا قرَّب به من الأذهان صورة هذه الشمولية التي يدير بها الخالق أمور الكون بأمرية كن فيكون.

بل إن موقف البعث أو الحشر وهبة الجموع الشاملة والآنية، والآلية، ليس إلا موقفا متجانسا على نحو أو آخر مع فعل الكهرباء في انقداحها في مدينة واحدة، مرة واحدة، لحظة إدارة الزر، بل إن كهرباء الكون (قرص الشمس)، تشمل في عين اللحظة مسافات مديدة وعوالم متباعدة وتغطيها جميعا بطاقتها، وتمنحها نورا وحركة وتسخيرات لا تحد.

فخالق الشمس أرسخ سلطانا وأعظم هيمنة.

تعاليمه تستزرع ذوقا جديدا بديلا

-يلقنك من التصورات والأفكار ما يزحزحك عن مألوف العادة وجاري العرف..بل إنه ليستزرع لك ذوقا جديدا مناقضا لذوقك الأول..انظر–مثلا- كيف يتحدث عن الذباب بما يحمل المتلقي على تغيير تصوره إزاء هذه الحشرة، فما يضفيه النورسي عليها من صفات القبول يجعلك تكتشف فجأة أبعادا أخرى خفية، ووظائف غائبة في أذهاننا عن هذه المخلوقة المحتقرة، فلا يساورنا بعدئذ شكٌّ في صدق ما يواصفها به من نعوت لم نكن نراها لها، بل إنك لتُقِرُّ أنه قد أضاف إلى معرفتك حقيقة جديدة، إذ صرت تنظر إلى هذه الحشرة المستفذرة على أنها كائن محب للنظافة والنقاء.. وهذه الحقيقة تجعلك تباشر عملية مراجعة لركام من مسلمات ترسبت في خلدك بفعل الاعتياد والتقليد والتقبل المجاني للأفكار الجاهزة والمعطيات غير المحصفة..

إن مثال الذبابة هو نموذج مصغر للمزاج التمَثُّلي الذي يتحرك به عقل النورسي، مزاج لا يسَلِّم بما ترسله المشاهد البرانية من معارف غلافية، وإنما هو على الدوام يحصف ويمحص كل ما يأتيه عن طريق الحواس، لأن النورسي هو من صنف أولئك الصاغة الفطنين الذين لا تطمئن نفوسهم لصحة العُملة إلا إذا عضوا بالناب عليها، وتبينوا صدق أصالتها.

وتراه يستخلص لك من استدلالاته الحسية قوانين يطابقها على عالم الغيب فتبدو معقولة ، متماسكة، لا تتهافت أمام المراجعة، لأن السياق أسس لها وأرساها على منطق اطرادي، لا يمكن رده أو نقضه حتى على يد من لا يذهب في الاستدلال ذات المذهب "على نحو ما ينشر الله ملايير الذبابات كل ربيع، سيكون الحشر الآدمي في الآخرة."..إذ أن بداهة ومعقولية الظاهرة الحسية تؤيد إمكانية حدوث الظاهرة الغيبية، لأن المتحكم في الأولى قد أوحى للعباد من خلال القرآن العظيم، أنه كما فعل الأولى سيفعل الثانية بنفس الإرادة وبذات الأمرية كن فيكون.

بل إننا نرى النورسي-في هذا السياق- لا يكتفي بالمقابلة بين الواقعتين الدنيوية والأخروية، وإنما يردف مبيّنا الاعتبار التقديري الذي يبني عليه وجاهة استدلاله: إن الدنيا دار الحكمة، فهي تقتضي المادة والوقت والتدرج في الإيجاد والإفناء، أما الآخرة فهي دار القدرة، ولذلك فإنها تتجاوز منطق المادة والتدرج والانتظار.."... ثم يتوج هذا التمثل العقلي بالداعم القدسي المعبر عن صيرورة تلك الحال﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ ﴾ (النحل: ٧٧).

الشواهد العامية إحدى أسس بيداغوجية التوصيل في الرسائل النورية

..لا يتثاءب الإنسان قط وهو يقرأ النص النوري، لاسيما قصصه وأمثلته السردية.. ومن الواضح أن سوقه للأمثلة العامية يضمن له عمومية التوصيل، لأن المتلقي يجد في الرسالة مستويات فكرية شتى، لأن تلك الأمثلة أو الموضحات –كما أسميناها- تأتي منجزة على شكل عقلي، بيداغوجي، بحيث تبدأ من الفرضية أو المعطى البسيط، لتنتهي إلى النتيجة الجوهرية، ومن المعتاد إلى المستجد، ومن العارض الحدثي إلى الثابت الحكمي.

وفي أحيان كثيرة، ورغم جلاء المغزي السردي، نجد النورسي يختم موضوعاته ببسطة تفسيرية يبيّن فيها للقارئ المعاني التي تضمنتْها الرسالة..لا ريب أنه يخص بذلك الاستطراد

التفسيري جموع المتلقين ومن لا اقتدار فكري لهم ليُمكِّنُهم من فهم المعاني الخفية عن أذهانهم..

ويمكن القول إن هذه الاستطردات التفسيرية هي أيضا ضرب من التذييلات والتتويجات التي رأينا النورسي يحرص على إلحاقها بموضوعاته، إنارةً لأفكارها وإبرازا لمقاصدها.. فحبُّه لضمان المردودية يجعله يتحوط لعملية التفهيم، إذ ما قيمة نصوص لا تلقى رد فعل القارئ، ولا تحقق أهداف باثها، ولا تستقطب إليها الأتباع، لاسيما إذا كانت نصوصا من النوع الدعوي الذي يتوخى صنع المستقبل وقيادة الأشياع.

يتخطى النورسي باللغة حدود المقول إلى اللامقول (اللامعقول) لأجل التعبير عن العذري من الأفكار والمساحات غير المستكشفة–لاسيما وأن حديثه يتركز في جانب مهم منه على عوالم الغيب والبرزخيات- فينجز للواقعة الفكرية البكر معادلا خطابيا يعلن عنها، ويترجمها، ويثبت لها قوة الحضور الحسي، والوجاهة والمعقولية.

منزع المراجعة وإستظهار النعم التي تحقق بها الاعتبار للآدمي

السجال لا يتم بينه وبين النص القدسي فحسب، بل نرى السجال ينعقد في أحيان كثيرة بينه وبين نفسه، خصوصا في تلك المواقف التي يتصدى فيها إلى طرح (الأنا) على أرضية التقويم والامتنان.. أو لنقل في مواطن استنقاذ الروح من كابوس الإحساس بالدونية. "إن حياتي رسالة ربانية تستقرئ نفسها لإخوتي المخلوقات من ذوات الشعور، وهي موضع مطالعة يعرف الخالق الكريم، وهي لوحة إعلان تعلن كمالات خالقي[1]"، وطبيعي أن يكون الأنا هنا هو الإنسان عامة، وإنما جرى تسميته (أنا) انطلاقا من بيداغوجية توصيل يريدها النورسي أن تكون دائما مشخِّصة لفرضياتها من خلال فواعل أو مظاهر أو مشاهد ملموسة..

"ثم نظرت إلى (أنا) الموجود في حسبنا، أي نظرت إلى نفسي وتأملت فيها ورأيت أن الذي خلق الحيوانات من قطرة ماء خلقني أيضا منها"[2].

ولا تلبث رؤية التدبر أن تنصَبَّ على شخصه فإذا هذا (الأنا) هو الحياة ذاتها، الحياة التي تستوعب كل تنوعات الكون" انه جعل وجودي.. نسخة مصغرة للعالم الاكبر، ومثالا مصغرا

(١) الشعاعات- الشعاع الرابع ٨٢

(٢) انظر الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٦

لهذه الدنيا"[1].

وإذا هذا الاستنتاج الأولي يتنزل على القلب تنزلاً شهيا، تتزحزح به النفس عن موضع الحضيضية..

إنه الدَّرَجُ السفلى في سلَّم البحث عن التجدد وإعادة الاعتبار للذات، ومن الطبيعي أن تتشجع النفس بكل ذلك فتمضي قدما تتحسس عن مزيد من المبررات التي تتجدَّدُ بها النظرةُ إلى الحياة.

هكذا يستنتج القارئ أن ما أعطى لروح النورسي كل ذلك الانشراح بعد القنوط وبعد وطأة الشعور باللاشيئية، هو إدراكه لما في مِنحة الحياة من امتيازية وجودية.

لقد اهتدى النورسي إلى السر الذي سرعان ما سيُخمد الزوبعةَ التي أحاطت به نتيجة انسحاقه بالاحساس بلا قيمة الحياة وبلا معقولية الوجود، حيث أدرك أنَّ مجردَ كفالة الخالق للعبد نعمة الحياة وتجهيزه بأسباب العيش والبقاء، يُعَدُّ النعمة الكبرى التي لا تقاس قيمتها " وهب لي(الخالق) الحياة ليجعل الوجود -وهو النعمة الكبرى- كبيرا وكثيرا في وجودي أنا، إذ يمكن لنعمة وجودي هذا أن ينبسط بالحياة بقدر عالم الشهادة"[2].

ويستمر النورسي -وفق منطق استدلالي- يساجل نفسه ويبين لها الامتيازات الأخرى -المكملة لكمال الوجود- التي يجدر أن تجعلها تمتنّ لخالقها وتعلن حبورها الوجودي. إذ فوق نعمة الحياة هناك نعمة الإنسانية التي يرى النورسي أن الوعي بأهميتها يكفل للفرد من أسباب الرضى ومن الدعائم المعنوية ما تتوطَّدُ به سعادتُه.

فمن شأن التنقيب في النفس وفي أبعادها المادية والمعنوية، واستبانة مدى ما لها من حظوظ، أن يعيد السكينة إلى الروح.

ولقد قاده هذا التنقيب في حقيقة الوجود إلى أن يتيقن من أن الخالق قد أرسى كينونة العبد على دعائم تؤصِّل لها السعادة وتجعلها محل امتنان بذاتها. فمنحة الحياة وختم الإنسانية الذي يسِمُ تلك الحياة، زيادة على نعمة الإسلام والإيمان وما يلابسهما من معرفة ومحبة، كل ذلك يجعل من التجربة الإنسانية ذاتها -بغضِّ النظر عما ستظفر به من محظوظية دنيوية أو من حرمان- مظهر تكريم وعنوان إعزاز، فلقد "منح سبحانه الإنسان جامعيةً من جهات كثيرة..

---

(١) انظر الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٧

(٢) انظر الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٧

ووهب له من الاستعداد ما يجعله مرآة كاملة لأحديته وصمدانيته، ويمكنه من أن يلبي بعبودية كلية واسعة ربوبيةً كليةً مقدسةً"[1].

هكذا يلفتنا النورسي إلى حظوظ قد تهيأت للإنسان (لا سيما المسلم) ليراها رأسمال سعادته الوجودية، ويعاينها امتيازا قد تكرَّسَ له من خالقه، لولا أنه غفل عنها وتعلق بما دونها من جزئيات الحظوظ العارضة، فشقي ولم يهنأ بحياته.

وهكذا ينيط النورسي سعادته الوجودية بعوامل قدرية موهوبة (هبة حياة + هبة الآدمية) وأخرى كسبية (هبة العقيدة الإيمانية الإسلامية + هبة المعرفة والمحبة)، إذ لولا الإيمان لضاع الإنسان في العبث وذهب إلى العدم، فضلا عن حرمانه من وجوده الظاهري وما يتولد عنه من وجودات معنوية كثيرة.

وواضح أن النورسي يبتعد هنا بنظره عما ألِف الناس أن يفهموا به معنى السعادة، إذ اعتادوا أن يغفلوا الالتفات إلى نعمة الحياة التي تخطَّتْ بالكائن منطقة العدم إلى منطقة الوجود، ثم نعمة الآدمية التي انماز بها الإنسان عن باقي المخلوقات المسخرة، ثم نعمة الانتساب إلى الإسلام وما يختص به هذا الدين الحنيف من جامعية وشمولية..

لقد تعوَّدَ الناس النظر إلى المكسب المادي وحده على أنه أسُّ السعادة ومناط حمد الإنسان وشكره، لكن النورسي -وطائفة الخيِّرين- لا يمثل الحظ الدنيوي عندهم شيئا اللهم إلا كونه سببا جزئيا قد يُعِين على بلوغ المقاصد العليا وتحقيق المطامح الجلى الكافلة للسعادة الحق، وهي تحصيل الإيمان التحقيقي.

فالأمل الأزكى والمبتغى الأسنى هو حظوظ المابعد، حظوظ الآخرة.. ذلك لأن رهان العامة عيني دنيوي عاجل، ورهان أهل الكمال روحي أخروي آجل.. فتعاليم السماء توجههم إلى هذا السبيل الإرجائي، وكذا تجارب الحياة وتقلباتها لا تفتأ تفتِّح أعين الغافلين على تلك الحقيقة الخالدة التي مفادها أن مكاسب الحياة ليست إلا سرابا لا طائل وراءه ما لم توظف في الصالحات.. كل ذلك دروسٌ لا تَنِي تُنَفِّرُ الأخيارَ من أن يشغلهم العراك لأجل المطمح الدنيوي والمكسب المادي عن الهدف الإيماني..

بل إن تعمق روح الإخلاص لدى الورعين يجعلهم يتأبَّؤن عن أن يشوبوا مراهناتهم

(١) انظر الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٨

وسعادتهم البعدية بمطمح دنيوي زائل أو مسعى مادي زائف.. إنها روحية التسامي تجعل للنفس ثباتا، بحيث لا تشرك في غاياتها وازعيْن، دنيوي وأخروي.. هناك معشوقة واحدة يخطبونها ولا مجال للتفكير في ما سواها، هي مرضاة الله.

إن النورسي -من خلال مثل هذا السجال مع الذات- ينتهي إلى أن يحدد لكينونته الإنسانية موقعا يدرجها ضمن كليات الموجودات المكرمة بنعمة الوجود، بل إنه ليحل نفسه محلا امتيازيا لا عن ادعاء وغرور، ولكن عن إيمان وعرفان وامتنان: وفهمت أن من حقوقها- أي حياتي- التزين بشعور تام بما أنعم عليها خالق الحياة -بالحياة- من هدايا قيمة وخلعا نفيسة لعرضها أمام نظر السلطان الجليل في العرض اليومي المكرر، عرضا مكللا بالإيمان والشعور والشكر والامتنان[1]"، فما أسعد أن يكون العبد عارفا بالقيمة التكريمية التي خصه الله بها، بل ما أسعده أن يكون ممن يدركون منطوقات سطور الغيب ومضمراتها المنقوشة في صفحة النفس وفي كل بقعة من الكون والهاتفة ملء السمع والبصر بما للمخلوق الإنساني من مكرمات لعل من أهمها إدراكه أنه هو " المخاطب المدرِك لخطابه السبحاني"[2].

سنراه يستطرد في وصلة مناجاة طويلة يختتم بها الشعاع الرابع، تواجُدا بنعمة الوجود "حسبي من الوجود أني أثر من آثار واجب الوجود، كفاني آنٌ سَيَّالٌ من هذا الوجود المنور المظهر، من ملايين السنة من الوجود المزور الأبتر".[3]

الحديث بالنعمة

يرسي النورسي سلم المحظوظية على رتبة أولى فارقة، وهي أن العبدية الكاملة تُنالُ متى مَحَضَ الفردُ توجُّهَهُ للخالق، وأصر على أن لا يجعل له تعلقا في الوجود والخلقة إلا بالباري، فالعبد يعبد ربه لأجل ربوبيته لا لشيء آخر.

ومن جهة أخرى نرى النورسي يحدد مقاما آخر تاليا للأول أو متولدا عنه، وهو أن يعبد الإنسان خالقه لأجل أنه شمله بنعم الوجود المكتمل بما وهبه من عقل وحواس وذائقات ومُسْعِدات لا تحصى.

---

(١) الشعاعات- الشعاع الرابع ٨٢
(٢) الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٧
(٣) الشعاعات- الشعاع الرابع ٩٨

فلكون العبد الصالح قد أدرك علو المصنوعية التي خلق الله الكون عليها، وعلو التحريرية التي وفَّرها له، وعلو حسن تقويم كينونته كما أبدعه عليها، فهو لكل هذا يخصه بالعبادة وحده، وبالرضى التام عما يصيبه من خير أو غير.

الظفر بنعمة الإنسانية هو في حد ذاته كرامة لا تقدر، أليس من نعم الله أن يختار لعبده صفة وصورة الإنسان وليس صفة وصورة جنس آخر من العجماوات والجمادات؟ إذ أن الباري بهذا الاختيار شاء لعبده الإنسي البقاء والحياة البعدية، وهو ما عنته الآية الكريمة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين).

ثم إن الخالق قد أكمل أفضاله عليه بمنحة الإسلام الذي هو عقيدة تُقِرُّ ربوبيةَ الخالق وتؤمن بالرجعة إليه، إذ بالإيمان التحقيقي ترتفع الروح إلى مستوى تغدو سائر كمالات الكون كمالاتٍ لها هي شخصيا، الأمر الذي يُقوي فيها وازع السمو، فتَخمدُ سَوْرَةُ المطالب، بل إن التجرد من الطموحات الدنيوية يغدو سمة تؤكد أن الفرد اختار طريق التسامي والزهادة في المباذل، وسَلَكَ سبيل متاركةِ المغريات، احتسابا لما هو أبقى وأدوم..

التفوق

لم يكتف النورسي بالتحدث عن كمالات الوجود التي يتقاسمها مع الناس كافة، وإنما تحدث أيضا عن خاصية التفوق التي أكرمه الله بها، وفي هذا السياق نراه يعدد أهم ما اعتبره مزايا تفوقية خصه الباري بها " وكذا تفضل علي -بصفة خاصة- بعلم قرآني وحكمة إيمانية، فأولاني بإحسانه هذا تفوقاً على كثير من مخلوقاته.. وبمنحة المعرفة والمحبة جعل نعمة الوجود التي حزتها تمد يديها بالحمد والثناء إلى دوائر كثيرة جدا، ابتداء من دائرة الممكنات، إلى عالم الوجود، ودائرة الأسماء الحسنى لتستفيد منها" [1]

لا شك أن من بين المرامي التي توخاها النورسي من خلال تكرُّر مواقف تعداد النعم التي شمله الله بها، أن يلفتنا إلى أنفسنا ، فنُقر بما حفلت به حياتنا من أفضال..

إذ أن من شأن وقوفنا على ما تحلت به روح النورسي من سماحة ومرضاتية، هو الذي حُرِمَ من أهم وأخص ما يتمتع به الناس عامة (الأهل، الحظوظ الدنيوية، الحرية)، أن يجعلنا ذلك نرعوي ونستدرك الجموح غير المعقول الذي يمعن بنا في الغفلة، والاعتقاد الخاطئ

(١) انظر الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٨.

الذي لا يفتأ يلهبنا بسياط مشاعر الحرمان والافتقار الدنيوي.

ولا ريب أن بلوغ هذا المستوى الكريم الذي يسمو بالنفس إلى أفق الكمال والأريحية بحيث يزايلها نزغ المطامع، ليس متأتيا إلا لمن أفنوا في بواطنهم منازع الأنانية والنظرة الحصرية.

هناك مراس ذاتي تجهزت به الروح فأضحت بمثابة المرآة تنعكس عليها شفرة الأحدية والصمدانية، بل إن الروح غدت بهذا العلم القرآني وهذه الحكمة الإيمانية شاشةً ترتسم عليها معطيات مُرَمَّزة يحفل بها الكون من حولنا، فيورثها ذلك كل ذلك الامتلاء والاستغناء والامتنان..

إن في روح أهل التقوى تجهيزا يقرأ في ما على الأرض وما تحتها من حفولات ربانية على أنه كنوز عينية حاضرة لأهل الدنيا، وأن لتلك الكنوز الدنيوية ما يقابلها من مرصودات غيبية أسمى وأنفس لأجل أهل الاعتصام..

في مسائل الغيب يبدي النورسي وثوقا تسليميا ويقينية إيمانية لا مراء فيهما، وهذا مظهر آخر من مظاهر زكاوة الروح التي هي حظٌّ يهبه الله لمن يشاء، بل وإنها لَثَمرةٌ ينالها الفرد بجهادٍ متواصل وترويض للنفس مستمر، تخليصا لها من أنانيتها وخستها لأجل أن تعي ألاَّ شيْءَ لها خالصا في هذا الوجود، فحتى الروح التي هي بها محسوبة في مصف الأحياء، إنما هي مجرد وديعة، سيعيدها صاحبُها لا محالة يوما ما، وسيجازي عنها على قدر ما سجَّله لها في الميزان من الحسنات " ولقد علمت الله علما يقينا، وآمنت إيمانا كاملا أنه سبحانه يشتري مني أمانته المودعة فيَّ، وهديته المهداة إلي، وعطيته الكريمة لي، تلك هي وجودي وحياتي ونفسي، يشتريها مني لئلا تضيع عندي، ولأجل الحفاظ عليها وإعادتها إلي مقابل سعادة أبدية وجنة خالدة قد وعد بها وعدا قاطعا وتعهد لها عهدا صادقا"[1].

إنه منطق إيماني يترشح رأفة بالإنسانية، ويتعارض تماما مع القول بالعدمية، إذ العدمية تدمير صريح لإنسانية الإنسان، فمادام العدم هو مآل الإنسانية المروّع، فأي فائدة من التمسك بالفضيلة والترقي الروحي والترفع نحو ما يعطي الإنسان بعدا تشريفيا يتسق مع المشهد الإحساني، الخيري، الذي تزخر به الطبيعة والكون من حولنا؟

(١) انظر الشعاعات- الشعاع الرابع ٧٨

ليس أمام من يتيقن من عدمية مصيره إلا أن ينتهب الإشباعات، ويتعاطى المجازفات والمغامرات، ويجرب كل ما يعكس في حياته معنى العدمية والاستنزاف والانتهاك.. بل عليه أن يكون شيطانا لا أمل له في إحسان ولا رجاء إلا ما يتحقق له من شرور يتغذى عليها، لأن الشرور تنسجم مع طبيعة روحه الفنائية، روحه التي حرقت أوراقها بالعصيان..

الواقعة التفكيرية استيعابية شمولية

كثيرا ما تتجسد واقعةُ التفكير عند النورسي على هيئة تَقَوُّسية، تنتهي عند نقطة ما لتعاود المسح في اتجاه مواز من حيث بدأت، فالقضية الفكرية لديه هي أشبه بالقُبة، لا يزال عقله يمسحها من نقطة القطب قطاعا قطاعا، حتى يتم استيعابُها كليةً.

إذا تصورنا للقضية شكلا دائريا، كرويا، فإن العملية الإقترابية تنطلق من رأس القضية، حيث تتفرع الأشعة وتحيط بالإشكالية من سائر محيطها.. وكذلك هي مراوحات النورسي في تقليب القول أو إدارة الخطاب حول مسائل الإيمان والكون والخلود.. إنه يمسح هذا الجانب من المسألة ويستوفيه، ثم يباشر المسح في جانب آخر من ذات المسألة فيستوفيه، ثم في جانب ثالث ورابع، وهكذا دواليك، إلى أن يستوفي الطرح، كما فعل –مثلا- وهو يعالج آية ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ، فقد سَيَّجها بالبسط والتجلية من جميع أطرافها، وفي كل دَوْرٍ يخرج بتلوين رؤيوي جديد، بحيث يتبدَّى للقارئ أنه لا يقرأ كلاما يخص قضية سبق للمؤلف أن عالجها في مبحث قد فرغ تَوّاً من قراءته، وإنما هو يباشر تناولا مستجدا، لأن الرؤية التي استأنف النورسي بها المقاربة، هي رؤية لا تعيد ما سبق أن قرره آنفا، ولكنها تحمل الجديد.

هكذا يراوح النورسي بين الأشواط في مسح القضية الواحدة، ويأتي في كل مَسْحَةٍ بالجديد، فالأشواط تكمل بعضها بعضا ويستوفي بعضها بعضا.. علما بأن القارئ يجد نفسه مع كل عرضٍ قد استفرغ حاجته من (القضية- الإشكال)، لكنه لا يكاد يسترسل مع فحوى العرض الثاني والثالث و..حتى يدرك أن رغبة النورسي في الإحاطة بالمسألة من أكثر من صعيد قد اقتضى منه أن يراوح القول على ذلك النحو المسحي، القطاعي، فكأنه تَوَخَّى بذلك النحو تفكيك القضايا وتجزيئ المسائل وتمرير رؤيته على ذلك المنوال الذي بقدر ما هو مبسَّطٌ، هو مكثَّفٌ، وبقدر ما هو مفَرَّعٌ، هو مجمَّعٌ، إذ أن ما قد يغفله شوطٌ من جزيئات القضية يستدركه الشوط الموالي فيوضحه، وهكذا تفلح بيداغوجية العرض التجييري هذه في

تفادي التعميمات، كما تفلح في تجنب التهميشات التي تحدثها عادة إجراءات المقاربة.

لا بدع والحال هذه، أن يسمِّيَ النورسي طائفةً من مباحثه بصيغة الجمع: الشعاعات، الكلمات.. فالشعاع يولد حزمة من الأشعة، وحيثما صادفت الأشعةُ صعيدا صقيلا انعكست وانقدحت. وكذا الكلمة تولد كلاما، والكلام مقامات وسياقات.. لذا يدرك القارئ أن طريقة النورسي في طرحه لتلك القضايا على ذلك المنهج التبريجي، قد أخذت صورة سيولة ضوئية تنير الإشكالية بتدَرُّجٍ قطاعي، وأن تلوين القول فيها بتلك الكيفية القائمة على البدء والعود على بدء، هي كيفية تسير عليها الطبيعية نفسها من حولنا، إذ لا تفتأ دورة الشمس يوميا تنير الكوكب الأرضي، إذ تكتنفه أُفقاً أُفقاً وشقّاً شقّاً.

ولا بدع أيضا أن يُسمِّي طائفة أخرى من موضوعاته بصيغة الإفراد: شمة، قطرة.. فالرؤية عنده تزاوج بين نزعتي التحليل والتركيب.. ولا غرابة في ذلك، فهو من جهة فيلسوف في تفكيره، ديدنه التحليل والتبسيط والتدقيق، وهو من جهة ثانية عرفاني الرؤية، روحي اليقين، همته اقتناص الخطرات والحدوس وعرضها، مجْمَلَةً، مخافةَ أن تفلت.. فلكأنه- ومن خلال تمرسه بشعارات الإيمان، بدءا بـ(لا إله إلا الله)، قد تمَرَّس على استحصال مقبوسات اليقين عبر إفناء خواطر النفي في خواطر الإثبات، ومماهاة آلية التحليل في آلية التركيب.

من جهة أخرى-وفي إطار عقد الموازنات- نجده يبتكر منطقه الاجتهادي ومعاييره الاستقرائية التي يقايس بها الرتب والدرجات والمقامات والخيارات.. يظهر ذلك مثلا في سياق مقابلته إيمان الصحابة بإيمان الأجيال المتأخرة.. فقد رد على سؤال مفاده أن إيماننا نحن المتأخرين من الأمة أقوى من إيمان الصحابة، على اعتبار أنهم عاشوا مهيكلين بأنوار النبوة وبحضوريته ﷺ بينهم، بينما نحن لا نبرح نتمسك بإيماننا دون أن يتوفر لنا من الحوافز والبراهين والتأكيدات النبوية والدعوية ما يتوفر لهم.

إن دقة هذا السؤال تظهر أكثر إذا علمنا أنه طرح على النورسي في سياق سجالي حيث كان قد أعلن عن تفضيله للصحابة على من سواهم، فهو يرى أن إيمان الصحابة قد بلغ مرتبة الإحسان، فيما إيماننا يقوى بالكاد على أداء الفرائض وليستِ الفرائضُ على وجهها"[1].

إننا لنحتار –حقا- حيناً، إزاء هذا الإشكال وإزاء الكيفية التي سيتبعها النورسي لأجل

(١) انظر الكلمات- ذيل الكلمة السابعة والعشرون ٥٨١

الخروج من هذه الورطة السجالية التي يجد نفسه فيها، لكننا لا نلبث أن نراه يفاجئنا بالحل الذي لم نتوقعه....إذ يقرأ في هذا النص المرجِّح لإيمان الخلف أن ذلك يخص إيمان الأفراد والصفوة من الخلف لا الخلف عامة.. " ما ورد في الحديث الشريف بما معناه إن الذين لم يروني وآمنوا بي هم أفضل منكم[1]"..

وهكذا ترانا نقف على عقلية حصيفة تتسع لترى الانفساح في ما نرى نحن فيه المحدودية..

فالقول بأن التفضيل يخص الأفراد والفضائل الخاصة، يغدو تأويلا جد معقول، وتغدو أهمية هذا التخريج بالغة لكونها استطاعت أن تصون نص الحديث، وتثبته وتظهر جانب الانفساح فيه، فهي رؤية منطقية، سابرة، متعمقة، لم تفذلك لأجل أن تماري وتستكره النص على ما ليس منه، بل لقد سددت، فأصابت في تسديدها.

وبمثل هذا التحوط التمحيصي ظل النورسي يكفل الوجاهة لأفكاره، ويقرأ النصوص بكيفية رصينة تضفي عليها مزيدا من الحكمة والإنارة، إذ تجعلها تسدد نحو الوجاهة والموضوعية..

ونفس الأمر رأيناه يفعله حين تعرض لإشكالات وأحاديث تواترت وغاب وجه المعقولية فيها عن الناس في العصور المتأخرة، من ذلك إشكال تقاتل الصحابة في واقعة الفتنة الكبرى، ولاسيما من كان منهم مبشرا بالجنة، مثل علي ومعاوية..

بل ورأينا هذا في موقفه من المذهبيات مثل السنة والشيعة.. إذ ألفيناه يتجه الاتجاه المُقْنع في إبراز مناحي الكمال والتوفيق الذي مَيَّزَ اجتهادَ كلِّ طرفٍ..

إن هذه الاستنارة التي يذلل بها النورسي مظاهر التنافر والشقاق التي قامت بين فئات الأمة ومذاهبها، هي محصلة عقل فقهي مسؤول تحتاج الأمة إليه في كل أطوارها، لا سيما أطوار التصدع كالتي يعرفها المسلمون في عهود الصدام الراهن مع الذات، نتيجة تسرب قيم الآخر في محصناتنا الروحية والمعرفية.

لا ريب أن النورسي ظل يتحلى في طرحه للقضايا الفكرية والروحية بوجاهة رؤيوية جادة وحكيمة، بحيث تراه لا يفذلك في اصطناع الجواب ، ولا يتملص من مواجهة الإشكال مهما

(١) الكلمات- ذيل الكلمة السابعة والعشرون ٥٨١

تعقد، وإنما يبادر إلى الرد، وفي أكثر الأحيان تجده يضع تصاميم ومجسمات لإجاباته تلمس فيها سريعا الحكمة والفطنة..

إنه يحسن وضع التصورات والشواهد التمثيلية بحيث يتلقى قارئُه الإجابة على صورة تفسيرات حية، فالنورسي يحرص دائما أن يصاحب القارئ أو السائل على مدى عملية رده عليه، بل ما أكثر ما نجد النورسي يوسع في الردود ويغني من عناصر الإثبات بما يجعل القارئ لا يخرج فقط مقتنعاً، ولكن يخرج مشبعا بما أصاب في سياق الرد من معرفة إضافية تُوسِّع من رؤيته إلى الأمور وإلى الحياة..

من ذلك مثلا ما رأيناه قام به في سياق ترجيحه لمكانة الصحابة –كما مر بنا- حيث لم يكتفِ بتقرير الرأي المصيب، وإنما استطرد في تقوية ذلك الرأي بمزيد الأدلة من خلال ايراد مزيد التمثُّلات..

على أن الأهم ما في الأمر ليس وجاهةُ التمَثُّل فقط، وإنما براعة تأسيس هذا التمثُّل، فالتَّعَيُّن السجالي الذي يطرح به رأيَهُ وفكرتَهُ هو الذي يعكس ميزة التفوق الذهني والعقلي التي يتمتع بها النورسي، لقد اقتضى منه التدليل على علو منزلة الصحابة أن يتحدث عن الدنيا- باعتبارها محك الإيمان الصحيح- فتوقعنا أن يتمثل لها-على مألوف ما نختزنه لها في مواجدنا من كليشيهات، وجهين، وجها شريرا يودي بأهل الضلالة، ووجها خيِّراً يَسْعَدُ به أهل الإيمان، لكن النورسي تجاوز هذا المستوى من المرتسمات المعهودة، وجعل للدنيا ثلاثة وجوه، وجهان يتطلعان إلى الأسماء الحسنى والآخرة، وثالث يتطلع إلى شهوات الإنسان وهواه.. ومضى يقرر أنَّ الصحابة نظروا بالوجهين الأوليين إلى الباقي، أي الإيمان بالله واليوم الآخر، وأما الوجه الثالث (وجه الشهوات) فإنهم سدوا الباب بينهم وبينه.. هكذا يضع النورسي أمام المسلم رسمة توجيه مختزلة، وعملية، وأكثر غنى، وأكثر إعرابا عن فلسفته التمثلية القائمة على منطق حضور الخالق وقدسية أسمائه الحسنى وتدبيرها الكون، مبرزا بذلك للقراء معالم المرور إلى الطريق الأسلك والأسلم..

بل إننا نراه يغتنم السانحة التي يمنحها له الجواب على الإشكال، أي إشكال، فيتطرق إلى جملة من المسائل المتعلقة بذلك الإشكال، ليس عن مجانية وبطالة، ولكن تكميما لألسنة الضالة وتحصينا للعقيدة من الاستهدافات.

فهو حين يتصدى للرد على من يُروِّج لأفضلية الخلف على السلف تراه يصنف

المُرَوِّجين إلى طائفة تقول بأفضلية الخلف عن وازع تحفيزي يشجع أهل الجد والالتزام والتسامي لبلوغ الدرجة التي رشحهم لها نص الحديث حين جعلهم أفضل من السلف، وهنا نجد النورسي يقرر أن هذا الصنف القائل بهذا الرأي معذور في ما ذهب إليه من مقاصد إيجابية..

أما الصنف الآخر فالنورسي يراهم فئة المغرورين الذين يهدفون إلى إحلال أنفسهم محل السلف من حيث الأهلية في الاجتهاد والاعتبار لا عن إيمان وتنافس في العقيدة، ولكن عن تبييت ومكر..

وهنا يبين النورسي الخلفية التي يرتكز عليها الماكرون، والغاية التي يقصدون إليها، وهي أنهم يكيدون للإسلام على ذلك السبيل المموه، فهم -من ثمة- يجسدون نزعة انحلال وانسلاخ عن الدين، إذ يتلبسون بالحجة المغرضة قائلين: أن السلف اجتهدوا وربما كانوا يخطئون في ما يجتهدون فيه..

فهم بهذا يستنقصون من حظ الصحابة ويستهترون بالدين.

وتارة أخرى يقرأ النورسي مراميهم الخبيثة في ادعائهم ذاك، فيرى أنهم بهذا المنطق المخاتل، يُجَوِّزون لأنفسهم هم أيضا الاجتهاد لكن بقصد هدام، إذ حقيقتهم أنهم يتوخون من وراء ذلك أن يخرجوا من ربقة العقيدة لا أكثر، باختراق حرماتها والاعتداء على قدسيتها وتمييع صرامة الأحكام التي تصونها، كما أن من مراميهم السافرة إلغاء ما ترسخ للصحابة من إجلال في نفوس الخلف، فبتجريد جيل الصحابة من حرمتهم وامتيازهم الروحي ومن سابقتهم ورتبهم يكون هؤلاء الكائدون قد توصلوا إلى ضرب العقيدة، إذ من استراتيجيتهم أن يوعزوا للناس بفكرة الاستهانة بالسلف واسترخاص القيم التي يرمز إليها أولئك المبجلون..

هكذا يفضح النورسي مؤامرة الضالين، ويستخدم لذلك منطق الرد بالحجة والمكاشفة العقلانية، فيجعل الأعداء وجها لوجه مع الأمة، ويجردهم عن ذلك السبيل البرهاني من كل إمكانية لتضليل الأمة، إذ أن المؤامرة التي يباشرون تنفيذها تحت شعارات شتى وعناوين خالبة تتخفى وراء أوهام العزم على التطوير وإيجاد السعادة واستنقاذ المواطن من البؤس..

إنهم يُلمِّعون الخيانة من أجل الإيقاع بالشعب، والدافع لكل هذا الخداع والمكر هو الضلال المبين والغفلة البهيمية وإرادة الاستئثار والإبقاء على مكاسب سحتية..

وأكثر من ذلك إنهم يصرون على إدامة واقع ظهورهم الطبقي والفِئوي، هذا الظهور

الهجين المعول على التشبه بالآخر، واستنساخ قيمه الشكلية، والتعلق بذيله، والانجرار وراءه بروحية التابع الذليل الفاقد لهمة الانتفاض والانبعاث الأصيلين..

وهكذا نرى النورسي بعد هذه الجولة من التحليل الذي تعرض فيه لكشف مكائد أعداء العقيدة، يخلص إلى تأكيد سمو مكانة الصحابة ورفعة مقامهم ، فـ"أصغر صحابي جليل" لا يمكن أن يبلغ درجته حتى الكاملون من الناس وهم الأولياء الصالحون[1].

مع المسائل الميتافيزيقية

يجنح إلى إثارة القضايا الميتافيزيقية في صورة طرح جدلي باتباع طريقة السؤال والجواب، ذلك لأن عقله ديالكتيكي يتصور المسائل في شكلها الحيوي المتحرك..

إنه يرفض أن يتوسل إلى آرائه بالدغدغة الخطابية وبالتنويم البياني المرتكز على الشعرية وزخرفة القول.. إنه يمتنع عن أن يمرر أفكاره، لاسيما في المسائل الكبرى ذات البعد الروحي، من خلال التقريرية العارية.. ذلك لأن التقريرية توقع مسائل الإشكال تحت طائلة صمت سلبي لا يتاح للحقيقة معه أن تظهر بكل أبعادها وزواياها، لذا ترى النورسي يدأب على تجنب الطرح الجامد، حيث تأتي إفادات المتكلم مسطحة، غير مرتكزة على ما يعطيها السمة الصلبة.

نظرة النورسي مجهرية تصر دائما على اختراق الظواهر والغوص في الأغوار وتقليب الرأي ومعاينة العمق، تجلية لأكبر مساحة من الحق..

في حديثه مثلا عن الجنة نراه يتطرق إلى هذا الموضوع من خلال طرح خمس أسئلة، الجواب عليها يبلور صورة كلية هي ما يريد النورسي أن ينقله إلى المتلقي.. إنها مستويات يصادر بها مسألة غيبية يكتنفها الإبهام حتى من قبل المؤمنين، فكيف الحال مع من لا يُقرُّها، ويكذب بها!

فقد تصدى للرد على التساؤل التالي: إن أجزاء الكائن الحي في تركيب وتحلل دائمين، وأن الأكل والشرب لبقاء الشخص نفسه، و(إن)معاشرة الزوجة لبقاء النوع، فصارت هذه الأمور أساسية في هذا العالم، أما في العالم الأخروي فلا حاجة إليها، فلم اذَنْ درجت ضمن لذائذ الجنة العظيمة؟..

---

(١) انظر الكلمات- ذيل الكلمة السابعة والعشرين ٥٨٣

وواضح أن الصيغة التي طرح بها السؤال تتضمن إرادة الإيقاع بالدين.

منذ البدء ينفي النورسي علاقة المادة الجسمانية الدنيوية المتحللة (الفانية) بالجنة، فالإنسان لا يدخل الجنة ولا يطعم ملاذَّها بجسده البيولوجي، الجسد مصيره التراب. لأن الجسد الدنيوي غير الجسد الأخروي.. ومتع الجنة غير متع الدنيا، وأن تلك المتع ستصير "لذة جامعة لجميع اللذائذ، ونبعا فياضا للذائذ لائقة بالجنة وملائمة للأبدية [1]".

وعلاوة على هذا التمييز بين عالمي الدنيا والآخرة ومقتضياتهما، نجد النورسي وهو يقرر هذه الرؤية يعبئ خطابه بعدة تعبيرية تشعر القارئ بايعازيتها المُقَرِّعة للمكذبين..

فالخطاب من براعته-كما نرى- قد حمل تصورا قرَّب حياة (المابعد)، وواصف بعض أحوالها، ووجَّهَ في الآن ذاته وخزاتٍ لمن يجحدون الغيب ويكذبون بمواعيده.. ومفردات الطرح ذاتها، ودقة الرصد، ومستويات عرض الظواهر الغيبية موصولة بامتداداتها الشهودية، الدنيوية، هي ذاتها جزء من أسلوب الإقناع..

ولما كانت الجنة لذائذ وأطايب، نرى النورسي يتحدث عما زُوِّد به الإنسان من قابليات الاستذاقة.. لكن النورسي بدل أن يركز الحجة حول الذوق، نراه يتصدى لتفكيك غريزة الذوق ليبرر بذلك أنها شأن مركب، وأنها بذاتها من أنعم الله التي أكرم بها المخلوق الحي، وأن وظيفتها الحيوية الشمولية هي أكبر من أن يدركها الإنسان، إذ طبيعة اكتمال الخِلقة جعلت الإنسان يغفل التدبر في لوجيستيكات التحسس والتذوق التي لا تحصى والتي جهز بها الخالق عباده وسائر مخلوقاته وأصَّل وظائفها في فطرتهم، فنشأوا غير داركين لقيمتها في نفوسهم، وغير ملتفتين لمدى اتساع نطاق فاعليتها فيهم، فهم –غالبا-لا يقدرونها حق قدرها حتى يفقدوها أو يفقدوا بعضا منها.. وحاسة الذوق هي من أبرز ما جُهِّزَ به الإنسان من حواس، وهي مفتاحه في استطعام السعادة، ولذا نرى النورسي يتوقف في سياق حديثه عن نعم الجنة، عند الذوق، ليلفت الأنظار إلى أهميته وتعقده وحسامة دوره في حياة الفرد.

فالحجة هنا تستمد مرتكزاتها من فضاء الذات أو من الحقل الأنفسي باصطلاح النورسي.

إن الجنة مجالٌ غيبي، لذلك اقتضى الحديث عنها اصطناع مجالٍ غيبي آخر هو عالم النفس، إذ لا أحد يعي كنه (تكنولوجية) الذوق كما ابتكرها الإله وزود بها مخلوقاته، ومعرفتنا

(١) انظر الكلمات- ذيل الكلمة السابعة والعشرين ٥٨٧

بمقدِّرات النفس ناقصة، فنحن بهذا نجسد جزءا من عالم المجهولية، من عالم الغيب!

وهكذا يعرفنا النورسي أن الذوق في حقيقته الحيوية واحدٌ بالقوة الغريزية، لكنه جُموعٌ شتى بالفعل والواقع..

بهذا يضع النورسي قارئه في مواجهة حقائق يحملها في فطرته وفي جسمانيته لكنه يجهلها.

ويسترسل النورسي في استيعاب ماهية تلك القوى والتجهيزات الخِلقية، فيُعرِّفُنا أنها موازين تستصفي المادة الحسية وتستخلص منها حاجتها.

العين ميزان جسماني لأنها تزن مقادير الضوء التي تصلها، وتستخلص حاجتها التي تكفل لها الإبصار واستبانة الألوان والأشكال والأبعاد.. وكذا السمع هو ميزان يقَوِّمُ الحسَّ، وعلى قدر تيار الذبذبات التي تصله، يُقَدِّرُ القوةَ والنوع الصوتيين ويميزها، وهكذا باقي القوى الجسمانية الحاسة، "فالآلات التي لها القدرة على وزن جميع مدخرات خزائن الرحمة الإلهية وتقديرها إنما هي في الجسمانية، إذ لو لم تكن حاسة الذوق التي في اللسان مثلا حاوية على آلات لتذوق الرزق بعدد أنواع المطعومات كلها، لما كانت تحس بكل منها وتتعرف على الاختلاف فيما بينها، ولما كانت تستطيع أن تحس وتميز بعضها عن بعض"[1]..

ومن هذا الاستقراء (الأنفسي) الجزئي يعمم النورسي الحكم على جموع مقدرات الجسمانية ليستنتج القارئ -من ثمة، وبنفسه- حقائق أخرى في ذات الاتجاه، فيتبين سريعا أن حاسة السمع هي أيضا ذائقة مركبة، وأنها من الرهافة والكلية ما يجعلها تميز كافة الأصوات والهارمونيك، وتتَمَتَّع بشتى الطبوع على اختلاف أنواعها، وتنفر من المنغصات الحسية المزعجة (في موطن آخر نراه يعزو للحواس ومنها حاسة السمع معدة للتذوق، وهو في هذا العزو وفيٌّ لروحيته الإدهاشية).

هكذا يخرج بنا النورسي من حقل الحديث عن قضية غيبية (الجنة وطعومها) إلى قضية موصولة بالغيب هي أيضا، لكنها من صميم عالم الشهود، رغم أنها لا تكاد تدرك إلا من قبل ذوي الاهتمام العلمي.

لا شك أن هذا الاستطراد التوضيحي النوعي يوسع من حدود المعرفة، لاسيما وأنه يوطد

---

(١) الكلمات- الكلمة الثامنة والعشرون ٥٨٥

مساحة الاحتجاج ، فلكأن القارئ يتقلب على فراش مخملي، حيثما تحوَّلَ لقِيَ الارتياح.

الاجتهاد

من خلال مناقشته لمسألة الاجتهاد يرصد النورسي صورة الواقع في عصره، هذا الواقع الذي كان مقدمة لما انتهت إليه أوضاع الأمة اليوم من تفجُّر عارمٍ ويقظة واعدة، فلقد سجَّل حالة التردي الروحي والخلقي التي استشرت، وما آل إليه الوضع من تلبُّس القيم الخيرية بالقيم النفاقية، ذلك لأن الإلحاد وشيوع مقالة (موت الله) التي روجت لها قوى الشر في الغرب، شجعت على التحلل وانتهاك المقدسات، الأمر الذي سبب ضياع المعالم الأخلاقية التي ظلت تجمع الإنسانية على مفاهيم كلية ومراجع روحية تضبط الحياة والمعاملات والرؤى..

لم يعد مفهوم الخير هو هو، بل أضحت قيم الخسة والمكر والتسفل فضائل تَتَمَجَّدُ.

لقد أعلن نيتشة -إمام الحداثيين- عن وضعانية أخلاقية كان يستشف سريانها الوبيل في سلوك الناس، وراح يؤكد أن قيم الفضيلة ما هي إلا وقائيات وهمية من صنع القوى الاجتماعية المتطاحنة على فرص التمَلُّك والسيادة، فالفرد الضعيف يتعزى بوهم الثأر الأخروي، والقوي يتمترس وراء لفتات الإحسان التسكيني ودعاوى قدرية الحظوظ[1]..

هكذا تطبعت أوساط الإلحاد على الفساد ومضت دوائر الفكر الوضعاني تبرر فلسفة الرذيلة والتصالح مع قيم الشر، فكان الناتج أن تلبَّسَ الصدق بالكذب كما يقول النورسي.. وكل ذلك نجم من صدد الغرب الذي تقمص روح الشيطان، واستغل ما توفر له من قوة مادية، سخرها لإحلال روحيته المتعجرفة محل التنفيذ، فاستعمر الأرض، واستعبد الأمم، ومَوَّهَ عن جرائمه، واستطاب دماء العالمين..

ضمن هذه الظروف المشؤومة والشرور المستطيرة، كانت الأخلاق الأصلية في مجتمعاتنا الشرقية تتقهقر أمام عدوى التعصرن وأخلاق الحداثة، وكان عرابو الفساد والتغرُّب في البلاد الإسلامية -ومنها تركيا- يستميتون في استزراع الأرض بالشوك، ولأجل ذلك راحوا يدْعون إلى تفعيل الاجتهاد، ومقاصدهم -كما أسلفنا- هي تقويض حصون العقيدة، وصولا إلى الحال التي تيسر على المتفسخين أن يتطابقوا شكلا -لا جوهرا- مع مدنية الإلحاد، وأن يقاسموها ليس جوانب القوة لديها، فذاك مبتغى خارج عن نطاق مطامح المفسدين، إنما

(١) يراجع نيتشة. جيولوجية الأخلاق.(يراجع العنوان)

ديدنهم التخلق بخلق الميوعة والاستهتار والانتهاء إلى صعيد التهتك والإباحة البهيمية، وكان على الصالحين، وفي طليعتهم النورسي، أن يتصدوا للشر، فيدكوا جحافله بآخر ما امتلكوا من أسباب القوة والمدافعة: القرآن والتسديد الفكري الحاسم، لذا رأينا النورسي يتناول قضايا شرعية مركزية كان الحسم فيها يشكل استراتيجية التحصن والامتناع التي كان لابد منها لإيقاف زحف المرتدين.

لقد رأيناه يؤكد مبدأ انفتاح باب الاجتهاد، لكننا رأيناه في الآن نفسه يستدرك فيلفت الأنظار إلى الإشكالات التي تعيق فتح هذا الباب، معبرا بذلك عن موقف تحفظ من الاجتهاد.

وحتى يرسم الإطار الملائم لممارسة الاجتهاد، رأيناه يبادر إلى ترصُّد الموانع الماثلة في ثقافة العصر المادي يومئذ، وهنا كان عليه أن يبحث مسألة الاجتهاد بعين الاجتماعي والأخلاقي والانتروبولوجي زيادة عن روح الفقيه، ليؤسس لموقف التحفظ الذي يقفه من تلك المسألة الشرعية، ذلك لأنه كان يرى أن الاجتهاد ليس مجرد آلية قياس شرعي تصنف المباحات بإزاء المحظورات كما جرت العهدة في ما سلف من عصور الإسلام، بل لقد كان يدرك أن دعوة المتلبسين إلى الاجتهاد إنما كان الهدف منها تسويغ الكبائر والآثام التي كانت مدنية البغاء تسَوِّقها للعالمين، وكان التكتيك المتبع من قِبَلِهم هو مغافلة الأمة وضرب الدين بسلاح الدين.. لذلك حرص النورسي على أن يخص قضية الاجتهاد برسالة مستقلة قوامها تأصيلات وتفريعات وافية أحاط من خلالها بالإشكال من شتى جوانبه.

إن النورسي-بحكم تخصصه في معالجة المسائل الاستراتيجية كمسألة الاجتهاد- لم يكن كاتب مقالات أثرُها يومي، عابرٌ، بل كان كاتب رسائل، والرسالة هي فحوى جاد، مطبوع بالشمولية والتوثيق، فالرسالة في المصطلح النوري تحيل إلى المفهوم التراثي (أطروحة، كتاب، بحث فكري..) كما تعني أيضا مقالةً صحفية وبريدا حميما، يقرؤه المهتم، ويتلقى منه عصارة الأخبار التي تهمه..

ويمكن اختزال الحجج المانعة للاجتهاد كما استخلصناها من طرح النورسي[1]، في

(١) يقر النورسي الفرضية ثم يبادر إلى بيان مسوغاتها ومحايثاتها، إقرارا أو منعا.. فهو هنا يصادر مسألة (تعطيل الاجتهاد) بالظروف التاريخية المانعة لفتح بابه، ويحصي ستة موانع يبسطها أمام القارئ تدليلا على وجاهة رؤيته.. فالمانع الأول-منها حسْبُه- طموح الشر، فلا يجدر بالأمة وسط العواصف إلا الصمود والتماسك. المانع الثاني يتبرر بكون الضروري من الأحكام أهمل في واقعنا، رغم التصاقه بالحياة والمجتمع، ومن الأولوية أن يعاد بعثه وتفعيله.. المانع الثالث: يعود إلى فاعل الاجتهاد نفسه، فالمجتهد في عصر السلف

النقاط التالية:

المانع الأول هو أن فتح الباب الاجتهادي في زمن هجوم العادات الأجنبية واستيلائها على طبائع الناس وكثرة البدع واقتحامها لحياة المسلمين يضر بالأمة، ولذا كان الرأي المصيب يقتضي سد الباب والتأهب لرد المتسللين.

الثاني: لنا في ما تأثَّل لسلفنا من مجاميع الأحكام والتراثات التقعيدية مندوحة عن استبداع غيرها، لا سيما وأن المرحلة عاصفة، تحتم على الأمة التمسك بالأصول والتماسك في ما بينها، فالأحكام القارة تغدو ثوابت، أما المستجد وإن كان اجتهادا، فإن جو التفجر القيمي يحمل الجماعات على الاختلاف فيه، بين آخذ به ومعارض له، وذلك ما يقسم الصف ويُهوِّن من عزيمة الثبات .

الثالث: الاجتهاد يتأثر بأوضاع راهنه وبثقافة حاضره، ولما كانت ثقافة العصر قد جعلت السياسة في الصدارة، ولما كانت السياسة هي فن المراوغة والتدبير بلا ضوابط، وبكل الوسائل حتى الحرام منها، كان انعكاس ذلك على الضمير الاجتهادي سلبيا، إذ يتحتم على المجتهد أن يأخذ بمنهج السياسة فيقع من ثمة في المراوغة والنفاق وتغليب الغرض المصلحي الدنيوي على المُثل والمبادئ الشرعية (السياسة تقر مبدأ الحريات الفردية، ومنها حرية التدين بالعقيدة التي أشاء، والاحتراف بما أشاء، فبيع الخمر وفتح أوكار التفحش والبغاء والقمار تغدو من ثمة أعمالا يحميها القانون المدني.. في حين أنها محرمة شرعا، من هنا يتم ضرب الإسلام).

بل إن تحكم قيم الحضارة الغربية وفلسفتها المادية في واقعنا وفي عقلية ساستنا، يدفع في اتجاه بروز الصفوة المتغربة والهيئات المنحلة والمرجعيات المخترقة.. فالحاكم اللائكي لا يتيح إلا للزمر التي تشايعه في فكره بالظهور وتولي المناصب، لأنه يتخذهم ألسنة تدافع عليه وأيدي تدفع عنه.. وكم هي كثيرة مكائد حكام السوء، ممن يحترفون النفاق المكشوف، فهم عينات شوهاء مجسمة لفكر الرذيلة والتغريب، لكنهم يتجلببون بجلباب الدين، يساعدهم

كانت تهيئه البيئة والأوضاع الموصولة عضويا وعمليا بالشرع، فكانت مجريات الحياة بذلك الالتزام الروحي الذي تدار فيه، هي ذاتها عاملا يعضِّد في الأفراد الاستعدادَ وقابلية فقه الحياة من خلال النظرة السليمة المتساوقة مع روح العقيدة، فكان المجتهد –بكل ذلك– على أهبة لأن يمارس الاجتهاد بجدارة، لأنه يتحرك في ثقافة شرعية حية، فإذا ما باشر النظر في واقعة ما أمكنه أن يحكم فيها بكامل التسديد .

الغرب على ذلك، لأجل محاصرة الدين ومحاربته بذلك النهج الشيطاني المبين.

الرابع: إن الاجتهاد الذي تدعو إليه طوائف تستحِبُّ الحياة الدنيا بمعناها المسترذل، المنغمس، وتنظر إلى الأشياء والقيم بنظرة الإلحاد، إنما هو في حقيقته تخريب للإسلام، وحرب على الهوية، وإجهاز لئيم على الكينونة المحمدية.

المانع الخامس يقوم على اعتبارات ثلاث، هي(ا) إن الشرع يبرر الرخصة بالعلة الشرعية لا بالمصلحة وحدها. فرخصة تقصير الصلاة في السفر هي السفر وليس المشقة، إذ على المصلي غير المسافر أن يتمم الصلاة حتى ولو كان هناك مشقة. والاجتهاد الدنيوي يجعل المصلحة هي علة الرخصة (ب) إن الاجتهاد عند السلف كان يرجح المقاصد الأخروية، بينما مرامي الاجتهاد المعصرن ترجح المطلب الدنيوي. (ج) المحظورات إذا كانت من سوء اختيار الفرد أو المجتمع وليس رغما عن إرادته، هي غير مباحة، بل حرام. والاجتهاد المعصرن يبرر التلبس بالآفات والبدع المستجلبة بكونها باتت ضرورات لا يمكن أن ينفك عنها المجتمع.. (هنا نرى النورسي يستطرد ويتناول مسألة تتريك الخطبة، فيرى أن الدعاة إلى ذلك يُقَنِّعون مطلبهم بشعار الضرورات تبيح المحظورات، ويرد عليهم حجتهم بأن دعوتهم اختيارا، بدليل أن الأمة لبثت القرون تتلقى خطبتها معربة، إلا أن أصحاب الغرض التخريبي يرفعون شعار الضرورة، وذلك لأجل القضاء على الأصل: الإسلام، وليس فقط على الفرع: خطبة الجمعة. فالنورسي يمضي هكذا -وفي جولة واحدة- من إشكال إلى إشكال بكامل السلاسة لأنه شمولي التصور، ولأنه يريد أن يقضي على أكثر من فتنة بضربة واحدة.

السادس: إن الاجتهاد في عصر السلف كان متاحا لأن السلف كانوا أقرب إلى مصدر النور المحمدي، فكان ذلك يرشدهم ويسدد خطاهم، أما المجتهد في عصر التغريب فإنه ينظر إلى الحقيقة من مسافة بعيدة جدا، ومن وراء كثير جدا من الأستار والحجب حتى ليصعب عليه رؤية أوضح حرف فيه"[1].

ولو تابعنا أبعاد هذه الرؤية النورية حول الاجتهاد وأردنا فهم بواعثها ومراميها، وهل هي رؤية تعطيلية تهدف إلى إيقاف حركة التطور الذي هو سنة الحياة، أم أنها خطة تريد أن تفوت الفرصة على أعداء الدين، فلا تسعفهم من الاستيلاء على تلك الآلية العقلية الاستصحابية التي

(١) انظر الكلمات- الكلمة السابعة والعشرون ٥٦٧

ظلت تكيف التحولات وفق منظور الدين، أم أن النورسي كان سلفيا أصوليا لا يؤمن بالتطور أصلا؟

أليست رجوعيته إلى القرآن بعد أن خاض في ميادين السياسة والنشاط النقابي والمقاومة الملّية، وعرف حياة العواصم، وعاين المستجدات المدنية عن كثب، قبل أن يعلن نفوره من كل ذلك وينسحب إلى حياة النسك والتبتل.. ألا يعني ذلك أنه رافض للتطور، فلذلك هو يمنع الاجتهاد؟

لا ريب أن رسالة الاجتهاد التي كتبها قد أجابت عن هذه الأسئلة، وحددت موقف النورسي من التطور، فالنورسي يرى أن التطور يحدث للكيانات من الداخل كما يحدث لها من الخارج، وأنه على الرغم من ذلك فإن كُلاًّ من التطورين يخالف الثاني من حيث الطبيعة والأصلية، فمتى كان التطور من الداخل فهو نمو طبيعي وترعرع أصيل، ومتى كان خارجيا، فهو مجرد تورُّمٌ يحمل الضرر ويرهص للهلاك.." إن ميل الجسم إلى التوسع لأجل النمو إن كان داخليا فهو دليل التكامل، بينما إن كان من الخارج فهو سبب تمزق الغلاف والجلد، أي إنه سبب الهدم والتخريب لا النمو والتوسع"[1]. وشتان بين الشحم والورم.

واضح أن النورسي يُحَكِّم في مسألة التطور المجتمعي والتطور الشرعي معا مقياس الأصلية والأصالة، فيجعل التوسع فيهما بالدافع الذاتي (الداخلي) دليل كمال، وأمرا سائغا، أما إذا كان التطور حصل بالوازع الخارجي (الانسلاخي) فهو محض تخريب للوجود الإسلامي"[2].

واضح أن النورسي يُقوِّم الضرورة الاجتهادية بالمنظار الفقهي، إذ لكل علة حكمُها والحكمُ منوط بها.. فرخصة التقصير منوطة بالسفر لا بالمشقة، إذ المقيم لا يقصر ولو كانت له ظروف شاقة (عامل منجم أو نحوه). لكن الاجتهاد المغرض يعمم الأحكام ويقايس بلا أدنى تحوط، إذ منزعه التبسيط المخل، والتمييع المحرِّف للقاعدة، والسير في طريق التحلل.

لقد صادر منْشَط (الاجتهاد) في ضوء الخلفية الشرعية، خلفية الإيمان بالآخرة..من هنا كان الحكم الاجتهادي يشترط استحضار الوازع الأخروي في كل واقعة اجتهادية حتى لا تطغى المنفعة الدنيوية في الحكم ويقع الانحراف. إن القصد الشرعي منوطٌ بالآخرة في درجة

(١) الكلمات- الكلمة السابعة والعشرون ٥٦٤

(٢) انظر الكلمات- الكلمة السابعة والعشرون ٥٦٥.

أولى ثم بالدنيا في درجة تالية، لكن فلسفة العصر المادية تعكس المعادلة فتنيط المقاصد الاجتهادية بالآجل الدنيوي وتلغي من الحساب تماما الآجل الأخروي.

ثم أن منطق الضرورات يبيح المحظورات لا يطرد في رؤية النورسي إلا حين تغدو الحاجة بعيدة عن دائرة سوء الاختيار التي يقع فيها الإنسان والمجتمع في مجال الرغبات والمعاملات الحرام.. إذ ينبغي أن تَبْرَأَ قاعدة الضرورة من أي وازع استهتاري أو هوى مروقي، وإلا فإنها ستكون حتما قاعدة ترجِّح المنطق الدنيوي على المنطق الشرعي، وتسير في طريق هجر الدين وترك الشريعة.

في ضوء هذه النظرة اليقِظة ينتهي النورسي إلى الإفتاء بوجوب وقف العمل بمبدإ الاجتهاد، سدا للذرائع، معترضا بذلك على سياسةٍ كان الطورانيون قد رسموها لشل الدين، وقد تفطن النورسي إلى مقاصدهم، حيث كانت سياسة تدميرية تستهدف العقيدة تحت شعار التجديد والاجتهاد، فلقد ألغوا الآذان بالعربية، بعد أن غيروا من الزي الأهلي، وفرنجوه، بل وألغوا كذلك خطبة الجمعة بالعربية بدعوى عدم فهمها من قبل الجمهور، والحقيقة أن الغرض من وراء ذلك، هو محاصرة العقيدة وتحجيمها على الأصعدة كافة، تهيئا للنفوس كي تتخلى عنها، تمهيدا لطي صفحتها.

هكذا تتجلى المرامي الاعتراضية التي هدف إليها النورسي من خلال هذا الموقف البصير الذي وقفه حين أوقف العمل بالاجتهاد مرحليا، إذ لم يكن حاديه كبح حركة التطور، إنما أراد لهذا التطور أن يكون نابعا من أصالة الأمة، لا مستجلبا في صورة قشريات لا تفضي إلا إلى الصفاقة وتطبيع الناس على أخلاق الوقاحة والقحة وما شاكلهما لفظا ومعنى.

لقد كشف في رده على قرار إلغاء الخطبة الشرعية العربية عن وعي بأهمية الدين في لحم الأمة، والتقريب بين مواجدها، حتى ولو اختلفت ألسنتها، لأن الخطبة الشرعية مُنَبِّهٌ أسبوعي وموسمي يوقظ في الضمائر حس الملّية، ويحرك أواصر الأخوة في الشعوب على تباعد أوطانها.

أنه كان يريد للجمهور (العجمي) أن يبقى على صلة بالأمة من خلال الخطاب العربي الشرعي ولو في صورة رمزية محدودة. فإذا كانت الصروف قد مزقت الصلات بين شعوب الأمة الواحدة، فلا أقل من أن تُتْرَك لها صلةُ الدين كواصل روحي يجمعها على البعاد، فخطبة العربية والدرس الوعظي يسهمان في تقريب الشقة وتكييف المسلم مع لسان كتابه المبين،

حتى ولو قدِّم الخطاب معربا ومترجما باللسان المحلي.

الاستقرائية

نجده يعلل كل استنباط ويبرز مسوغاته الشرعية والعقلية واقتضاءاته العقدية.. وعلى الرغم من العقلانية التي يتسم بها تفكيره إلا أن منطق الشريعة ظل يمثل محك التحسين والتقبيح في رؤيته..إذ الشريعة قانون إلهي، لا تستوجب إلا ما رآه رب العالمين خيرا للعباد، بل لقد رأيناه يستقرئ في بعض أحكام الأئمة دوافع مدنية استندوا إليها في وضع الحكم الفقهي. من ذلك مثلا ما قرأه في فتوى أبي حنيفة المرخصة لصحة الصلاة بقدر معلوم من النجاسة، عكس ما أفتى به الشافعي الذي لا يجوز ذلك.. وحين حلل النورسي دواعي هذا الاختلاف، تبين له أن شرط التمصُّر كان وراء تجويز أبي حنيفة، إذ إنسان المدِينة يتعذر عليه أن يتوفر دائما على شروط نزع النجاسة. فبحكم اختلاط الناس في فضاء المدينة تعز إمكانية الخلوة للتطهر، كما هو حال أهل الريف أو البادية. (تراجع المسألة ويساق النص).

وكذلك رأينا النورسي إزاء مسألة الاجتهاد يعتدُّ بالشرط المجتمعي في سَكِّ القاعدة الشرعية، فهو حين أفتى بوقف العمل بالاجتهاد عهدئذ، إنما كان يعتبر بما آلت إليه القيم والأخلاق في بيئته التي اجتاحتها قيم التحلل المستجلبة من بيئات الغرب، وهو ما كشف له عن حال من الهجنة الأخلاقية في ثقافة العصرنة. ثم أنه تبين في لعبة السياسة مناخا تثقيفيا يجرجر الإنسان نحو ثقافة التهتك، لأن السياسة لعبة، الجد فيها يرتكز على المخادعة والمزايدة على الخصم بلا وازع، والغاية هي الكرسي، فلعبة الديمقراطية القشورية هي نشاط تنافسي دنيوي لا يقوم إلا على الحساب المنفعي والطوائفي..والمسلمون مضطرون لخوض السياسة وبقدر كريم من القسطاسية، فما لا يدرك كله لا يُترك بعضه.

ومن البيّن أن غيرة النورسي على الشرع وحُرمتِه تظهر جلية في روح الاندفاع التي نراه يتصدى بها للاختراقات والاعتداءات التي كان الأعداء يستهدفون بها الشريعة.

هناك حميةٌ تشي بها نصوصه تظهر أحيانا في هذه الوثبة التي يَثِبُها على الموضوع، وهذه الإجهازة التي يبادر بها إلى الرد، بل يهيئ لنا أحيانا أن التحوط كان يبلغ به حدا يجعله يصطنع الإشكالات والفرضيات السجالية من أجل أن يهيئ من الفتاوى ما يسد به الذرائع، من هنا رأيناه لا يتردد في طَرْقِ الصعيد الذي يتيح له أن يخوض في ما لا يخوض فيه غيره..

والحقيقة أن وازع سد الذرائع هو دافعه إلى كثير مما ظل يطرح من قضايا ومسائل وإشكالات، ذلك لأن فقه الأولويات كان هو منهجه ومضمار عمله.

إن النورسي المتميز بالأناة والريث في ما يكتب، يغدو أحيانا وأمام إشكالات معينة، أسرع من البرق في مباشرة الموضوع كما رأيناه يفعل مثلا حين تناول إشكال الاجتهاد، إذ الفورية التي شرع بها في الرد أوعزت لنا بأن هناك نِيَةً أحادية في الرؤية سيسفر عنها الطرح النوري.. إذ بدأ النورسي رسالة الاجتهاد، بأن أورد الآية التالية ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾(النساء: ٨٣)، ثم باشر الطرح رأسا هكذا:

"إن باب الاجتهاد مفتوح، إلا أن هناك ستة موانع في هذا الزمان تحول دون الدخول فيه"[١].

فالموضوع كما نرى يفتقد للتمهيد والتوطئة، لكأنَّنا –على نحو أو آخر –أمام نص سورة براءة[٢]، إذ براءة فلتَتْ وراء موضوعها بشكل عجائبي غير معهود في القرآن، لا بِدْعَ فهي بيان حربي، كلماتُه الأولى تعلن استنفاريتها بلا مراء.

ثم رأينا النورسي يدلف إلى الإجابة من خلال عَرْضِ الموانع وتعدادها واحدا واحدا، مع مناقشتها جزئية جزئية، فإذا الوهم الأحادي يزايل القارئ، وإذا هو يدرك أن فورة الحسم هي التي كانت وراء ذلك البدار السجالي النوري، وليس النية في التمويه أو الرغبة في التحيز ضد الموضوعية..

علماً أن المنهجية النورية لبثت دائما وفية لروحها، ولبثت تستدرك وتستوفي وتتوج، كما واظبت على الالتزام بالتخطيط والتفريع.. فرسالة (الاجتهاد) تماهت هي أيضا في تصميم هندسي قائم على تعدد المستويات، لذا جاءت مجسدة في شكل من التقسيم، تقسيم الموانع وتعدادها، إذ أن شكل الطرح هو جزء من استراتيجية الإقناع التي يتَّبعها النورسي، فمنهجية تقديم المسألة هو جزء من تصور الحكم لها، وموضوع الاجتهاد قضية شرعية فكرية، أسلوب العقل وحده يلائمها، إذ هدفُ المتلقي هو أن يجد ما يقنع عقله في المسألة، لذا صدع النورسي بالقول الحاسم وخاض فيها بانفعالية جلية ما برحت أن تقشَّعتْ عن حال من الصحو العقلي، ومن اتساق الطرح.

---

(١) الكلمات- الكلمة السابعة والعشرون ٥٦٢

(٢) السورة

--

يعترف النورسي أن علماء الحس التجريبي تفوقوا في مجالهم على نظرائهم من أهل العلم الحقيقي أي أهل العلوم الإلهية والمعارف الأخروية[1] من حيث معرفة خواص الموجودات وتفاصيلها وأوصافها الدقيقة، لكنهم تخلفوا عنهم كثيرا في أبسط مجال في العلم الحقيقي (الديني والأخروي)"[2].

ويقر في المقابل أن الحقل الغيبي، موازنه غير موازين المادة الغليظة، وأن عالم الملكوت الماورائي لن تستطيع بحال من الأحوال أن تتمثله عقول ضغطتها "الغفلة المنومة وفكر الفلسفة المادية" وأن معايير المادة وذهنية الغفلة "لا يمكن أن يكونا -قطعا- محكا للحقائق النبوية"[3]

إنه هنا يخاطب عقلية العنيدين ممن أقصروا صفة العقل والعقلانية على أنفسهم، وخصوا بها فكرهم الداروينى والماركسي والفرويدي وهلمَّ جرا من بقية أصناف التفكير الفاجر.

إن مساجلته هذه تندرج ضمن نطاق المنافحة وخِطة إعادة الاعتبار للعلوم الروحية ولثقافة الإيمان، وهي خطة اتبعها بعنادٍ جَشَّمَهُ كثيرا من التحديات، بالنظر إلى الانحدار المفاجئ والكاسح الذي تردت فيه علوم الشرع وروحية العقائد الموحدة بإزاء مناهج الكفر وفلسفات التزندق.

فالنورسي الذي يجد نفسه أمام تيارات غاشمة تتشامخ بعقيدة نفي وجود الرب، وتستسخف بالرسل والأنبياء، بعد أن ساغ لها أن تنصِّب رسلا وأنبياء ماديي المعتقد (ماركس، ومن شاكله من الدنيويين)، إن النورسي مقابل هذه التيارات يُصِرُّ على أن يضع نفسه في صف علماء الشرع، السالكين لطريق النبوة.. إنه يعترض طريق القوى الجحودية من حيث المستوى الرؤيوي الذي رآهم يستهترون به.. فبما أنهم يكفرون بالرسل ويعتبرون الكتب السماوية انجازات وضعية تعبِّر عن أفكار أصحابها وتتوارى باسم الرب، فلا مناص للنورسي من أن يعلن عن عقيدته التي تؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا..عقيدته التي ترى أن العلم الحقيقي هو علم الآخرة، وأما علوم النظر والتجريب فهي علوم متاحة لكل من استقرأ قوانين

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠١

(٢)انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠١

(٣) انظر لكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠١

الكون، فهي علوم قائمة على نظريات نسبية ونتائج غير ثابتة، فالجديد منها قد ينفي القديم أو قد يقلص من درجة شموليته..

بل لا مندوحة للنورسي من أن يصفهم بحقيقتهم السطحية، ويبين اغترارهم بالقشور، وتوهمهم في أن ما يروجون له من علم وضعاني هو الغاية، وأن علم غيرهم من أهل الحقيقة هو الباطل، سنراه يهزأ ويسخر من نفسه على اعتقادها في علوم وضعية مقابل علوم الروح، إذ أن الاشتغال بعدد من المعارف الوضعية (كتعلم عدد الدجاج في أمريكا، أو نوع الحلقات حول زحل) وترك الواجبات الشرعية، هو هدر للوقت وضرب من سفاهة الإنسان المعاصر الذي وثق في كل أمر وضعي، وزهد في كل شأن روحي..

لقد كان عليه أن يواجههم بالقول الذي لا يحتملونه، وأن يؤكد رجحان وديمومة النظر الإيماني مقابل مرجوحية وتهافت النظر الوضعي الذي ألَّه سلطان الحس وقطع صلاته بمن أمد الإنسان بالحس " إن نظر النبوة والتوحيد والإيمان يرى الحقائق في نور الألوهية والآخرة ووحدة الكون لأنه متوجه إليها، أما العلم التجريبي والفلسفة الحديثة فإنه يرى الأمور من زاوية الأسباب المادية الكثيرة والطبيعة لأنه متوجه إليها"[1]..

ضمن هذه الرؤية لبث النورسي يقزم أهل الاغترار الحسي، معليا مرتبة علماء الشرع، إيمانا منه أن الأمم إذا ما خسرت دعائم روحيتها فستتعرض للزوال ولكل الانتهاكات، وتفقد العزة والاستحقاقات الوجودية، عكسها إذا ما حافظت على روحيتها، حتى ولو عدمت الأسباب المعرفية والعلمية المساعدة على النهوض المادي، ذلك لأن أمْرَ تلك العلوم والأسباب متداركٌ، تستطيع الأمم أن تكتسبه في مرحلة أو أخرى، مع جيل أو آخر، وتستطيع من ثمة أن تستأنف المسيرة وتلحق بالركب، أما إذا هي انتهكت في كرامتها، وتخلت عن مقوماتها الروحية والشرعية، فإنها ستسير حتما في طريق الفناء، ولن يطول بها الوضع حتى تلقى حتفها المعنوي والمادي.

النورسي يعرض بضاعته بين تجار البازار

طفق النورسي ينبِّه إلى الجوانب الغائبة من حاجات الإنسان، فليس الظمأ إلى الماديات والرفاهيات هي حاجة الإنسان القصوى، إنما هناك مطالب معنوية لا تروى إلا بالاستجابة

(١) الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠١

لنزوعات الميتافيزيقا فيه.. ولو أن الإنسان أُعْطِيَ مُلْكَ الدنيا فلن يبرئه ذلك من عطش الحاجة إلى الحظوظ" حيث هناك قسم من لطائف غير منكشفة [1]" لا تبرح تلح على الإنسان أن يشبعها، هي منازع الغيب الكامنة في وجدانه، فالنورسي تلميذ نجيب للقرآن حيث انطبع بطابعه في مجال الاستنارة المعنوية، إذ القرآن" كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض"[2] فمن هنا كان القرآن قدوته وإمامه، ليس فقط في مجال المسلك والعبادة، ولكن، وبصورة أخص، في مجال الإظهار والإشهار والتعامل،

لقد كان على النورسي الذي ابتكر مادة الرسائل أن يتولى عرضها وتسويقها إلى الناس.

هناك مهمة إعلامية، إشهارية، نهض بها النورسي من خلال الترويج لمدونة الرسائل، اصطنعها وسط سوق احترافية راسخة، حيث يقوم التسويق على خطة تنويع البوليستارات الفخمة وتفخيم اللوحات الجدارية واليافطات والعرائض المنشورة عبر أرجاء البازار..

هنالك جلس النورسي وانزوى في ركن من سوق احتل مركزه أرباب الدعاية بمهاراتهم الفاتنة وعروضهم الجاذبة، مسخرين وسائل الإغراء جميعا، يبيعون بالتقسيط وبالدين والتنزيلات.. وموزعين عينيات التعريف على البسطاء، مهونين من شأن السعر، فالعامة لا تعرف الحساب، والأوكد هو توريطها واستدراجها إلى الاستاندينغ ليتم سلخها.. في تلك الأجواء جلس النورسي على الأرض، وشرع يعترض الناس بعينين فيهما التسبيح.. لقد أغلى البضاعة وخفض السعر، لقد فتح خُرْجَهُ، وعرض أكياسه وعقاقيره العشبية، وراح ينادي بصوت يثير الحيرة من نبرة التصميم ومن العناد وروح المنافسة التي بدا عليها.

لم يكن يُرى مُنْكَبّاً على تلك الأكياس المنشورة فوق الأرض إلا أفراد من الناس وبعض العامة المهلهلي الحال وأخلاطٌ أخرى يستوقف بعضها بعضا، فتنحني تلمس البضاعة دون كلمة ولا مراعاة، فطبيعة أولئك الرواد خشنة بتأثير وسطهم الاجتماعي البور، وكان النورسي يتبسم حين يرى أحدهم يختلب من البضاعة ويزن ويَصُرُّ المادة ويترك الثمن على ركبته ويمضي منتشيا كمن عثر على حاجته.. وكان أيضا يبتسم حين يرى آخر يلقي ما رفعه بين أصابعه من مسحوق، ويولي كالعازف عما يرى أو الزاهد فيه..

ومع تقدم الوقت وكرور الساعات، تراسَّت جموعٌ من حول الخُرْج، وانغمر صاحب

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثامنة والعشرون ٥٩٠

(٢) المثنوي العربي النوري٦٩-٧٠

الخرج بينها، لا تفارقه البسمة، وكانت الأيدي تتدافع على الميزان، كل يريد أن يأخذ ويزيد، كل يتذكر أخا أو قريبا أو جارا، فيعزم على أن يأخذ له هو أيضا، واثقا من أنه سيدخل عليه السرور وينال منه الامتنان.

عصفور بارلا

بلغ النورسي درجة من الخلوص اليقيني بحيث ألفيناه يماثل بين نفسه وبين طيور بارلا ونحلها وعصافيرها، بل إنه هو بالذات عصفور بارلا "بساتين بارلا لأصحابها، لكن عصفور بارلا ونحلها وطيرها يقول وحق له القول، هذه البساتين لي، فهي منتزهاتي ومضمار جولاتي"[1].. إن الإنسان الحق " هو الذي يرى في الكون ومرافقه وكمالاته وكنوزه ثروةً شخصية له"[2]..

إن النورسي هنا-وفي ضوء التجربة العروجية التي كان يحياها في معتكفه- يوسع من قيمة الفرد، بل من سمو الإنسان ومن مقامه حين يتمكن هذا لإنسان من أن يترفع إلى مستوى آدميته المكرمة[3] بحيث تغدو إنسانيته بفضل خاصية التجرد أوسع نظرة وأعمق بصيرة وأقوى رابطة بالكون وخالق الكون، إذ يضحى الإنسان بزكاوة الامتنان يرى في انفساحات الكون وثرواته ملكية خاصة وقفها الله عليه ووهبها له، وبهذه الزكاوة تنصقل النفس بمصقال الرضى، إذ تتشبع بحال من مشاعر الغنى، تزايلها معها سَوْرَةُ المطامع والمطامح، حال من أحوال أهل الجنة حين يغدق عليهم ربهم من أفضاله ما يقوي فيهم وازع الاكتفاء، لأن التيقن لديهم راسخ من أن حاجتهم تتلبى بمجرد عقد النية، وأن المُسْعدات والمُبهجات مهما كانت، هي دانية القطوف منهم.

بهذا الاحساس تقريبا تنطبع نفس المؤمن حين يستوطنها الرضى المعنوي، فكأنها تنسحب من موقع أنانيتها لتشرق عليها شمس السكينة والامتلاء، فتغدو الغنيمة الروحية أعظم والاريحية القلبية أرحب، لأن النفس تكتسب ما لا يُحَدُّ من مشاعر البذخ البرزخي حين تغدو

---

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثامنة والعشرون ٥٩٠

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الثامنة والعشرون ٥٩١ بتصرف

(٣) يمكن فهم قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾، بأن معناها: كمَّلنا تجهيزه بالمعرفة فلا ينبغي له أن يغفل أو يسهو..

مرتبطة بالملكوت برباط اليقين الناجم عن وثوق الحيازة المطلقة الذي استقر في النفس بعد أن باتت النفس ترى كل شيء ملكها وسهمها وتراثها..

هكذا يزحزح النورسي النفس الأمارة عن موقع الأنانية الشنعاء والتعجرف الاخرق، إلى فضاء السماحة الكريمة والجود المنزه، فالنورسي بهذا التسديد يعمق من درجة تهذيب آدمية الإنسان، هذا التهذيب الذي تواطأ على تحقيقه الأصفياء المتحنفين وأهل السلوك، فالنورسي هنا يَسْتَنُّ بسيرة النبي ويتأسى بروحية أهل التقوى ممن طلقوا الحرص المذل، واستعاضوا عن شهوة الحيازة بقناعة تجردية اختيارية، رأسمالها كل ما يرونه في الكون من نفائس ومباهج، وبهذا يغدو وازع اشتراك العالمين مع الإنسان في الاستفادة من تلك المباهج من دواعي سعادته الخالصة، لأن وجود المخلوقات ذاته يصير وجها من وجوه النعمة المدعمة فيه لمشاعر الحبور، المزيلة لكآبة الوحشة، والمزينة لوجه الحياة.

لا يعاين الكون من خارج الظواهر فقط، بل لقد اندمج بكليته -نفسا وروحا- في شرايين الظاهرة الوجودية وذرعها في جانبيها الشهودي والغيبي (الفيزيقي والميتافيزيقي)..

ومن درجة تيقنه من ميتافيزيقة الوجود، بات يفاعل تلك الميتافيزيقية ببصيرة حسية، فلكأنه يعاين اللامرئي ويتصفحه عن كثب.. إنه في هذا أشبه بكرية الدم، تخترق الخلايا غير المرئية قاطبة، وتنفذ إلى مطاويها، فهي من ثمة تمتلك قابلية النفاذ إلى صميم الأشياء..

لقد ظل النظر الحسي[1] والمعنوي، والواقع الشعوري واللاشعوري، زيادة على المنصوصات القدسية، تمثل جميعا سنده في تقرير الحقيقة الإيمانية التي استوطنته وباتت قارة في أعماقه، فهو حين يريد أن يؤكد حضور الذات الإلهية في كل ذرة من الكون وفي كل نأْمَة من الزمن، ينطلق إلى ذلك من معاينات حسية واقعية، فكما أنه يرى مثلا في الشمس ملايين الشموس المتواجدة في الآن نفسه في سائر البقاع المنظورة، فكذلك هو يرى حضور الله، هو الواحد في الماهية، المطلق في الوجود.

هكذا، وبواسطة هذا القياس العقلي يبصر وجود الله في الذرات والجزيئات.

كل الأشياء تحمل البصمة الإلهية وتعلن عنها، فكما تنغمر الموجودات جميعا في لجة الأنوار الشمسية، كذلك يحضر الله في كل معلم وشارة مما على وجه الكون، ذلك لأنه

(١) لفتني قول بعض النحاتين في بعض الحصص الإعلامية يقول لمحاوره ، إن الطبيعة هي شعر الله ..

الخالق الذي أوجد كل شيء. فأمارات القدسية الإلهية ماثلة، في ذات الآن، في أصعدة الكون المترامي..

بل إن هذا الانتشار الجلي -وفي نفس الإبَّان- للفرادات والعناصر الحسية الكونية (الشمس، القمر، الكواكب إلخ..) عبْر الأماكن المختلفة من عالم الشهادة، يجعل النفس تَتَيَقَّنُ من وجود حقائق أخرى،على نحو ما، ولكنها خفية، تعمر أماكن أخرى في الكون المطلق، بل إن ما يحصل تحت أعيننا وفي غفلة منا في طبقات الثرى، وطَيِّ لُجَج البحار، ومن وراء حجب الفضاء وفي متاهات الكون اللامتناهية، ليؤكد امكانية وجود عوالم وحصول وقائع في مجاهيل الميتافزيقا وعالم الغيب، بل وحصول حوادث متوقعة أخبر عنها الدين في الدار الآخرة.

بهذا الاعتبار الاستدلالي فسَّرَ النورسي أخبار النصوص القدسية، من ذلك مثلا ما ورد في الأثر من ملاقاة الرسول ﷺ لكافة أتقياء الأمة في الحشر وفي آن واحد، فشاهِدُ حضورِ الشمس في عين كل مبصر كل إصباح، يؤكد حصول ذلك الوعد لا محالة وبنفس الكيفية..

بل إن النورسي ليفسر لنا من خلال هذا القانون الخاص بتعدد الحضورية والانتشار الآني، الزماني، ظاهرة حضور الأبدال في أماكن كثيرة وفي وقت واحد.. بل إنه يرى أن بهذا الاعتبار الإطلاقي يعيش أهل الجنة ملذات فرودسهم بلا قيد أو حدٍّ..

هكذا يتمثل النورسي الوقائع الوجودية والقضايا الغيبية بحس عقلي وحدس إيماني، سنده القرآن والأثر النبوي الشريف.

إنها رؤية تستند إلى ضرب من النسبية المتعَالية، لأن النورسي أدمج في رؤيته معطى الماوراء، إذ شَكَّلَ الإيمان بالنسبة إليه (ميكرسكوب) يستبصر به أبعاد الغيب.. فما دام الإنسان ظاهرة ما ورائية، لكونه جاء من حيث لا يدري، ويذهب إلى حيث لا يدري، وقد ينتهي إلى بقاع لا تقع في خلده قبل أن يطرقها، ويولد ممن لا يعلم عنهم شيئا قبل الولادة، ويلد ما لا يعلم من خلفة، ويرحل عن العالم في غير أجل معلوم، ويرزق مالا يعلم، وينفق مالا يدري..فهو من ثمة كائن ميتافيزيقي بالقوة وبالفعل، فلِمَ إذنْ الادعاء والمكابرة في هذا التنصل من حقيقة وجودية لا يداري فيها إلا الإنسان المغتر وهروبه غير الواعي من مواجهة المصير الأخروي، فلكأن الإنسان الآثم يُصِرُّ على شطْبِ صفحة الغيب إمعانا في الغفلة، لأنه يريد أن يعيش متخففا من وزر عثراته، إنه يخاف المجهول لأنه يخشى الحساب، وكما لا ينزع

به الاعتبار إلى التفكير في أطوار تَخَلُّقِهِ في الاحشاء وقبل ذلك حين كان سائلا قارا بين الصلب والترائب، كذلك هو ينفر من أن يتفكر في النشأة الأخرى، ويصر على أن يعيش محجما في دائرة الواقع الحسي، منيطا همته بمهزلة سخيفة، مهزلة تحصيل اللقمة واغتصاب اللذة على أي نحو كان، فهو إَذنْ والنملة والدودة والحمار في ذلك سواء.

سنرى كيف يماهي النورسي بين العوالم والأجناس، إذ أنه ينظر إلى المخلوقات الحية بمنظور الإيمان، فيجعل كل ذي روح يشارك بقية الأجناس -ولو من غير فصيله أو نوعه- في خصيصةَ المخلوقية، فهو مخلوق يحمل في بنْيته البدنية -مهما رَقَّتْ ودقَّتْ- شيئا من نفخ روح الله..

وبخصيصة المخلوقية (الروح) تؤدي الكائنات وظيفة التسبيح، لكن الأجناس والفصائل تتفاوت في الوردية، وكما أن لجنس الطيور صنفا متميزا هو البلبل الذي فطره الله على التغريد، فكذلك لكل جنس من أجناس الكائنات صنف يجسد وظيفة البلبل في التغني والإعراب عن القدسية والتسبيح، إذ لابد أن يكون لكل فصيل وجنس صفوةٌ وأخيارٌ، ولابد لكل صفوة من مصطفى ولكل أخيار من قطب.

يقول النورسي:" لا تحسبن أن هذه الوظيفة الربانية في الإعلان والدلالة والتغني.. خاصٌّ بالعندليب، بل أن لكل نوع من أكثر أنواع المخلوقات صنفا شبيها بالعندليب، له فرد لطيف أو أفراد يمثلون ألطف مشاعر ذلك النوع، ويتغنى بألطف التسبيحات بألطف السجعات، ولاسيما أنواع الهوام والحشرات، فبلابلها كثيرة وعنادلها متنوعة جدا، تُمتِّع جميعَ من له آذانٌ صاغية إليهم، بدءا من أصغر حيوان إلى أكبره، وتنثر على رؤوسهم تسبيحاتها بأجمل نغماتها[1]".

إن النورسي وإن حصر نظرته التصنيفية في عالم الحشرات ودائرة العجماوات إلا أنه عبَّر ضمنا عن الوضع الوجودي عامة بما في ذلك عالم الإنسان.. إذ أن ما يتصف به الكائن غير العاقل من مختلف الفصائل المبثوثة في الطبيعة من استعداد تسبيحي وتعبدي، يتصف به الكائن البشري العاقل على نحو أجل وأكمل وأظهر..

بل إن النورسي ليتحدث -من خلال السياق- عن نفسه وعمن يشاكله في المنحى الروحي والإيماني من الآدميين، إنه يمثل بلبلا في عصر ساد أجواءه نعيق الغربان وطغت

(١) الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون٤٠٧

صيحات الجحود المنكرة المنبعثة من كل مكان.. ففي هذا الجو المشؤوم كان على النورسي أن يضحى بلبلا يغرد بأوراد الإيمان، ويؤدي وظيفة التسبيح على هذا النحو العكوفي العجيب الذي جسدته الرسائل النورانية.

لا شك أن إدمان النورسي على التأمل وملابسة الوحدة والوحشة آناء الليل وأطراف النهار، قد جعله أذنا صاغية تلقَفُ كل ما يصدر عن الكائنات من أوجه التسبيح الإيماني، لذا تراه يتلقى كلمات[1] الطبيعة، همساتها، بوحاتها، لا سيما ما تعج بها الكينونة تحت جنح الليل من حس، فيقرأ كل ذلك قراءة روحية تستجلي فيه المعنى التقديسي والدلالة التسبيحية. بل إن النورسي ليتمثل تلك الأنواع من الحشرات والهوام التي يستهويها التغريد و(الهزج) في الليل أقطابَ ذكرٍ وواعظين يُلقون اللطائف على الأشهاد، ويؤثثون سكينة الليل بموسيقى الروح..

إن النورسي بهذا التمثل المُؤَنْسِنُ للطبيعة وعوالمها إنما يفصح عن فلسفة روحية لا ترى في الكون ومظاهره إلا مقدِّرات ناطقة، مبرمجة بكيفية يؤدي فيها كل عنصر وظيفة وردية أناطها به الخالقُ، ثم إن هذا الاستهداء المعبر الذي انتهى إليه النورسي حين تَمَثَّلَ حشراتِ الليل دعاةً وواعظين يستغرقهم الوجدُ والذكرُ، إنما تَأَتَّى له لطول ما لازم الطبيعة وداوم الإصغاء إليها، والنفاذ إلى بواطنها بحسه، والإبحار عبر تموجاتها بروحه.

ما أكثر ما عبر الأدباء عن الطبيعة واستقرأوا فيها ألوانا من الحزن والاستبشار، لكنهم في ذلك إنما عبَّروا عن خلجات أنفسهم، وتحسسوا أصداء خواطرهم في صفحة الطبيعة والكون.

إنما النورسي يتعدى هذا الحد العاطفي، (الصدى)، إذ أنه يرى في نبرة الصرصور، تحت هدأة الليل البهيم، وفي شنشنة الأغصان، وهمهمة الليل، وفي حشرجة السوام، صوتا ينشر التسبيحات والتحميدات، ويعمر المدى بالأوراد والرواتب، وأن النفس المزكاة لا ترى صورتها في المشهد الحسي من حولها، ولا تسقط خلجاتها بإزائها، فلا نرجسية لدى المؤمن، إنما روحه تتلقى من ذات المشهد خُطَباً أفصحَ ما تكون تسبيحا وتعظيما، وألْهَجَ ما تكون حمدا وشكرا، فتنساق معها، وتندمج في جوقتها..

ولقوة إحساسه بوجود هذه العوالم المسخرة للعبادة والتسبيح نرى النورسي يشخص مهام هذه الأصناف المنشدة في أبرز صورة وأظهرها تعبيرا عن وظيفتها التعبدية.. فمثلما يرى

(١) فلا غرابة أن يُعَنْوِن أحدَ كتبِه بـ كلمات.. وهو المصدر الذي ركزنا عليه في هذه الدراسة

لأطيار الليل بلابلَها المغردة بالتحميد، يرى كذلك لطيور النهار بلابلها المسجعة بالتقديس. فإذا كانت بلابل الليل تؤدي وظيفة التسبيح، فهي إلى ذلك تقوم بمهمة "الأنيس المحبوب والقاصّ المؤنس في ذلك الليل الساكن والموجودات الصامتة للحيوانات الصغيرة التي خلدت إلى الهدوء.."، انظر إليه كيف يضفي سمة الجمعية والتعاشر على هذه المخلوقات، وإلى الترابط الوطيد الذي يَلْمَحُه بينها.

والحال أن القارئ لا يخطر على باله جَوَّ الألفة هذا الذي لقطه النورسي لعوالم الطبيعة المتوحشة، ومع ذلك لا يمكن للوجدان أن يعترض على معقولية هذه العلاقة التشاركية التي افترضها النورسي لتلك العوالم، بل لا يسعه إلا أن يقر أن هناك بلابل ليلية، هي جوقات وفرق فنية وروابط أدبية تنتشر في أندية الطبيعة الساجية، وتشرئب إليها الأعناق من كل جانب، لتتابع انشادها وكلماتها.

أجواق الليل هي إذن محافل أدب وفنٍّ تُلقى فيها القصائد، وتعزف السنفونيات، وتضرب نوبات الناي وكل آلة يمكن للخيال أن يتصورها، لا أحد يعارض هذا التشخيص الذي تحياه الطبيعة كل ليلة، فهو -حقا- جو خليق برحمة الخالق الذي كفل لكل كائن حظا من السعادة ودورا ينهض به.

بل إن النورسي ليرى حتى للنهار جوقاته المسبحة، اسمع إليه يخبر عن أطيار النهار وكيف أن التسبيح يستغرقها. يقول: وقسم آخر من هذه البلابل نهاري، يعلنون في وضح النهار رحمة الرحمن الرحيم على منابر الأشجار وعلى رؤوس الأشهاد، ويتغنون[1] "..إن عبارة (منابر الأشجار..) لهي من الرشاقة والإفصاح ما يجعلها ليس فحسب صورة مجازية فذة، ولكن حقيقة ثابتة تكتشفها العين وتتيقن من صحتها وواقعيتها. المجاز في معرض البيان البرهاني يضحى فاعلية تجْليةٍ لا مراء فيها، لذا كان الشعر يحمل دائما في ثناياه مادة الإفحام.

وحين يرسي النورسي الاختيار على محمد ﷺ باعتباره أعظم بلابل[2] الوجود قاطبة، وأزكاها طرا، وأشرفها جميعا، فإنه يضع عبادة الإنسان في ذروة المقبولية قياسا ببقية المخلوقات غير العاقلة، ويضع من ثمة سائر من يسلك طريق محمد ﷺ بل ومن ينخرط في

---

(١) الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠٨

(٢) راجع الفقرة الشعرية الرائعة التي ساقها النورسي حين وصف الرسولﷺ بكونه العندليب العظيم لنوع البشر.. الكلمات.ص٤٠٨

جوقة الإنشاد المحمدي، بأي آلة عزف إيماني، يضعه ضمن دائرة السرب المسبح، الحامد، الممجد، الشادي، الهازج، المسجع بلسان الروح المتقربة إلى خالقها بما يقر في الفطرة من استعدادات الإيمان..

على قدر هامش الاختيار يكون مستوى العمل من حيث الكمال والمقبولية

كلما كان للكائن هامش اختيار كان عمله أنقص وأدنى عن بلوغ الكمال، وكلما انعدمت مساحة الاختيار أو تقلصت في حياة الكائن، كلما كان العمل أكمل وأكثر تقانة، لأن إمكانية الاختيار هي الحيز الإمتحاني، ولا ينال الدرجة كاملة في الامتحان إلا أولو الحظوظ وما أقلهم، وتترتب منازل الكائنات ذات الحظ الاختياري الفسيح في سلَّم متفاوت من الدرجات، فحشرة مثل النحلة هي أظهر اتقانا من حشرة الذباب، لأن إمكانية الجنوح عن التوفيقية تتعمق لدى الكائن بقدر اتساع رقعة الاختيار لديه.. إنه ينجذب إلى الهوى في ما يسمح له فيه من مساحة اختيار، لذا نجد أولي العزم يسلمون الأمر إلى الله، فيتركون الخيار (ويلازمون الاستخارة) ويفتقرون إلى الله في كل أمر..

وليس الإنسان وحده محكوما بشرط الاختيار النسبي، إذ الحيوان هو الآخر محكوم بجزئية الاختيار، وهو ما عرض له النورسي قائلا: "وحيث إن الحيوانات لها نفس مشتهية واختيار جزئي فلا تكون أعمالها خالصة لوجه الله، بل تستخرج النفس حظها وشهوتها من عملها، لذا يمنح مالك الملك ذو الجلال والإكرام تلك الحيوانات أجرة ومرتبا ضمن أعمالها، تُطَمْئِنُ تفوسها وتُشْبعها[1]". فبقدر ما يتوافق لدى الحيوان العملُ[2] الذي يؤديه مع استعداده لذلك العمل بقدرها يكون انسجامه وتلذذه بما يعمل.. فاللذة هي الأجرة الفورية التي خصصها الله لمخلوقاته، لحكمة إدامة الحياة.

رؤاه تتيح معرفة فتوحية

ليست السياقات التي تتحدث عن شخصه وحدها التي تكشف لنا عن حياة النورسي، بل

(١) الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠٦

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠٤

إن السياقات الموضوعية التي يستغرقه فيها التأمل وإدارة الفكر حول مظاهر الكون والطبيعة والخلائق هي أيضا تخبرنا عن سيرة النورسي الروحية، فهو مثلا حين يتحدث عن البذور وتحولها -وفق مشيئة الله- من موقع إلى موقع بحيث تجعل الناظر إليها يقرأ أسماء الله الحسنى[1]، فإنما يتحدث عن معايناته وملاحظاته اليومية واستنتاجاته الاستقرائية..

بل إنه -ونتيجة لتمهره في الاستقراء الروحي والعقلي- ليدهشك باستمرار بما يسوق لك من رؤى غير متوقعة، رؤى سرعان ما تتبدل بها حقيقة الأشياء في عينيك وتتلبسها حقيقةٌ جديدة، فعندما يتحدث عن عالم النباتات يفاجئك إذ يجعلك تكتشف أن في ذلك العالم فصيلا من النبات هو مادة من لحم وعظم، وأن الحيوانات تتشهاه.. إن هذا الاقتراب الذي يستجلي به جانبا من عالم الطبيعة، ويقرب فيه بين نوازع الإنسان والحيوان من حيث الفطرة والطبيعة والمعاش، هو من الفتوح المعقلنة المنارة ببصيرة لا تمر على الظواهر متسرعة، ولكنها تتريث لتعي حقيقتها على الوجه الأكثر إفصاحا..

إن القارئ وهو ينتبه إلى هذا التنقيب الجديد الذي بمقتضاه قد عرف أن هناك عناصر طبيعية آكلة لحم، وأنها تتشهى فصيلا نباتيا تطلبه بشهوة كتشهي الإنسان للحوم.. إنما يَفِيد بمثل هذه الملاحظات الألمعية ثقافة ترقى به خطوة نحو إدراك روحي متقدم.. بل إن من شأن ذلك الإدراك النوعي أن يجعله هو أيضا يتصيد مستويات أخرى غير ظاهرة، وحقائق غير سافرة في ما يكتنفه من ظواهر حسية. هناك -إذن- ضمن فصائل النبات صنف بمثابة اللحم والعظم تتشهاه الحيوانات، وما هو باللحم والعظم إلا على المجاز..

يد الله تغرس

يتمثل النورسي ظاهرة اختزان البذور في الطبيعة عملا إراديا معقلنا، ومهمة ناجزة بترتيب وحكمة لا اعتباط فيها ولا مراء: هكذا تنشر النباتات بدائع صنع الله، فيهب لقسم آخر علبا مملوءة بالبذور تقذف بها إلى مسافة أمتار حسب نضوجها"[2].. إنه يحدثنا هنا عن ظاهرة نعيشها في كل حين، لكنه استجلى فيها هو نظاما مرتبا بغاية الدقة والمنهجية، فيما نفتأ نحن

---

(١) بقية النص: كما في أغلب النباتات الشوكية وقسم من بذور الأزهار الصفراء"، الأمر الذي يؤكد أن الخطاب نابع من تجربة شخصية استهوى النورسي فيها تأمل تلك الأنواع من النباتات..

(٢) الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠٩

نرى فيه آلية غُفْلا، الدافعُ إليها وازع التنظف والتخلص من الفضلات.. إذ أننا نرمي زريعة الثمار وقشورها لأنها الجانب الذي لا يستهلك، إنما الخالق حين أدمج في الثمرة ذلك القطاع من العضويات غير القابلة للاستهلاك، إنما أرسى نهج التوالد والتكاثر والاستمرار، وكل ذلك يتم على يده التي تولت تنفيذ كل شيء من وراء حجاب القداسة والعظمة، يده التي تنبري لغراسة ملايين وملايين الصنوف على هذا النحو الآلي، الطبيعي، المجسِّد على أروع وأكمل مقامات الأمرية، من خلال قوله تعالى للشيء كن فيكون.

بالمحبة يتم الاستحواذ على الكون

حينما يقول النورسي "قد أدْرِجَتْ في قلب الإنسان..محبةٌ قادرةٌ على الاستحواذ على الكائنات كلها"[1]، فإنه لا يتحدث فقط عن فكرة استقرائية عامة تحصلت له من جراء السياحة الدائمة في عالم التأمل والتجريد، ولكنه يتحدث عن حالة ارتقاء (عشقية، صديقية)، لا ريب أنه لمسها في نفسه، وانتهى إليها من خلال ملازمة العبادة..

لا جرم أن محبة الله تورث انشراحا في الصدر وسعة في القلب، حيث يكون منزل الله وإقامته ما دام العبد متدثرا بلباس التقوى، الأمر الذي يجعل النفس تستوعب -من ثمة- أقطار كلها، ألفةً تتآخى في صعيدها المتناقضات والمتضادات.. أرأيتم كيف يبادر بعض الزاهدين إلى المسك بالأفعى وصرفها في هون عن مجلسه، دون أن يندَّ أي شعور بالعداوة عن أيٍّ من الطرفين، لأن تلك الحشرة القاتلة، تلمس في أنامله المحبة، وتستروح في ريحه المسالمة والتواصل، فلا يسعها إلا أن تبادله التحية بتحية أحسن منها.

موضوع الحب وعفة الخطاب

لقد تطهرت نصوص الرسائل من الأحاديث المجانية ومن الهوى، حتى في سياقات كانت تتطرق لما يدعو إلى الإثارة..

فتراه مثلا وهو يتطرق إلى أنواع المحبة يكتفي بالإيماء إلى الجانب الحسي من الموضوع، ملاحظا بين قوسين أن (الحب الشهواني خارج عن بحثنا)..

إن هذا التخطي لموضوع لا يجد عادة إلا القبول والتطلع من قبل القارئ، إنما يدل على

---

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤١٠

وازع الصرامة والالتزام الذي يميز حياته العملية والروحية معا، ويدل كذلك على أن خلُق العفة والترفع عن الأهواء لم يكن عند النورسي مجرد شعار استعراضي مفرغ من محتواه، تقتضيه الحرفة والوظيفة كما هو الشأن عند البعض، بل كان سلوكا حياتيا أصيلا وراسخا، ذلك لأن النورسي يتفاعل مع الحوادث والأشياء والخواطر والاهتمامات بانخراط روحي احتسابي تعدّى في مستوياته الطبيعة البشرية المعهودة، لذا تراه يتحرى الترفع عن السفاسف فلا يحوم حول ما قد يلحق بخطابه الطاهر شائبة اللغو واللهو.. طالما تحدث عن الأدب القرآني فقرر نزاهة ذلك الأدب فحوىً ومبنىً، وأكد نقاءه وبعده عن التنجس وعن الوقوع في لوثة الفسوق والعصيان، إنما الأدب الدنيوي هو الذي يجد غنيمته كلما خلق الموضوع المتفسخ، والمشهد الرافث، والموقف الموحل في الدعارة.

إن موضوعة الحب في كتابات النورسي تنتقل بك إلى أفق تستذيق فيه مطايب أخرى من اللذة ومن رحيق الصبابة الروحية" التذلل اللذيذ هو ثمرة المحبة، محبة الله، وبالتبعية فإن محبة الله تورث لذائذ غير متناهية، لأن أصل الخوف منه هو علة شعور لذيذ..مخافة الله سوط تشويق يدفع الإنسان إلى حضن رحمته تعالى"[1].

ويستكشف النورسي بعدا آخر للمحبة النقية، هو الدوام والاستمرار، فالمؤمن تربطه بالأشياء المحبوبة علاقة خالية من ألم الفراق"[2].. هكذا نتعلم من الرسائل كيف نجدد صلاتنا بالأشياء، وكيف نُقَنِّنُ عواطفَنا، وكيف نستصفي لذاذة اليقين من خلال تيقننا الراسخ من أن لا تَصَرُّمَ هناك ولا انقطاع في حبل من يجمعنا به العشق تحت شجرة الإيمان. حتى الموت يغدو مجرد موعد يضربه المحب لمحبوبه، ليتم اللقاء في صعيد أشهى وأكرم، صعيد الجنة وما يسودها من جو الصفاء العميم .

وأمام واقع تَشَتُّتِ عواطف الإنسان وانجذابه المستمر نحو من يحب، نرى النورسي يطوي شغاف القلب على محبة الله وحده، لأنه يوقن أن من يقطع الأسباب بما سوى الله، ينجو من نكال الألم والصدمات والهزات والبلايا ويرتاح[3]. إنه انقطاعٌ أو كفٌّ إرادي، تتكثف به الصلة بالأشياء والكون والحميميات، لأن محبة الأصل تشمل الأجزاء والتفاريق بحكم

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤١١

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤١١

(٣) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤١٢

طبيعة الأشياء، وإذن فإن الاعتلاء بمحبتنا نحو آفاق البرزخية يكفل لنا أن نحب الكائنات كلها دون أن نخشى مغبة الفراق، إذ لن يفارق أنظارَنا وقلوبَنا شيءٌ بنتيجة الموت أو الابتعاد أو الاحتجاب مادام حبنا للأصل، لذات الله، قارا في الأعماق.

لم يُعادِ النورسي نفسه حين صرفها عن مباذل الحب الأرضي سريع الاستهلاك، وإنما تألَّم لحالها وأشفق عليها فحمَلها على أن تتمسك بالرضى، فتعشق العشقَ ذاتَهُ، فكان من ثم طمأنينتها..

ما نحبه في الآخرين وفي مشتهياتنا ونفائسنا هو في الحقيقة استعداد بالفطرة نفاعل به أسماء الله الحسنى التي تُظِلُّ وتلابس كل شيء فينا ومن حولنا.

"وتَعُمُّ نعم الله لأن له سبحانه في كل اسم من أسمائه الحسنى خزائن معنوية لا تنفد من الاحسان والاكرام"[1]

إن فلسفته حيال مطلب المحبة تقوم على منطق الدفع وليس القبض "إن وظائف العبودية وتكاليفها ليست مقدمة لثواب لاحق، بل هي نتيجة لنعمة سابقة"[2]، فهو يتعشق آجل الجزاءات لأنه راهن على كنه الجمال المطلق.

الحس التحليلي

يحدثك عن النغمة فلا يقول لك إنها نغمة، بل يقدمها لك في إطار تحليلي مبسط، فهو يرشدك إلى أنها عبارة عن احتكاكاتٍ تُحدِثُ حِسّاً يتجسد في صورة نَبْرٍ تتنوع به الذبذبات، وتجري في تيار متوالٍ من الشِّدَّة واللِّين، فتتلون الأصوات والأصداء وتتلقاها طبلة الأذن، وتتذوقها كما يتذوق الفم نكهة الطعام ..

على هذه الشاكلة يخاطب النورسي متلقيه، فهو يبسط لهم الظواهر ويعرض عليهم أصولها ومقوماتها، ولا يكتفي أبدا بالتعريفات الجاهزة والتفهيمات السطحية، كما أنه لا ينزلق قط إلى التحديدات العلمية الصماء، فهو يعتبرها منفرة، دافعة للنفس بدل أن تكون جاذبة لها، تماما مثل التحديدات العامية التي تستخِفُّ بالعقل وتدفع له المفاهيم خاماً ليزدردها ازدرادا لا يهضم، فيكون الناتج هنا كما هناك، سلبيا وغير مؤثر التأثير الحقيقي الذي يترك بصمته على

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤١٣.

(٢) الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤١٣.

الروح، فتعمل على التحول إلى الأفضل والأحسن.

إن النورسي بهذا المنزع التحليلي، التوضيحي، يتخطى مسلك السطحيين، عُدتُه في ذلك ليس فقط المعارف المستحصلة تعليما، وإنما قدرة عقلية ملموسة نجدها عند الفلاسفة، إذ تنْفُرُ نفوسهم من الارتجال وتداول القيم الجاهزة. كلا، إن النورسي يجنح دائما نحو التعمق، لأنه يجد في نفسه فائضا عقليا يأبى عليه أن ينظر إلى الأشياء ضمن رؤية حدية وتعريفية سوقية..

وإذا ما أحس أن المادة التحليلية ما زالت متأبية عن التبسيط، يبادر إلى تقديمها في صورة مثال أو مُوَضِّحة تعبِّر عن حقيقة تلك الإشكالية المستعصية، فلا تلبث أن تتجلى للقارئ مهما كان مستواه الذهني وثقافته العقلية. إن هذه المكنة العقلية هي التي طفق يتفنن بها في فهم تنزلات القرآن العظيم، زيادة عن الخوض في معامع الفكر والفلسفة على اختلاف مستوياتها.

حتى في أسلوبه قد شذَّ، لأنه يشتغل بآلة طاقوية مشحونة، ومعبأة، وتجد خالص متعتها وإشباعاتها في التأصيل وفي الابتكار وفي مجانبة المسالك الموطوءة..

ما أشبهه وهو يخوض في شائك المسائل الروحية والميتافيزيقة والفلسفية بالطفل الموهوب الذي يرى نفسه وهو دون السادسة يتابع دروسه مع طلاب جامعيين.. فعَجَبُهُ منهم لا يزال يشتد أن يراهم يستغرقون الوقت الطويل في مسائل يلمح لها هو الإجابة بالبداهة. والمؤكد أن هذا الموهوب لا يقَدِّر حق التقدير تلك الطاقة الخارقة التي يمتلكها والتي لا قبل للآخرين بها، فلسذاجته يستثقل فهمهم.

ربما عاش النورسي هو أيضا هذه الحقيقة في أطوار العمر الأولى.. ولذلك ظل يبدي دهشه من شقاء الناس وذهابهم إلى الموارد الأبعد كلما أرادوا أن يتدبروا حقائق القرآن، والحال إن حقائق القرآن في متناول اليد، حتى إن النورسي ليَهُمُّ بتفجير الينابيع من أرض القرآن بمجرد لمسة من إصبعه..

بل ربما كان يعبر عن حال من المضض أن لا يجد الكفؤ حين كان ينازل الأقران ومن هم فوق سنه وأقدم منه في التحصيل.. بل ربما دلت تلك اللافتة التي أشهرها على بابه، ودعا أهل المسائل إلى القصد إليه ليحل لهم ما انغلق عليهم، على شيء من أثر هذه السذاجة أو لنقل هذه البراءة التي للنبغاء.. إذ يتهيأ لهم أن الجميع يتساوى معهم في المدارك والكفاءة..

والمؤكد أن النورسي قد فعل ما فعل لمقاصد إحسانية، فلا شك أنه كان يحس أن ما متعه الله به من ملكات وقابليات إنما يحتم الواجب عليه أن يضعها في خدمة الناس، من باب

تداول الإحسانات الإلهية، فسلوكه يغدو من ثمة نزعة خيرٍ تتساوق مع روح الأمر بالمعروف التي تسكن ضمير المؤمن الحق..

بهذا الفائض في العقل والقدرات الإدراكية تمكن النورسي من أن يستشرف آفاق النفس والكون، وأن يوطن روحه على ارتياد ربوع (الما وراء)، استشرافا مبرءا من (الفانتازيا[1])، فقد لبث يتمثل على نحو عيني مشاهد الغيب انطلاقا من رصيد نصوصي قدسي فاعلته روحه الفائضة بالتوثبات الاستحضارية، فباتت بيئة الغيب أليفة لديه وقريبة منه ومطروقة من قِبَلِهِ في كل حين..

إن الطاقة التي جعلته يستعصم بالإيمان على ذلك النحو الجارف، هي الطاقة ذاتها التي هيأت له هذا الاقتدار على السياحة في عوالم الماوراء، وكان في كل خطوة يخطوها على مجَرَّةٍ من مجرات الإيمان يصنع لحن تسبيح، وينظم سفر تحميد..

العقل الرياضي والنظرة العلمية بإزاء النظرة النبوية

-له عقل رياضي يعالج به المسائل الفكرية، فحين يتصدى لإثبات نصوص قدسية تشير إلى مسائل حسابية من قبيل تضاعف ثواب سور قرآنية وارتفاع محصولها من الأجر والثواب" نجد النورسي يطرح معنى تضاعف الأجرية بلغة الأرقام ليبين مصداقية هذه المضاعفة موضوعيا..

ولا يكف عن تأكيد مبدإ تكامل العلم مع الوحي، وتساوقهما، بل إن الوحي ظل دائما يمثل البوابة التي يدلف منها العقل حين تنسد أمامه الآفاق وتنعدم الروية.

لقد طفق يؤكد أن الرؤية المجلوة بنظر النبوة تسدد نحو الصواب والحق، وأن الحقيقة العلمية القاطعة لا تتعارض مع حقائق النصوص القرآنية، وأن تفوقية مقررات الوحي هي تفوقية لا تطالها براهين العلم التجريبي، لأنها من جنس معرفة فوق عقلية، إذ اليد القصيرة للعلم التجريبي قاصرة عن بلوغ أهداب طرف من حقائق القرآن الرفيعة المنزهة".

وحين يعتبر المنظور القرآني الأرض مركز الكون، فإن النورسي يؤكد أن مركزيتها معنوية بحكم كونها مهد الإنسان ومنصة نشاطه، والإنسان هو سيد الكائنات، فحتما ستكون صهوة

(١) التجنيح الخيالي والفني النابع عن توهج النشوة والشهوة الحسيتين في النفس.

الكوكب الذي يقله هي قلب الكون بالمعنى الاعتباري [1].

ومن المؤكد أن النورسي هنا إنما هو يقرأ منصوصية القرآن على أنها منصوصية متعالية، أي أن إيماءة العبارة القرآنية ليست حتما هي إيماءة العبارة الوضعية، فمفهوم الجري الذي يتحدث عنه السياق القرآني الذي" يبحث عن الشمس لا للشمس، ولا عن ماهيتها، بل لِمن نورَّها وجعلها سراجاً، وعن وظيفتها بصيرورتها محوراً لانتظام الصنعة ومركزاً لنظام الخلقة، وما الانتظام والنظام إلاّ مرايا معرفة الصانع الجليل. فيعرّفنا القرانُ بإراءة نظام النسج وانتظام المنسوجات كمالات فاطرها الحكيم وصانعها العليم، فيقول: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ ويفهِّم بها وينبه إلى تصرفات القدرة الإلهية العظيمة في اختلاف الليل والنهار وتناوب الصيف والشتاء. وفي لفت النظر إليها تنبيه السامع إلى عظمة قدرة الصانع وانفراده في ربوبيته. فمهما كانت حقيقة جريان الشمس وبأي صورة كانت لا تؤثر تلك الحقيقة في مقصد القرآن في إراءة الإنتظام المشهود والمنسوج معاً".[2]

ولا بدع أن يصطنع الخطاب القرآني أيضا للقمر صورة مجازية ترشح بحس الزمنية، فالقمر في مرحلة تناهيه يتضاءل، ويأخذ شكل العرجون القديم.. فالتشبيه هنا معلن ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ والتشبيه هناك مضمر ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾.. ثم إن معاني القرآن سياقية، الدلالة الاعتبارية أقوى وأرجح فيها من الدلالة الحرفية.. فلفظ الكافر لا تعني -قرآنيا- المتغطي والمتخفي، بل تعني من غَشِيَ الجحودُ قلبه.. فالمعنى أبعد عن الحرفية، وأصرح في الاعتبارية، لأن الجحود حجاب يحرمنا من نور الإيمان. إن الاستعارة منزع أصيل في الخطاب المتعالي.

العبادة نماء للعقل وتحصيل للذوق

لا يعكس النورسي في تبتله قابلياته واستعدادته الروحية فحسب، ولا هو يشحذ تلك القابليات والاستعدادات على ذلك النحو الممعن المتواصل، ولكنه إلى ذلك لا يفتأ يستحصل ذوقا في منتهى اللطف، ويجتني مزيدا من الجيشان والشوق في كل منشط روحي

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠٢

(٢) الكلمات- الكلمة التاسعة عشرة ٢٦٧

وتأملي يقوم به[1]، ومن المؤكد أن ذلك الذوق وذلك الشوق هما جُماع زادِه من المسرات والمتع (أجرته الفورية)، فلكأن منتهى أمانيه أن يستمر على تلك العلاقة الاستمدادية مع خالقه بواسطة التواصل القلبي، فما أشبهه بمن يتوله بالحب، فيغدو منتهى مناه أن يقف على أثر للحبيب يتعلق به ويتداوى من البراح."إن القابلية والاستعداد إن دخلت طور الفعل والعمل بعدما كانت في طور القوة الكامنة، تنبسط وتتنفس، فتورث لذة، وما اللذة الموجودة في الفعاليات كلها إلا نابعة من هذا السر"[2]

يمكن أن تستخلص سيرة النورسي من تمثلاته لعوالم الغيب وحياة النباتات والجمادات، فقد تحدَّث عن تلك العوالم بما في نفسه، بل لقد ضبط نفسه بما استخلصه من عبر في علاقته بتلك العوالم الصماء، وإلا كيف يكون اهتدى إلى ذوق ومزاج ونفسية الملائكة لو لم يسقط نتائج أفكاره على عالم الملائكة بعد أن استقرأ عالمهم في ضوء هداية تأملية نابعة من طبيعته الخاصة ومن نفسيته وروحيته ولواعجه الوجدانية، من هنا يمكننا أن نقرأ سيرة النورسي الروحية في ما تمثل به عوالم الغيب والجماد والنبات من خواطر واستبصارات..

إنها عوالم تتقمَّص في سيرتها مسلك المحبة والتقديس، وإنها تتعاطى بجبلتها التسبيح والحمد والعبادة والمعرفة والمحبة[3]. ولقد صمم النورسي على أن يجاهد لأجل أن يرتقي إلى مستوى حياة تلك المخلوقات فيتعبد ويتقرب لخالقه قولا وفعلا.

ولقد أكرمه الله بنعمة الرضى، بحيث بات يتقلب في مسرات جمة ومنها مسرة السياحة والنزهة القلبية والتحليق في مدارت ملكوتية نتيجة متابعته الدؤوب في فضاءات القرآن والسنة والسلف الصالح.

لا يفتأ النورسي يتمتع بما تبثه أصوات السماء من أشرطة وتحقيقات وحصص ترفيه.

إنه يسجل أن الكائنات قاطبة تتمتع بتلك النعمة، نعمة السياحة في الأرجاء المفتوحة، فالكائنات تتفسح وتطالع في كتاب الملكوت جلائل إبداعات الخالق..

---

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠٣

(٢) الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤٠٤

(٣) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون٤٠٤

البلبل

حين يعالج النورسي وظيفة الحيوانات من خلال ممثلها البلبل وما ينهض به "باسم القبائل الحيوانية" من مأمورية التكليف، نراه -وهو يعدد غايات تلك الوظيفة- يتجاوز البعد الروحي الذي طالما توقفت عنده الذهنية الوعظية المدرسية، إذ النورسي يحصي مقاصد ايكولوجية وثقافية زيادة عن المقاصد الروحية، ويطرحها أمام المتلقي إثراء لنظرة هذا المتلقي، ولا يكتفي بجانب واحد، لأنه يرى أن الوظيفة التسبيحية لا تنفصل عن باقي الوظائف الحيوية التي يفيد منها الكائن في هذه الحياة.

لقد حدد النورسي للبلبل غايات خمسا يستهدفها في تغريده التسبيحي، حيث " يستخدم الفاطر الجليل ذلك الحيوان الصغير ويستعمله في خمس غايات هي:

(ا) تأكيد الصلة بين عالمي النباتات والحيوانات، فعلاقتهما عضوية ومتبادلة.

(ب) إشاعة جو من البهجة والاستبشار باسم الحيوانات الأخرى ونيابة عنها، امتنانا بما تتلقى من حظوظ رزقها على نحو مضمون ووفير.

(ج) شكر الطبيعة النباتية على ما تمد به عالم الحيوانات من خيرات.

(د) الإعلان عن تواصل مباهج الطبيعة وتواشج علاقة الفصائل النباتية والحيوانية، وتجاذب الأصناف الجميلة فيما بين الجنسين النباتي والحيواني.

(هـ) النهوض بواجب الحمد والتسبيح الذي اقتضاه الخالق من مخلوقاته.

هكذا يحيط النورسي ومن جميع الجوانب بالعلاقة الجامعة بين الحيوان والنبات، وينفذ إلى صميمها، فيستظهر للقارئ ترابطات لم يكن يقدرها أو يتصورها، والنورسي إذ يفعل ذلك، فلأجل أن يوعز للإنسان بمدى تلاحم قوى الكون وظواهره، ومدى ما لذلك التواشج العضوي من دلالة على واحدية الخالق وانبساط سلطانه على كل ما خلق.

يرى النورسي في طائر البلبل مثالا للعشق والترقي، فبالتغريد يستحصل هذا المخلوق الوديع خصيصة الذوق، وكذا الإنسان بالرياضة الروحية العروجية يكتسب الذوق والبصيرة.

فمن خلال ما يقرأ به علاقة طائر البلبل مع المحيط يخبرنا النورسي عن خطة ذاتية من العشق والهيام سامية ومثمرة، فكما البلبل في علاقته العشقية بالنباتات الجميلة يعكس حاجة

جنس الحيوانات إلى النباتات، وهي حاجة عشقية جبلية[1]، كذلك هو حال النورسي، حيث تعلقُه بمظاهر الملكوت كان من القوة والمردودية ما استعاض به عن كل مبتغى سوى الله.

ومن الثابت أن الفكر المادي يعلل قيام مثل هذا العلاقة العشقية بين البلبل والنباتات بالوازع الحيوي المحض، فالوازع الإستهلاكي–بحسب المنظور المادي–هو أساس الترابط بين الكائنات، ولا مكان هناك لرقة أو رحمة في علاقة الكائنات ببعضها، لأن الرؤية المادية مستغلظة بما حصرت فيه نظرها من شيئية كما سنرى ذلك لاحقا..إن علاقة الحب بحسب رؤيتهم تنطوي على إرادة الاستملاك، الاغتصاب، الفوقية، الصراعية إلخ..

بل إننا نجد النورسي قد ترجم هذا العشق الذي يملأ قلب البلبل (عاشق الأزهار)، بأرق العبارات، مبينا أن تغريده إنما هو وظيفة تعبدية، إذ هو يقدم ألطف تسبيح إلى ديوان رحمة مالك الملك ذي الحلال في ألطف شوق ووجد"[2]. وإذا كانت هذه هي حال البلبل وتتيمه إزاء خالقه، فما بالك بحال الإنسان" الإنسان هو أكثر جامعية من الملائكة"[3]!

بل إن ملاحظات النورسي عن البلبل لتفيدنا في معرفة الأسس التي ينشأ عنها الذوق وينمو.. فالذوق هو حاصل فعل التعلق الروحي بمواطن الجمال الكوني الحسي والمعنوي، بل هو إسباغ عاطفة العشق على تلك المواطن بنحو تصعيدي ومستديم..

لا ريب أن تجربة النورسي في علاقته بالطبيعة وبالانفساح والصفاء والحرية (إذ سكن على رأس شجرة في بارلا، وعاش في منافيه على ذرا الجبال وقممها، يتفيأ الظلال الخضراء ويتدثر بأردية الشمس) قد جعلته يتيقن مما للجمال الكوني من قدرة على ترهيف المشاعر، بل قادته إلى أن يكتشف الأهمية التي للطبيعة في إنماء القوى الوجدانية وخاصة الذوق..

ولا جرم أن مظاهر الفتنة والسحر تنعكس على مشاهد الكون من حولنا، في أضوائه وظلاله، في صمته وإفصاحه، حيث لكلِّ آنٍ حالة أسرة تتكشف عنها الطبيعة وتتفجر بها محاسنها بهجة ووسامة، ومن شأن كهرباء الحسن في الطبيعة، إذا ما فاعلت الروح أن تُورثها خصائص امتياز ذوقي غير خفية، أليس أهل الوجد ينالون الرقة من إدمان التلاوة وإدامة الإنشاد والرقص ومن الإقامة المستمرة تحت تأثير أَحَرِّ التأوهات وأعذب الترنمات وأَحَنِّ الإيقاعات؟.

---

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون٤٠٦

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون٤٠٦

(٣) الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون٤١٠

فكذلك حال المسبحين، ممن يستغرقهم الغطس في لجج الجمال الملكوتي المشهود، فإنهم يرثون عن ذلك لطافة متأودة ورهافة متمكنة رغم ظاهر خشونة السمت الذي يبدون عليه..

ولقد كان النورسي واحدا من هؤلاء السباحين المرابطين على شاطئ الطبيعة العذراء، المسبحين لله من خلال التغني بمفاتن جلاله الكوني..

بلبلا مغردا رخيم الصوت كان النورسي، لذا أحس بمدى نفاسة الغنم الناتج عن مداومة التغريد، فلا بدع والحال تلك، أن نراه يفتأ يؤكد البعد الترقيقي للطبيعة متى أدمن الإنسان مفاعلتَها بالحس الطاهر والبصيرة المتواجدة.. فما دام تَمَلِّي الكون والتأمل في جمالاته عبادةً، فلا بدع أن يَعْتَبر النورسي ما كان يستحصله من لذة في صفحة الكون وما يتذوقه من آيات الجمال والروعة منها هو استحقاق أجري (وراتب) جزئي، خالص له على ما يؤدي من فعل تعبدي، " أما مرتب ذلك البلبل ومكافأته الجزئية فهي الذوق الذي يحصل عليه من مشاهدة تبسم الأزهار الجميلة والتلذذ الذي يحصل عليه من محاورتها[1]"..

لقد أودع الله في كل كائن ذوقا خاصا ولذة مخصوصة كمرتب ومكافأة أولية ينالها جزاء الخدمة وتحقيق المهام والغايات المنوطة به، إنه قانون يسري على عوالم النباتات والحشرات والبشر وعلى جنس الروحانيين..

الأسماء الحسنى الوظيفة والتحقق (السيرة الذاتية).

إن النورسي يضع التصورات التي تتمثل فيها أفكاره.. ولا يزال ينوع من التصاميم التي تجسد تلك التصورات، فهو لا يكتفي بالقول إن الأمر كله من شأن الله ومشيئته، كلا، إنه يدقق في المسألة فيقرر أن الله الواحد الفرد متجسد في مالا نهاية من الفاعليات، وتستفسر كيف؟ فيأتي الجواب: من خلال أسمائه الحسنى، وتجد نفسك أنت المتكيف على منطق الزمان والمكان والنسبية الحضورية في الفضاء، تتساءل، أنَّى للذات الإلهية أن تغطي كل أحداث الكون في وقت واحد؟ ويأتيك الرد تارة أخرى يبسط أمامك العملية بشكل حسي، كل اسم من تلك الأسماء الجُلَّى موكولةٌ إليه وظيفةٌ مخصوصة، فالاسم الشافي مثلا للأمور الصحية، والعافي للعافية، والحكيم للحكمة، والقدير للقدرة، والكريم للجود، والرزاق للرزق وهكذا..

(١) الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون٤٠٧

وأن كل اسم منها يتلازم مع طائفة من أسماء أخرى مساعدة، تمضي بالحظ المقسوم إلى منتهاه وبالأمر المكتوب إلى غايته.. فهناك تظافر في كل شأن من شؤون الحياة بين الاسم الموكل بالحظ المخصوص، وبين بقية الأسماء بوصفهم مساعدين..

هكذا يتمثل النورسي الحضرة والحضورية، فالله نور، يشمل بواسطة قدسية الأسماء الحسنى ملكوته، ويتولى التنشئة والإدارة والتصرف بكيفية مطلقة وفي كافة مظاهر ملكوته، لا تشغله حاجة عن حاجة، فدفء الشمس حين يغمر البسيطة لا يرتب نوبات وأدوارا وحصصا لملايير الأجناس والفصائل من الكائنات، وإنما يغمرها دفعة واحدة، ويزودها جميعا وفي ذات الآن بتغذية في منتهى الدقة، كل حسب استعداده، بحيث تشتد قوة الاحتراق إلى ذروة الدرجات مع هذا العنصر، وتفتر درجة الحرارة أو تتجمد إلى درجة التثلج مع ذاك العنصر، رغم أن مصدر الطاقة واحد، والصعيد واحد، والجيرة بين الاثنين قائمة..

يترجَّحُ في كل مظهرٍ ومَنْشَطٍ وجودي، فردي أو جمعي، حضورٌ لاسم من أسماء الله الحسنى يكون له الأمر والتصرف، وتنضوي بقية الأسماء تحت نفوذه، تنهض إلى جانبه بما يسند إليها من مهمة في إطار إدارة وتفعيل شؤون الشيء الموكل به ذلك الاسم القدسي (كل واحد منها خزينة معنوية خفية)[1]. ولكل اسم رجاحة وظيفية هو بها أولى، "ثم إن ذلك الاسم له تجلٍّ خاصٌّ وربوبية خاصة في كل طبقات المخلوقات"، " إلا أنه متوجه بقصد وبأهمية بالغة إلى شيء ما، حتى كأنه متوجه فقط وبالذات إلى ذلك الشيء، وكأنه خاص بذلك الشيء"[2].. هكذا، ومن ذلك الاسم المخصوص تسري مشيئة الربوبية في سائر الظواهر والعناصر والكينونات المتجانسة في ذات الخاصية، يديرها بِعامة، وبحكمة من يتولى إدارة كل شيء على حدة، وبمخصوصية انفرادية.

يعرض علينا النورسي تجربته في استقراء علامات التوحيد وتجلياتها الناطقة في الكون[3]، فيقرر أن استجلاء معنى الربوبية في الآفاق لابد أن يتحقق بإدراك لا يفصل في الظاهرة بين جوانب القدرة والعلم الإلهيين، وإلا كان إدراكا ناقصا وغير مفيد من حيث توطيد شعور اليقينية في النفس.. فالظواهر من حولنا مَعارض تمدنا برسائل نقرأ فيها تجليات الربوبية

(١) الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧٢
(٢) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧٦
(٣) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧٧

كما انتقشت على الأشياء المُحَسَّة والمعنوية بفعل الأسماء الحسنى.. ففي كل معلم كوني ووجودي تلوح لوحة نور تلتمع وتعلن عن ربوبية الخالق ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾.

وتنعقد صلة النورسي بالحيوانات، ونجده يترصد بعض فصائلها بنفس منهج علماء البيئة الذين درسوا فطرة الحيوان وتتبعوا سلوكه وعرفوا طباعه وتصرفاته الغريزية، لكن النورسي في احتكاكه بعالم الحيوان يركز التنقيب على جانب مفرد ظل ديدنه في كل تأملاته وتدبراته، هو الجانب الروحي، المعنوي.. كيف يعكس هذا الكائن اللاناطق، اللاعاقل، قيم الوحدانية، وكيف تتجلى فيه مظاهر الربوبية؟ فالقط يغدو مجال تأمل، يستقرئ فيه النورسي آيات الطاعة والتسليم، ولا يلبث أن يجد نفسه يتساءل لِمَ كان هذا الصنف من العجماوات مباركا؟

إنه مجال آخر تنعطف إليه الروح للتدبر واستلهام الرضى واليقين..

وفي الليل يجد النورسي نفسه يجتمع هو والقط على وساد واحد..إنها دون ريب ليست المرة الأولى التي يجتمع فيها الرأسان على صعيد واحد، (أنا أتصور أن النورسي كان يعايش في خلواته سوام وهوام بذات الصلة الدافئة التي كانت له مع القطة، وإن هناك اماءات لسيرة أخرى جلية الملامح في الرسائل يمكن أن يكتب عنها في هذا المجال)، لكنها بالتأكيد كانت المناسبة الملائمة التي تجد فيها النفس ذاتها وجها لوجه مع الكشف، إذ سرعان ما تلقَفُ حواس النورسي من أنفاس القط همهمة ذكر وتسبيح على أفصح ما تكون دلالة، ولا يسع النورسي آنئذ إلا أن ينتصب في فراشه ويشاطر القط في ورده، فيدخل الحلقة، تجتاحه السعادة باكتشاف هذا الشريك ليس في الوحدة فقط، ولكن في أداء الرواتب والفروض..

إنما العبرة في كل ذلك أن النورسي أبى أن يفَوِّتَ على نفسه استخلاص مزيد من الحجج في هذا الموقف.. لقد بادر يستدرك على نفسه ويعيدها إلى الصواب، على ما كان ساورها من خواطر ظلمت رفيقه (القط) واستخفت بقدره.. لقد خطر للنورسي في وقت سابق أن القطط ليس لها حظ من روحانية، لكنه ها هو الآن يكتشف الحقيقة، إذ سمع رفيقه يؤدي بلسان الفصاحة فرضه التسبيحي بكامل الانهماك..

وطبيعي أن تغدو كل واقعة استكشاف مجالا لاستخلاص الدليل وتقوية اليقين.. وكل ذلك أفضى بالنورسي إلى أن يضع يده على منظومة قوانين كفلت له أن يقرأ معاني الوحدة والكثرة، والواحدية والإطلاقية، في الظواهر، ولعل القول بفاعلية الأسماء الحسنى كان ركنا في هذه المنظومة القانونية النورية.

فـ"قانون التعاكس في الأسماء والتداخل في التمثلات والتمازج في العناوين والتشابه في التصرفات والتعاضد في الربوبيات لزم البتة لمن عرفه سبحانه في واحد مما مر من الأسماء والعناوين والربوبية، ألا ينكر سائر الأسماء والعناوين والشؤون، بل يفهم بداهة أنه هو هو[1]".

فمن استنطاق الظاهرة الواحدة وتحسسها يعمم النورسي رؤيته ويستجلي من خلالها شواهد أخرى يقينية، وهكذا نجده -وفي ضوء تسبيح القط وترديده اسم الله العلي (يا رحيم)- قرأ دعاءً آخر يصطنعه الربيع من خلال لسان أزهاره وأنواره.. بل ويقرأ أدعية أخرى يشهدها في تقاطيع وجه الليل، وفي ملامح البحر وعلى جبين الجبل، ويستجلي أدعية وتسابيح لا تحصى وبألسنة لا تعد في سحنة الصحراء البهية، وفي عيون الغابة الوطفاء، ووجه الإنسان.. فإن فاتت الإنسان الغافل وعمي عن إدراكها، لا محالة يقرؤها غيره في تجلياتها وعناوينها تلك.

وكما كان الحس البصري مجالا للقراءة المعتبِرة، كان أيضا الحس السمعي مجالا للتلقي والتمتع. فالشاشة الكونية ترسل على الدوام رسائلها بالشفرة المجسمة، وسانفونية الأرض والسماء تبعث بأصداء ناطقة، بل لها هارمونيك من تسابيح ترددها ألسنة الأشياء "وكأن الكون كله موسيقى متناغمة الألحان لذكر عظيم، فامتزاج أصغر نغمة وأوطئها مع أعظم نغمة وأعلاها ينتج لحنا لطيفا مهيبا[2]".

السيرة

لا ريب أن هناك ملحمة من الوقائع الروحية تتبطن الكلمات، وتنجم من ثرى النصوص، وتستفيض من ثنايا الكلمات، هي من صميم السيرة الروحية للنورسي.

ويمكن القول إن استشرافات النورسي الميتافيزيقية هي جزء عضوي من حياته الباطنية، طفق يكشف عنها في تلك الصور الاستجلائية المتموضعة في الشعور وخارج الشعور كما وردت في الرسائل..

إنها ليست مجرد أصداءٍ لأحلام أو تهيوآت ولَّدتها العزلةُ، فلو لم تُفْرَض العزلةُ على النورسي كُرها، لطلبها خِيارا، لأن في تركيبته الروحية استعدادا للتبتل، وليت شعري هل يسلم أي متفوق من وازع التبتل؟ إنما المؤكد أن النورسي كان يجد في الوحدة رخصة إلهية

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧٦

(٢) الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧٨

ليمارس العروجات القصية، فلذا حفلت الرسائل بمعازيف من الوجْد هي نفْثٌ بَوْحِيٌّ طاهرٌ يُسجِّل في تراجيعه سيرةً كاملة هي الحياة الحق للنورسي..

فنصوص الرسائل هي استبصارات خالصة تعكس عوالم الروح والغيب والما فوق على ذلك النحو، لأن مجال طلْعات الروح هو الآفاق العلوية، تستشرفُها في صورة تمثلات واستبصارات وعوالم ذهنية حسية ومجسدة على نحو مشهود، ذلك لأن الروح حين تشارف الماوراء، فإنها تجد نفسها تفتقد اللسان المناسب للإعراب عما ترى وما تحس، لذا هي تسعى إلى القبض على الحقيقة الماورائية بكل سبيل، ولا تملك إلا أن تترسَّمُها على ذلك النحو الذي هو في واقع الأمر تماهي الذات وتجلي الروح في تماسِّها مع المعاني العلوية والحقائق الغيبية.

من هنا يمكن أن نعتبر أن الاستشراقات التي تداولتها الرسائل كانت جزءا من صحائف الذات، فهي عبادات أو آثار عبادات تتعاطاها الروح وتمارس من خلالها الارتحال وشق الآماد النائية.

بل لقد كانت تلك هي حاله أيضا مع الشواهد والافتراضات التي لبث يستحضرها لعرض أفكاره، فضمن دائرة الفرضيات التي طفق يطرحها تمثيلا لمستويات من التواصل والتفاعل الروحي والغيبي، نجد تجربته الذاتية تطل علينا..

والنورسي يتحدث عن وظيفة الاستشراف (التسامي)، ويحدد لها أحوالا من الشفوف تمكِّنها من تحقيق الترقي المعنوي، وقاعدة الشفوف هي التجرد، فالنفس لا يعيقها عن الارتفاع إلى المعالى إلا انغراسها في وحل أنانيتها..وذلك ما نبَّه النورسي إليه حين تحدث عن الزهرة، فالزهرة تعجز عن رؤية عين الشمس لأنها –الزهرة- مرآة كثيفة، ألوان الضياء السبعة تتكسر فيها، فلكي ترى وجه الشمس عليها أن تتخلص من الغرور، وتكف عن الاستغراق الأخرق في محاسن الذات، " فيا من تشبه الزهرة أنت تمضي في سلوكك، ولكن امضِ وأنت زهرة.. وها قد مضيت، وقد ترقيت تدريجيا حتى بلغت مرتبة كلية (إنه يتحدث عن نفسه حديث الزجر والتنبيه) كأنك أصبحت بمثابة كل الأزهار، بينما الزهرة مرآة كثيفة، فألوان الضياء السبعة تتكسر وتتحلل فيها، فتخفي صورة الشمس المنعكسة، فلن توفق إلى رؤية وجه محبوبك الشمس، لأن الألوان المقيدة والخصائص تُشتت ضوء الشمس، وتُسدل الحجاب دونه، فيحجب ما وراءه، فأنت في هذه الحالة لن تنجو من الفراقات الناشئة من

توسط الصور والبرازخ، ولكن النجاة بشرط واحد هو أن ..تكف نظرك المستمتع بمحاسن نفسك، والمغتر بها، وتحدقه في وجه الشمس التي هي في كبد السماء"[1]..

إن الرسائل تجاهد لكي تبلغ مستوى الشفوف الروحي العذب، فهي رياضة تنشد بلوغ درجة الفناء لتحيى في المطلق، لذا نراها تراوح بين مقامات الحلقة والذكر، وبين أحوال العروج والتجنيح.. ليس التسبيح إلا سباحة في لجج المطلق، حيث تتحلل كل عقدة من كينونة الفرد، ويضحى الفرد سيولة من الذرات تطفح على موجات من الهباء، تتلاطمه تيارات الغربة والغيبوبة والانشطار..

وحين يرتد النورسي إلى الشاهد يقرأ (ويُقرئ غيره) فيه الشفرة التي تلقاها أثناء رحلاته، ويكشف عن المخاطرة الماتعة، فإنه يكون قد غادر منطقة الأنوار[2]، تلك التي تعاش بالحس والشعور وليس بالجسد والجوارح.. إن الرسائل هي جغرافية من التضاريس السامقة، يشارف النورسي من على قممها امتدادتِ المطلق، لكن المنظرَ يَتَمَنَّعُ عليه حين يطأ المنخفضَ، إلا طلعة السماء يظل بصرُه عالقا بها فلا يزال يشتحن بالذكر، ليقلع تارة أخرى، فيلحق بالذرى من جديد.

السيرة والكشف عن صفحات الذات، جزء من عملية التوعية والتوجيه

التجربة الشخصية، تجربة العمر، صعيد آخر يكشف النورسي عنه كلما اقتضى السياق (والحال) ذلك، لأجل توطيد القناعة وترسيخ الرسالة الإرشادية لدى القارئ، وليس لغرض التظاهر أو للدغدغة الذاتية..

فتجربة السجن شكلت إحداثية توجيه أحال إليها في أكثر من موطن، هنا التجربة تغدو وقائع مُوَضِّحة، تدعم المقام الاعتباري، وتعزز الجانب الروحي..لذا جاءت السيرة الذاتية متلاحمة مع السيرة الروحية، كلاهما جزء من الآخر، (في الكلمات، في صفحتي ١٦٦-١٦٧ يعترضنا سياق سردي مستل من الذاكرة، من سجل وقائع تجربة العمر، فيتم إدماجه وتوظيفه في التسديد الروحي، ويمضي الخطاب في استتمام موضوعه دون أن تحدث فيه تلك الانبثاقة

(١) الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٨٤

(٢) انظر مثلا ما جاء في الكلمات ص٦٤٧ الكلمة الثلاثون .

الخبرية الحميمة عطلا أو تنعطف بوجهته.. محطة اقتضت مصلحة الركاب التوقف عندها، ثم عاود القطار الإقلاع، لأن له وجهة مبرمجة، تتعقب جدولها وخارطة طريقها، فلا تشوش عليها العوارض.. ومن مستخلصاته من تجربة الواقع، إن لذة الحياة لذة مشوبة بألم وأن خلوص السعادة الدنيوية أمر وهمي لا حقيقة له، وأن الدنيا لا "تقدم إليك لذة بقدر حبة عنب إلا لتصفعك بعشر صفعات مؤلمات"[1]." فمادام الموت لا يفنى من الوجود.. فلا..شك بأن أسعد إنسان هو من يشكر ربه صابرا محتسبا في سجنه، مستغلا وقته أفضل استغلال، ساعيا لخدمة القرآن والإيمان مسترشدا برسائل النور"[2].

إن الحديث عن تجاربه-كما القضايا العامة- يسدد نحو البناء والإفادة والتثمير، وليس بقصد التنفيس المجاني والتعويض الرخيص، أو لأجل تصوير الذات في موقع الضحية استدرارا للتعاطف،كلا ولا هو جلد للذات، وهذه ميزة فارقة في أدب النورسي، إذ طالما اتخذت التجارب مادة إعراب تسويقي تشويقي، حيث يتم الحديث أكثر عن خلجات النفس من زاوية أنانيتها وغريزيتها وانفعاليتها (تحذيره البلبل، زجره للزهرة)، وليس من زاوية تساميها وتماسكها واستخلاصها للحكمة والموعظة التي تتقوى بها الشمائل في الإنسان..

إنه يصون نفسه عن أن تشتت مخزون الاعتصام فيها فيما لا يفيد، فهدفه في ما يكشف عنه من مشاعر وأفكار وخطرات حميمة، هو تزكية الرصيد الروحي والعقلي والمعنوي القادر على حل "حبال المضايقات"[3]

شعاره "أذكر ولا أشكو" وهو شعار يختزل فلسفة التحدي (تحدي المحبطات الباعثة على القنوط الموقع في الكفر)، ولفظة التحدي -كما هو معلوم- هي من المفردات التي وطدتها ثقافة الصراع الطبقي وروجت لها بين العالمين، فوجود الإنسان في الكون –حسْبهم-منوط بأن يكون متحديا للآخر، منتقما منه على ما ابتز من نعيم استأثر به.. فالرؤية هنا بطنية، فيما لفظ التحدي عند النورسي يتجه وجهة أخرى، وجهة باطنية، أي نحو الذات، نحو النفس المسترخَصة لأجل أن تتزكى وتتحلى بسيماء النبل في معركتها ضد المحبطات التي تصر على أن تقيد نظرها وتحصره في مطلب نيل اللقمة والمتع والشهوات المادية..

---

(١) الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٦٦

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٦٦

(٣) الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٦٨

لقد شاء لشعاره "أذكر ولا أشكو" أن يكون فلسفة وجود للمؤمنين، فالذكر من التذكر، من الاعتبار، وهو فعل اقتصادي يتم بمقتضاه توظيف مرصودات الروح ومخزونات النفس والعقل من وقائع الماضي وذكرياته لأجل دعم عملية مواجهة الحاضر، سدا لأبواب التراجع أو النكوص عن الموثق، موثق الانخراط في جهاد النفس.

وفي هذا السياق نراه يسن للفعل الصالح مسطرة تبرئه من الشوائب. بحيث لا يلقى الفعل مقبوليته إلا بشرط أن يكون مسنودا بروحية الالتزام العقدي أي بالعبادة وتأدية الفرائض لا سيما عمودها: الصلاة.. فمن يقدم خدمة إحسانية عليه أن يكون تقيا محافظا على صلاته، وأن يكون ذا قلب رحيم شفوق محب للإنسانية، وعليه -خاصة- أن يكون بعيدا عن أي تظاهر مغرض، فلا يكون ذا منة على أحد[1].

ما أكثر ما رأيناه يمس في كتاباته عصب الحساسية الإنسانية العميق، ويثير مشاعر آدمية غائرة في جذور الروح، فحين يتحدث عن فضائل الصفح وتجنب ثقافة الثأر، يعرض صورة للحال التي يخلقها التسامح لا يكاد يمر عليها القارئ دون أن تهزه حرارتها الشعورية الأصيلة.. يقول عن المسامح المتنازل عن حقه في الثأر:

لأنه لولا الصلح لعظمت تلك المصيبة الجزئية ودامت، بينما إذا تصالح الطرفان وتاب القاتل عن ذنبه واستمر على الدعاء للمقتول (انظر إلى هذه الخرجة الترشيدية، وهذا الإيعاز بالمستوى الذي ينبغي أن تبلغه توبة المذنب، فالنورسي يريد للجرح أن يندمل من العمق لا من السطح فقط) يضيف: فإن الطرفين يكسبان الكثير، حيث يدب الحب والتآلف بينهما (وآية خلوص هذا الحب، أن يتحول القاتل إلى مترحم دائم على قاتله، ومشارك له في ما يستحصل من أجر، ومستحضر له في ضميره كل حين، كي تنقطع نزعة الجرم من أساسها في ضمير المجتمع) يضيف: فيصفح هذا عن عدوه، ويعفو عنه واجدا أمامه إخوة أتقياء أبرارا بدلا من شقيق واحد راحل، ويستسلمان معا لقضاء الله وقدره[2]".

إن هذه الدعوة الوعظية لم تقتصر على تحفيز ذوي الحق على التنازل، وهو ما تدأب الدروس الباردة على فعله وتكراره، ولكنها دعوة فتحت أفقا من التفاعل والتلاحم والتسامي الذي لا يلح عليه الدين فحسب، ولكن تتطلع إليه المدنية وحياة التساكن البشري ومصالحهم

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٦٩

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٧٠

الحيوية، فالنورسي يتجاوز المطلب الوعظي إلى الدعوة إلى الانخراط في وضع من الأخوة الحقيقية التي تترتب عنها حتما فوائدُ تداوي الخسارة وتُفيض على العلاقة مكاسب لا تحسم الشر فقط، ولكنها تنمي شجرة باسقة من التعاون والاستنفاع والبركة.. وتلك هي مرامي القرآن.

على أن الروح التي عالج بها النورسي هذه العادة المفجعة التي طالما نَكَبَت الأسرَ والعشائر والجماعات، تظهر روحا رحيمة، وعلى قدر من الحنو والرأفة والتأسية، ما يغدو معه السياق يرشح بأحاسيس مؤثرة تنشب في قلب القارئ وتَعْلَقُ بضميره.. إن اشتحان الخطاب بالعاطفة والحكمة في مواقف التسرية والترشيد يقوي من درجة تحسيس المتلقي، فيلفى نفسه بإزاء عقل يحدو وقلب يحنو.. وتلك هي أعلى مستويات التبليغ التي تتحقق لمقامات التسديد النورية.

هناك شهامة مكينة لديه، تجعله يتقمص -طبعا لا تطبعا- صيغة الشمم والكبرياء التي بقدر ما تعني التأبي ورفض الهوان، تعني أيضا الحدب والشفقة على الإنسانية.. إن مواقف التردي الروحي والمعنوي هو ما يثير النورسي ويجرحه، فانتصاره المبدئي للكرامة الإنسانية يأبى عليه أن يهادن أي مظهر من مظاهر التسفل المعنوي..

أجل، النورسي يغضب للنفس حين تمتهن، ويغضب منها حين تهون أو ترضى بالهون[1].

الحياة موئل مليء بالعبثية وعدم الجدوى نتيجة استهتار الآدمي بالضوابط (آدم خالف الأمر فغوى).. ودور المؤمن أن ينفي عنها بواعث هذه العبثية وعدم الجدوى، ويجعلها-كما شاء لها الخالق- حياة جادة وذات نجاعة ومردودية (أم حسبتم أنما خلقناكم عبثا..).

هناك بطولة فطرية تحمله على أن يتصدى للشر بقوة، ودون هوادة، وإن جاءت الهَدَّة والهَبَّة عنده أحيانا متَّشِحة برداء التأني، لأن النورسي يقدر لسيفه موضع الحَزِّ، فلا يرضى أن تطيش ضربته أو تخطئ هدفها.

مجتمع مغلق مثل مجتمع السجن الذي يفترض فيه أن يكون مرحلة عابرة في حياة الإنسان المبتلى، حيث لا فائدة له في أن ينفق جهده به، إذ لا شأن ولا مجد يرجى في السجن، لكن النورسي يباشر بين الجدران ووراء القضبان دروسه، ويستمر في دعوته النورية، يستهدف المجرمين والقتلة والجانحين وغلاظ القلوب، تحدوه في ذلك روح الإصلاح

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٧١

والغيرة للكرامة الإنسانية المكلومة، ويحفزه وازع الثأر للنفس البشرية المبتلاة، والعمل على إعادة العزة إليها.. وتلك حال أخرى من التحدي الذي سار عليه النورسي، فهمَّة التغيير نحو الأصلح هي التي تحدوه إلى تفعيل فلسفته الإصلاحية أينما حل[1].

القدرة على تثوير المفاهيم

إن قدرة النورسي على تفنيد المسلمات المغلوطة ونقضها من الأساس، أمر ثابت ولا مرية فيه، وقد تَأَتَّى له ذلك نتيجة تعمق إيمانه من جهة، وبسبب قدرته العقلية التي تمتلك حس السيطرة على قناعاتها وتحصيف تلك القناعات ليس من منظور التعصب، وإنما من منظور التسليم للحق بالحق.. فالنورسي في أكثر مواطن السجال، يظهر وكأنه يتوجه بالحجة إلى ذاته، ليس لأنه محتاج إلى ما يصلِّب إرادته ويدعم رؤيته، كلا، ولكن لأنه يجد في تأكيد الحقيقة وتقريرها واجبا ومتعةً هي من قبيل تلك المتع التي يجدها صاحب الأوراد في ترديد أوراده أو المتسلي في ممارسة هوايته النبيلة..

في هذا السياق نراه يتحول-مثلا- بفكرة العدم والموت إلى فكرة مناقضة بديلة لها هي البقاء والخلود. والحقيقة أن النورسي بهذا التجديد للرؤية كان يباشر مهمة علاجية تغييرية تستهدف بعث الإنسان الجديد، واستنقاذ الإنسانية من بين فكي فلسفة الاستسلام الخاطئة وروحية التيئيس والعبث الماكرة.. مثل هذا العلاج يتطلع إليه كل إنسان تتأبى روحه أن ترى نفسها مجرد حادثة أوجدتها الصدفة، وأن حياتها وكفاحها وانحيازها إلى الفضيلة والخير في هذه الحياة ما هو إلا مسعي خائبا وتوهما وجوديا لا طائل من ورائه..

فأدهى ما يصدم الإنسان ذا الرجاحة أن يقال له حياتك مجرد واقعة عقيمة لا يترتب عنها (بَعْدُ) ولا تتولد منها ثمرة.. إذ لولا تشبع الإنسان بفرضية المابعد، لما استمرت الإنسانية على هذا الكوكب تكافح ضد ألوان الشر التي تعترضها، إذ ما قيمة أن يعيش الإنسان تحت وطأة الشعور بمآل العدمية.. إن أكبر باعث على الانتحار وعلى الكفر بالوجود أن يرى الإنسان مصيره آئلا إلى العدم.. إن ترسخ تقليد زيارة المقابر ليجسد هذا النزوع الفطري الراسخ إلى الدوام والبقاء والاستمرار.. والنورسي يتعدى بالمسألة إطارها النزوعي البحت، ويرسيها على علة الإيمان، إذ بالإيمان نحدد الوجهة، ونقيم العلامات التي تجنبنا التيه، فمن يؤمن بالله يضع

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٧١

يده على الحبل الوثيق فلا يضل ولا يشقى" انتساب الإنسان بالإيمان إلى القدير.. يبدل الأجل والموت من الإعدام الأبدي إلى تذكرة مرور، ورخصة إلى العالم الباقي"[1].

لقد (بنْيَنَ) حياته و(أثثها) بكيفية روحية وفكرية مبهجة، فالعزلة وهي –في الحقيقة– وطأة وجودية يُحْسَبُ مداها بالدقائق والساعات، لأن خلو الحياة من وجود المخاطب يجعلها كابوسا ينتهي بتجريد الفرد من إنسانيته.. قلت إن العزلة باتت لدى النورسي نعمة يمارس فيها سياحة الفكر والتبتل، وبات الفراغ من حوله صحيفة يخلو إليها بحرص، ويطالع فيها جديد التجليات.. من هنا تساوت لديه المحطات، فسواء أكان تحت الحجر الجبري أم كان في الزنزانة، فإن علاقته بالكون تجاوزت منطق الاجتماع الذي اعتاده الناس ومارسوه في حياتهم من خلال جو التصرف وحرية تبادل المعاملات..

لقد هيأ الميكانيزمات الروحية التي اغتدى بها الأفق المصادر بحراب الرقابة ينفسح بصورة عجيبة، وتزايله الحدود المكانية الزمانية بحيث بات في وسع النورسي أن يرحل حيث شاء، على براق الروح الخارق، وأن يلتقي من يشاء، بل وتأتّى له أن يجلس إلى الجموع من الأخيار، وإلى الصفوة من الأبرار الذين عرفتهم الأمة في مسيرتها التاريخية، بل لقد أضحى يقفز على حواجز الزمن الحاضر ليرى منائر المستقبل السعيد وقد انتصبت خفاقة، وضاءة، مبشرة، وبذلك بات النورسي يتنقل بين محافل من الاستبشار، يستجلب من كل صوب حاجته من البهجة والغبطة والحبور، ما يعزز مسيرته، بل وأكثر من ذلك راح يلقن الناس والأجيال أبجديات علم الانعتاق، إذ اصطنع وسائط تواصلٍ هدَّ بها أسوار القمع.

ومما لا شك فيه أن إطلاقه اسم الرسائل على عمله الفكري، ليحمل دلالة معبرة هي أن المؤمن لا ينحجر، ولا تقهره قوى البغي، ولا تهمشه السياسات التعسفية أو تقصيه الإجراءات الظالمة.. فهو أبدا موصول برسائل التأييد والدعم والإسناد، إن لم تأته من الخلق، أتته من الخالق.

من هنا نرى أن النورسي قد بيّن للأجيال منهجا مميزا في كيفية تحقيق الخلاص وتجاوز التعقيدات.. وإن أهم ما يتحدى به الإنسان المصائب والأعداء أن يلوذ بخالقه، وأن يحول عبادته وتقواه إلى برنامج معراجي لا يحقق له هو شخصيا الإفلات من الجور فحسب، ولكن

(١) انظر الكلمات– الكلمة الثالثة عشرة ١٧٩

يسهم في إرساء روحية تفيد منها الأمة والأجيال في تعزيز كيانها المدني، وتطوير مقدراتها الروحية، وصيانة سيادتها، والسمو بإنسانيتها..

إن قدرته على تمثل الفرضيات الذهنية وصوْغها في إشكالات وشواهد عينية هي حقيقةٌ ثابتة تبينها مقارباته ورسائله.. إذ كثيرا ما نرى المعنى أخذ في ذهنه شكل قصة أو مثل أو واقعة تشريحية أو عملية مخبرية.. بل إنه لذو منزع هندسي رياضي، إذ بسبب مشربه العقلي لا يتردد أحيانا في أن يجسد أفكاره تجسيدا تخطيطيا.. من ذلك مثلا قوله: لو أراد شخص أن يضع نقطة معينة..على ورقة في مكان معين، فإن الأمر سهل، ولكن لو طلب منه وضع نقاط عدة في مواضع عدة في آن واحد، فالأمر يستشكل عليه ويختلط "[1].

لا ريب أن النورسي يريد أن يحدثنا هنا عن نظام السانكرونية والدياكرونية (التعاقب والتزامن) الذي هو أحد نواميس الكون، والمتحكم في ظواهر حياتية وبيولوجية مشهودة من حولنا..

إن آلية السير الأفقي والعرضي الذي تضبط حركة ونماء الظواهر الكونية والميكانيكية هي آلية أدخل في علم السيبارنتيك والربوتيك.. وإن النورسي حين يوطِّئ إلى موضوعه بهذا المدخل الحسابي، الهندسي، فإنما يريد أن يهيئ عقولنا إلى كيفية من التمثل والاستقبال رآها تلائم المادة التي يريد أن يعرضها والفكرة التي يشاء أن يقررها..

فمن هذه التوطئة التوضيحية البسيطة والملموسة التي تحاشت الخوضَ في إشكال النظريات والنظم العلمية المتعلقة بقانون السانكرونية والدياكرونية أو السيبارنتيك أو الروبوتيك أو ما أشبه ذلك، سنراه يتحول إلى طرح فرضية عقلية موصوله بإثبات قدرة الخالق من خلال تفكيك متن آية قرآنية باعتبارها موضوعا تطبيقيا للفكرة، إذ نراه وهو يحدد ضمير الجلالة (هو) في قوله تعالى (قل هو الله لا إله إلا هو..) يبدأ في بسط الرؤية، فيشد نظر القارئ إلى مجال قريب منه، إلى الهواء وذراته البخارية، ويُبين علاقتها –الذرات–بالتربة، وما يتجلى على أديم هذه التربة في كل حين من مظاهر الخلق والتكوين.

ومن تقديمه وشرحه لفكرته هذه، نتبين روح التفكير التي مر بها.. فما دام التراب (أو حفنة منه فقط كما يقول) قادرة على إنبات مئات النباتات المختلفة في نفس الآن، فلاشك أن

(١) الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٨١.

السر في ذلك يكمن إما في كون ذرات التراب تتصف بالقدرة الخارقة على التعامل مع البذور وجعلها تنبت على نحو متنوع، وإما أن تكون لتلك الحفنة مئات من المصانع الكامنة فيها، والتي بتضافرها تتمكن من تحقيق تلك العملية الإنباتية اللامحدودة الباهرة.. وإما أن لذرات التراب -التي تفاعل ملايير المظاهر الحيوية في الكون والطبيعة بهذا الفقه العجيب- علما خارقا في حبيباته يُمَكِّنُ من أن يُمرِّر الرسائل إلى أنواعها غير المحدودة، بتلك الكيفية المعجزة عبر مجرى الهواء..

فهذه الوظيفة الضبطية المتناهية في الهواء لا يمكن القول عنها إنها تتم بالصدفة وبالأسباب الطبيعية، لأن منطق الصدفة وتواطؤ الأسباب لا يقوم على مبدإ وطيد.. الصدفة والأسباب تعني أن النتائج لا تتم بالاطراد المنظم والاستمرارية الثابتة كالتي نرى عليها نظم الكون والطبيعة من حولنا، وإذن لا ينبغي إلا أن نتأكد أن الإرادة الخارقة التي تعمل بها عناصر التراب والهواء إنما هي إرادته (هو)، الخالق الذي هيأ لكل ذرة قابليات واستعدادات أناط بها عملا تأثيرياً معينا، ووظيفة تجعل من ظواهر الخلق الإلهي تتكرس على نحو أدق مما تنهض به المعامل مجتمعة والأجهزة المتكاتفة، فحفنة التراب تنقل وتحقق وظيفتها بسرعة البرق وبسهولة قيام ذرة واحدة بوظيفة من وظائفها وبيسر تلفظ كلمة هو"[1].

لا ينتهي النورسي عند هذا الحد، بل نراه يُعرِّج بالتحليل على عنصري الهواء والماء، ويستقرئ في وظيفتهما الدليل المنطقي على الحضورية الإلهية.(يمكننا الآن أن نعرف بداهة أن الحضورية في فكر النورسي تعني التفعيل القدسي الذي تمارسه علينا وعلى الكون أسماء الله الحسنى، وهو ما شرحناه سابقا). ومن تحليله لوظيفة التراب والهواء يستخلص القانون ذاته الذي في الماء، لا سيما ماء النطفة، وأن الخالق يكتب فيه بقلم القدرة ما يشاء"[2]

بل سنراه يستبين في قراءته لظاهرة الإنبات-التي قوامها ذرة من تراب ورشحة من ماء ونقيطة هواء- تجليات أخرى موصولة بالمعاني الكلية.. بحيث يخلص إلى التيقن من أن الهواء هو عرش عظيم يأتمر بالأمر الإلهي وإرادته الجليلة[3]. وأن الهواء هو صحيفة متبدلة يكتب الخالق فيها بعلمه المطلق قدرته وقدَره الذي يحركه بحكمته المطلقة. بل إن صحيفة

(١) انظر: الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٨٢

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٨٤

(٣) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٨٣

الهواء هي بمثابة لوحة محو وإثبات في علم التغير والتبدل للشؤون المسطرة في اللوح المحفوظ"[1]

بل إننا نراه وهو يتفحص الدقة الباهرة التي تحْكُم عالم الخلق والتوالد يطابق بين مُبرمِجات اللوح المحفوظ وعالم المثال، وبين ما جهز به الباري عز وجل الإنسان من قدرات نفاذه أودعها مخه، تحفظ وتستقرئ وتسدد وتختار وتمحو وتقيِّد و.. كل ذلك بآلية لا دخل للإنسان فيها، نفس الميكانيكا والروبوتيكا والسيبارنتيكا و.. التي تعمل بها ذرة التراب في استنبات النبت يعمل بها رأس الإنسان في مواجهة جبهات الحياة دفعة واحدة، إذ يعيش الإنسان حالة الاكتفاء من خلال توفر شرط التوازن فيه، سمعا وبصرا واكتفاء وارتياحا وحلما وعزما ومهادنة وتحسبا وتبييتا لنوايا ومطالب آنية وأخرى متوسطة، وثالثة مرجأة وهكذا.. فحاسوب رأسه يشتغل على مختلف الأصعدة، دون أن يكون للوعي حراس يسهرون عند عتبة كل مصنع من مصانع الحياة المبثوثة في جسم الإنسان، فكل تلك القدرات تشتغل ذاتيا لأنها محفوظة بِفرق مدوَامة من ذوي اختصاص، ونعني بهم الأسماء الحسنى..

لقد استدل النورسي على ثبوت حقيقة الغيب بما لاحظه من ترسانة قدرات وقابليات تجهز بها الإنسان وكفلتْ له أن يعيش سويا دون أن تتضارب وظائفه الحيوية " فالحجة القاطعة على وجود اللوح المحفوظ وعالم المثال ونموذجها المصغر هو ما في رأس الإنسان من قوة حافظة وما يملك من قوة الخيال، فمع أنهما لا تشغلان حجم حبة من خردل إلا أنهما تقومان بوظائفهما على أتم وجه، بلا اختلاط ولا التباس وفي انتظام كامل، واتقان تام، حتى كأنهما يحتفظان بمكتبة ضخمة جدا من المعلومات والوثائق مما يثبت لنا أن تينك القوتين نموذجان للوح المحفوظ وعالم المثال[2]".

من هذا كله يستنبط النورسي خُطاطةً لقانون الخَلْقِ الإلهي، فالباري يودع فهارس وجود وعقودِ مصيرِ كلِّ مخلوق في بذور ونطف ونوى وأصول وجينيات الأشياء والكائنات، وهذه الفهارس الوجودية تودع في ثمار الأشياء وبذيراتها. فحين تزرع البذرة تكون معبأة بذلك الدستور، وحين تغل البذور ثماراً تكون بذور هذه الثمار بدورها محملة بتلك الوثيقة الدستورية (البرنامج). هناك في كل بذرة كتابة إلهية هي فطرة الله والتي نسميها نحن (طبيعة

(١) الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٨٢

(٢) الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٨٣

الأشياء)، وإنما نمو الأشياء والكائنات هو مظهر لحكمة ربانية منفعلة مُسَطَّرة على وجه الأرض[1]، وهي تجلٍّ لما في اللوح المحفوظ..

النورسي يتخذ من مشهد التربة وعناصر التكوين فيها ماء- هواء، موضِّحة لتفسير فلسفة الخلق برمتها، فالخلق عنده ترقٍّ رتَّبَ له الخالقُ، حيث جعل ذروة الكمال مجسدا في الإنسان، لأنه كلفه وأناط به إرادة اختيارية يترقى بها أو يتسفل في الامتحان..

من ناحية أخرى ربط النورسي بين تَخَلُّق البذرة وتطورها عبر التحولات نحو الاكتمال والإثمار، وبين الإنسان الذي هو أيضا بذرة وسيرورة وإثمار طيّبٍ يتجسد في محصلة التقوى، أو إثمار مُرٍّ هو التردي في الجحود والخسران ..

ولقد اطمأنَّ إلى أن التنوع الذي يميز الكائنات في تجددها إنما هو صادر عن وحدة مهيمنة فرضت ماهيتها على الأشياء التي خلقتها وجبلتها على الاستجابة والعمل وفق النواميس التي تتحكم في الكائنات وفي تشكلهم وتطورهم ومصيريتهم.. وقَدَّر النورسي من هذا وذاك أن الدقة إذا كانت وطيدة وغير متذبذبة، هي نظام، وأن النظام لا يكون إلا إذا كان وراءه منظمٌ جبار في سلطانيته، إذ الصدفة، وإن اتسقت –افتراضا- واطَّردتْ حيناً ما، فهي غير قادرة بتاتا على الثبات وغير مضمونة الاستقرار، وأن المتوقع منها أن تخرج في أي لحظة عن مجرى الاطِّراد القويم إلى الفوضى واللامعقول، أي إلى العدم..(حياد أبسط ذرة عن مجراها الكوني ينشأ عنه الاندكاك الذي لوح به القرآن في قوله" إذا دكت الأرض دكا..).

أسلوب النورسي قرآني الروح، تغصيني السمْت

مما لا ريب فيه أن أسلوب النورسي متفرد، ولقد كررنا القول في مواطن عدة أنه متأثر بالقرآن، والذي نريد أن نؤكده هنا هو أن فكر النورسي يشِفُّ عن أسلوبه تماما كما أن أسلوبه يشف عن فكره، وبما أنه فكر تحليلي، فقد رأينا نزعة التوليد الجُمَلي تطبع خطابه، وهي نزعة لا تعهد في الخطاب القرآني إلا على نحو محدود[2]، لأن البيان القرآني أنزع إلى شعرية الحكمة، فهو إيجاز وجزالة.. فيما النورسي ينزع إلى مفهمة الأفكار، فهو ينثرها ويسبغ عليها شعريته المتميزة، إذ تتزاوج في ذائقته الإنشائية خاصيةُ التحليل التوليدي (النثرية) مع خاصية

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٨٦

(٢) راجع مثلا أطول آية في القرآن وتدبر هندستها ونَفَسَها.

التركيب الاستعاري (الشعرية)، فحديثه بواسطة الأمثلة التي يسوقها والتمثيلات التي يوردها هي في الواقع كنايات واستعارات وتوريات ..

إنها فاعليات استقطاب ذهني، أو هي مجاز فكري لا يستهدف تخدير القارئ وجعله تحت سيطرة الاستنامة العقيمة، وإنما هو بتشكيليته وتجمُّلِه يهدف إلى تشخيص المعنى وتقديم القضايا في صور ملونة زاهية وليست بيضاء وسوداء فقط، لأن التلوين[1] في خطاب النورسي هو جزء حيوي من عملية الإيضاح، وليس لعبةً تخْلِبُ وحِلْيةً تأسر ضعاف المدارك.. لذا نقول إن روح تكبير ومَجْهَرَةَ الحقائق الدقيقة تجعل النورسي يَتَّبع أسلوبا خطابيا انصهاريا، تُقَدَّمُ الفكرة فيه على بساط تشريحي، مُرَقَّق، إنه يعرضها مفصَّلة لا مجملة، وإن حرصه على التوسع والزيادة في الكشف والتجلية جعله يبني عددا من موضوعاته في شكل تذنيبات، وتنجيمات، وتضليعات.. لأن فكره لا يتوفر على الصبغة الرياضية البحت فحسب، ولكنه يغتني أيضا بالدفق الشعري، فلذا تراه لا يهمل النقطة في ما يرسم، وإنما يولد منها أبعادا تأخذ في الحاصل الأخير شكلا معبرا، وصيغة ناطقة، لأن الجزئيات لا تبقى جزئيات في منطق النورسي العقلي، وإنما تتحول إلى رؤى وكليات، كما أن الكليات لا تظل مطلقاتٍ مجردة، وإنما تتحول حين اللزوم الإثباتي إلى جزئيات ومفاهيم تدخل في تصنيع الماهيات الفكرية الجديدة، ذلك لأن رؤية النورسي كليانة، تنظر إلى الأشياء والعلائق بمنظار الشمول والتشخيص الطولي والعرضي. (أليس هذا بعض ما يقوم به جهاز الفحص سكانار)؟

لقد كان النورسي ينصح القراء بما كان هو نفسه يمارسه في مجال القراءة.

كان يقرأ صحائف الكون ويستقري سطور كتابه بصورة متواصلة ومعمقة، وغير مترددة في تغيير المواقف، مواقف الرؤية ، اطمئنانا على موضوعية الحقيقة..

وكان يرشدهم إلى المنهج الذي يتبعونه في فهم وإدراك المعاني الخفية " فلَكُم إذَنْ أن تقدروا مدى دلالة كتاب الكون الكبير العظيم الذي في كل كلمة منه معان جمة، وحِكم شتى، ومدى دلالة هذا القرآن الأكبر المجسم وهو العالم على بارئه سبحانه.. وذلك بمقتضى ما

---

(١) طالما شكا النورسي خامية أسلوبه.. وهي شكوى لا تعبر إلا عن حقيقة أبعد، إذ استنقاص النورسي لأسلوبه يدخل في روحية التذلل والاستهانة الذاتية التي هي لدى المحبين جزء من العملية العبدية.. فالأتقياء الورعون يعيشون حالة من الانكسار يعبرون عنها من خلال ما يبدون من مشاعر التدني، (إنه الامحاء) والتطلع الحميم إلى بلوغ الكمال الجوهري.

تقرأونه من علم حكمة الأشياء، أو فن القراءة والكتابة، وتناوله بمقياس أكبر وبالنظرة الواسعة إلى هذا الكون الكبير"[1].. من هذا المنظور التأملي، البيداغوجي، كان النورسي يجنح إلى استخدام الجمل الوارفة، والعبارات المسترسلة، والسطور المستطيلة، والسياقات المتشابكة كخط الختمة في لوح الصبي..

كيف يستشف أحوال المابعد

من خلال حديثه مثلا عن المتعة الجسدية في الدنيا والآخرة، يقَرِّب النورسي للناس معاني الآخرة، ويفتح عيونهم على حقائق الفطرة التي فطرهم الله عليها، فالباري جل وعلا أناط بالكائن الحي وظيفة وجودية هي التكاثر، وجهزه بالباعث الشهوي ليؤدي تلك الوظيفة، ذلك أن "العدل الإلهي ربط تحقيق الخدمة بما أودع في الجسم من لذائذ، بها يقوم الباعث على الخدمة"[2].

لقد خص الباري لذائذ تليق بالآلات الحيوية للكائن الحي، فآلات الجسد أكثرها يؤدي وظيفته الوجودية بالباعث الفطري، وما كان للتكاثر أن يقع لولا شهوة الباعث الغريزي التي فطر الله عليها الإنسان وجعلها تطلب الإشباع.

البنية العضوية للجسم في الآخرة غيرها في الجسم الدنيوي.

النورسي -ولغايات بيداغوجية تناضل ضد فكر المادة المنافي للعقيدة الغيب- يمارس إبداعا استشرافيا يبني فرضياته على الاجتهاد وعلى أساس من موازنة المغيب بالمشهود، موازنة ليست طباقية ولكن ارتقائية حسب منطق (ما لا عين رأت)... فالنورسي يعطي تمثُّلا استعاريا للكائن الآدمي ولملذاته وشَهِياتِهِ كما ستكون في عالم الآخرة " إن تعرض جسم حي للانقراض والموت في هذا العالم ناجم من اختلال موازنة الواردات والصرفيات..، فالواردات (تدوم) منذ الطفولة إلى سن الكمال، وبعد ذلك يزداد الاستهلاك، فتضيع الموازنة ويموت الكائن الحي، أما في عالم الأبدية فإن الذرات تبقى ثابتة لا تتعرض للتركيب والتحليل أو تستقر الموازنة "،

(١) الكلمات- الكلمة الثالثة عشرة ١٧٨

(٢) الكلمات-الكلمة الثامنة والعشرون٥٨٧

وبنفس التسديد يمضي بالموازنة إلى مجال نعم الآخرة ولذائذها، فيستنتج أن لذة الآخرة أرقى من لذة الدنيا

" فما دام الأكل والنكاح مدار لذائذ عجيبة ومتنوعة إلى هذا الحد في دار الألم هذه، فلا شك أن تلك اللذائذ تتخذ صورا رفيعة جدا وسامية جدا في دار اللذة والسعادة، وهي الجنة، فضلا عن لذة الأُجرة الأخروية للوظيفة الدنيوية التي تزيدها لذة "[1].

إن النورسي وهو يتوسع في طرح تمثلاته الغيبية، إنما يوسع من نطاق أدب الروح، وهو أدب يفرض نفسه لأنه يستجيب للحاجة الوجدانية لدى الطبقات العريضة من الأمة، إذ الإيمان ينشأ عنه مخيال غيبي ميتافيزيقي، لئن استطاع أهل العلم أن يؤطروا تحليقاته بمُوَجِّهات شرعية يستمدونها من النصوص ومن الثقافة الإيمانية التي لا جنوح فيها ولا شطط، فإن العامة ينجذبون وبصورة حريصة إلى تلك المناخات الغيبية، وكأنهم يستأنسون بها ويقوُّون إيمانهم من خلال استحضارها في خلدهم، لكن النورسي وهو يستشرف بأدبه متوقَّعاتِ هذا الحقل الماورئي، إنما يُحَكِّم في عمله ذلك ثقافةً شرعيةً تستمد وجاهتها من الأثر القدسي، قرآنا وحديثا وتراثا سلفيا موثقا، كيلا يتجَوَّز في ما لا يسوغ التجوز فيه.. وكي لا يضحى الخطاب مجرد وسيط إلهائي غير مسؤول ولا متقيد بالضوابط الشرعية الموضوعية..

سنراه يعطي لقلمه الفسحة حين يَسُوق المُوَضِّحات القصصية، ويُعمِل خيالَه في بناء تفاصيل القصص الوعظي بمكنة فنية معبرة.. لقد تأثل للنورسي في متن رسائله قطاعٌ من القصص ومن القصائد، يمكن إفراده على حدة، فهو من صميم الأدب السردي وأصيل النظم الشعري.. ذلك لأن النورسي يعرف متى يتيح لقلمه أن ينطلق ويجنح في مضمار التخيل والتصور والخلق، ومتى يكون الإدلاء بالبيانات مقيدا، ومقتصرا على المعلومات التي لا حجر عليها شرعا، ولا ضير من إيرادها عقلا..

لقد تورط أدبنا الروحي في الخرافة والأسطورة من خلال لوثة الإسرائيليات، وبدل أن تستقي الأمة منه ما ينشطها ويدعم قدراتها في مجال الإبداع والاستثمار الوجداني، أضحت مواد ذلك الأدب الفاسد علة مضافة لعلل طارئة ومتكاثرة لا تفتأ توطن في ضميرنا أسباب القصور والاندحار..

لقد رأيناه يخوض في عالم الملائكة والحشر ويفسر مجموعة من أحاديث الغيب، وكل

(١) الكلمات-الكلمة الثامنة والعشرون٥٨٧

ذلك إيمانا منه بأن تزهيد الناس في ثقافة الروح والكرامات والمعجزات، إنما يعني تجريدهم من استعداد حيوي تتماسك به الروح فلا تقع في الجفاف المعنوي الذي تسببه ثقافة المادة والكفر.

وهنا لا بد أن نؤكد ما للنورسي من قدرة على استدعاء الصور وأحوال التقابل التخيلي التي لا تكاد تخطر على البال، وأساس هذا الاستدعاء يقوم على مهارة الإستقراء وقانون الاطراد (الماء مسكن السمك.. فلهب الشمس يمكن أن يكون عالم مياه أجناس أخرى).. إن مثل هذه المعاينة العقلية القائمة على منطق المفارقة كثيرٌ في متن الرسائل، ويبدو أنها مادة وفيرة وفي متناول ذهن النورسي وقلمه.. وهي دون ريب تعبر عن نجابة مخيلته، ولا ريب أن استغلال هذه القدرة لديه، وبهذا الشكل الاستنتاجي لمما يثمن عملية العقلنة الروحية التي يستهدف بها النورسي ترقية مدارك المسلمين والقراء عامة..

إن هذه التجنيحات الروحية المستطرفة، تبدو جادة دائما، وهي أحيانا تأخذ صورة استنباط عقلي وأحيانا أخرى صيغة قانون حدسي لا يرده المنطق، لقد توسع النورسي مثلا في الحديث عن مسألة الخلود وفي كونه مآلا تؤكده التقديرات المنطقية والتقويمات المعقلنة، ثم رأيناه فجأة يطفر إلى تقرير حتمية وقوع هذا الوعد البعدي، بهذا الاستخلاص التقريري القاطع "الفطرة التي لا تكْذِب تعطي للوجدان حدسا على تحقق الحياة الأخرى"[1].

والعبارة بجزالتها المختزلة تذكرنا بفن التوقيعات السلطانية التي كان الملوك يؤمنون بها على الرسائل التي تصلهم، إذ كانت صيغة التوقيع حكما ناجزا لا مرد له، والنورسي هنا يضع توقيعه في قضية يريد لنفسه كما للمؤمنين أن يكفوا عن المراجعة فيها، لثبوت الحكم فيها.

تحت عنوان مسألة رمزية دقيقة نراه يسن قانون تغير الصور والأشكال، ويطرح فرضية مفادها أن الأشياء والحقائق تتعاكس مع صورها وأشكالها، فكلما شَفَّت الصورة غلظت الحقيقة التي تحويها تلك الصورة، والعكس أيضا، كلما رقت الحقيقة غلظت القشرة والشكل والصورة التي تحويها.. ومن إقراره بهذه الفرضية يخلص إلى الإعراب عن يقينه من مجيء الزمن الذي تتمزق فيه قشرة هذا العالم لتستبدل قشرة أخرى أجمل، ثم نراه يشهر آية تتوِّج طرحه وتعزز فكرته، والآية هي (يوم تبدل الأرض غير الأرض) فإذا وَقْعُ الآية ينتصب حجةً

(١) انظر الكلمات-الكلمة التاسعة والعشرون ٦١٦

تستصفي من روح المتلقي ما يكون علاها من مشاعر التشكك إزاء مقدمات تلك الفرضية والوجه التقريري الذي بسطت به.

لقد انتصبت الآية في سياق هذا العرض وغدت بمثابة النتيجة التي أفضت إليها مقدمات، لأن السياق الذي وظفها فيه النورسي سياق رؤيوي متسق الفقرات، فبرزت فيه الآية وكأنها تخرَّجَتْ تخرُّجا إثباتيا، تَحَوَّلَ بها الخطابُ من صيغة الإخبار إلى التبيين والبرهان، كما أن الآية في اطلالتها غير المنتظرة عبر السياق قد بدت وكأنها تتنزل للتو من اللوح المحفوظ، أو كأن النفس لم تقف عليها في النص القرآني من قبل.

ومن الثابت أن النورسي لا يشتغل على الآيات فحسب وإنما الآيات تُشغِله (وتشتغل عليه) كذلك، لذا تضيف قراءته للمنصوص القرآني تجليات أخرى لم يجرِ التواطؤ عليها في مدونات المفسرين والوعاظ.. فحتى أولئك النفر الذين يسعون للقراءة العِلمية للقرآن تراهم يجهدون في مطابقة حوافِّ الآية القرآنية على حواف الناجز العلمي، لأنهم يرون أن في تحقق المطابقة تتحقق الإنتصارية والنشوة..

أما النورسي، فنراه يستسلم للآية، يخلو بها، ويستمع إليها، وينساق معها في سرحاتها..

سلطان الآي عليه كبير، أفنى العمر في طلب الوصال، وكم له في المراودة من ليال وأيام، وكم شكى وبكى وهام على وجهه يستقرئ المراسم والأطلال، النورسي متيم، متوله، كَلِفٌ بالحور، في كل حين تتفرد به آية، فلا يفتأ يصاولها ويساجلها، ثم لا تكاد تتركه، حتى تثب أخرى بين يديه، فيرتد تارة أخرى إلى عتاده، يطوع المعنى ويستأنسه.

يصطنع للآية بيئة من فكره، ويوسع لها حدودا من استبصاراته، ويحدد لها خارطة دلالية من تحسساته، لذا رأيناه يؤكد أن عالم الرسائل ليس له شخصيا ولا هو منه، لأن النورسي الذي استلهم ما استلهم من معين القرآن وفكره، استطاع -بتوفيق من الله- أن يُعمِلَ هاضمتَهُ الإدراكية بصورة استيعابية ذروةٍ في التميز.. لقد جعلته تلك الطاقة التي صهر بها المعدن، وتلك الأناة التي عالج بها الجوهر، يسجل مسافة محسوسة بينه وبين النص القدسي، مسافة بعَّدَتْ بينه وبين القول بالحرفية، بل بعدت بينه وبين مجترات التفسير المدرسي، فكان الحاصل أن النورسي ظل يَرِدُ النبعَ[1] بقدر ما باعَدَ في التجنيح وتسامى في التحليق بمعاني

(١) فيما ظللنا نحن –يا للأسف–نحلق دون ورود !

الآيات.. هو أشبه بمن يصنع من الثمر مربىً شهيا، فيما يصنع غيره خلاًّ، فالاختلاف بينهما في درجة الصهر..

ومن شواهده التقريرية الجازمة حديثه عن موضوع الخلود ذاته: الكون يتفاعل فيه عنصرا السلب والإيجاب، ونتائج التفاعل سوف تصل إلى الأبد، حيث تتمايز، فتظهر في شكل جنة ونار، وإلى هناك ستصير العناصر الأساسية لعالمنا، وستحيا وتخلد"..

هكذا يسوق رؤيته في اندفاع، لأن الفكرة عايشته على مدى عقود، ونضجت، وأخذت شكلا قانونيا، هو ما عبرت عنه الإنشائية الحاسمة في هذا الخطاب.

أجل إن النورسي يتميز بهذه القدرة الاستثنائية على وضع التصورات –والموضِّحات– الفكرية وتَمَثُّل الحقائق الغيبية وصوغها في صورة أحكام وقوانين جازمة في مبناها، قاطعة في فحواها.

أسس معرفته

أُسُّ اعتقاداته وحججه هو القرآن وما يتفق مع القرآن من كتب سماوية، وشهادة الفطرة السليمة، وتجليات كتاب العظمة الربانية المفتوح، وتفعلات الأسماء الحسنى في الكون والكائنات، وما تخبرنا به الآيات التكوينية ومعجزات النبي(ص)، وما قرره واتفق معه فيه جميع الأنبياء والمرسلين والأصفياء والأولياء والصديقين..زيادة عن المعرفة التحصيلية والخبرة الشخصية واستهداءات العقل والفكر المرشدة.. كما إن للمحيط الزماني المكاني تأثيرا بالغا في محاكمات العقول"[1].

كما أن من وسائل الاستيثاق لديه موازينُ الحواس المغروزة في جسمك"[2]. ذلك أن معرفة الذات هي باب إلى معرفة الخالق، فمن خلال ميزان الصفات الذاتية التي جهز الله بها الإنسان، نتمكن من معرفة كمالات الخالق، فتلك الصفات والقدرات التي لدينا هي بمثابة نموذج مصغر يُسترشَدُ به إلى معرفة الصفات المطلقة للخالق[3].. وفي هذا الإطار ينصحنا النورسي بأن ندرك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقة بموازين العجز والضعف

(١) انظر الكلمات- الكلمة التاسعة عشرة ٢٥٦

(٢) انظر الكلمات-الكلمة الحادية عشرة ١٣٨

(٣) انظر الكلمات-الكلمة الحادية عشرة١٣٩

والفقر والحاجة المنطوية في نفوسنا[1].

ومن وسائل المعرفة أيضا، الفطرة، إذ الفطرة مفتاح لمغاليق المجهول، فالله شملنا برحمته الوارفة من خلال وازع الفطرة التي نستهدي بها إلى الخير والصلاح ونميز بين النافع والضار. ومفاتيح كنوز الفطرة هي توفيقات الخالق، وهذه التوفيقات تتجسد من خلال الأسماء الحسنى، فالفطرة مخزن لكنوز الأسماء الحسنى تفتحها الأجهزة المودعة في نفوسنا[2].

وينبغي أن يتوجه جماع هذه الخزائن القيمية نحو غايات مثلى وأن لا تهدر في استهلاك حظوظ تافهة. إن السعادة الإيمانية هي ما ينعكس على حياتك من التجليات الإلهية (الأسماء الحسنى) فأنت مرآة.

إن إدراك خطاب الكون وعالمه وظواهره، وشهود تسبيحاته، كان من روافد هذه المعرفة النورية التي تبلورت وارتقت من منزلة الإيمان العلمي إلى منزلة الإيمان اليقيني، إن الكون- هذا المعلم الأعظم ومدرسة المتحنفين-يلقننا معاني الاسترشاد إلى طريق الله.

القرآن

حين يعكف النورسي على بيان منهج القرآن في التبليغ، نستشعر أنه يوعز إلينا بمنهجه هو، لأن الصلة بينهما صلة تلميذ بالأستاذ[3].

ونراه من جهة أخرى يستثير قضايا إعجازية ويتصدى للرد على مطاعن شهرها المكذبون في وجه القرآن، من قبيل تنقيصهم في بلاغة القرآن و(وقوعه) في التكرار..

وفي هذا السياق نرى النورسي يطعن بدوره في بعض أحكام البلاغة القديمة لاسيما الحكم الذي كان يرى في (التكرار) علامة قصور.. والنورسي يؤكد أن الخطاب القرآني هو من غير جنس الأقوال التي يصيبها النشاز بوقوعها في التكرار، لأنه جنس يخرج عن معايير الأدبية كما تواضع عليها النقاد، إنه ذكر " والذكر يكرر، وهو دعاء والدعاء يردد، ودعوة والدعوة تؤكد"[4].

---

(١) انظر الكلمات-الكلمة الحادية عشرة١٣٩

(٢) انظر الكلمات-الكلمة الحادية عشرة١٣٨

(٣) يراجع مثلا : الكلمات- الكلمة الثلاثون ٦٤٨

(٤) انظر الكلمات-الكلمة التاسعة عشرة٢٦٥.

لا شك أن القارئ المتمرس بالبيان لا يملك حيال هذا التخريج إلا التسليم، إذ المؤكد أن القرآن يجسد كل تلك المناحي الخطابية التي أحصاها له النورسي[١]، وإنها لمناحي تقتضي بطبيعتها الاستمدادية التأكيد والمثابرة وإعادة طرق الباب المرة والثانية والثالثة على رجاء أن يقع الفتح..

والقرآن كما جاء نصا ينور الروح ويكمل العقل، جاء أيضا منهجا يرشد إلى سبل نيل الحاجات المعنوية، وبيداغوجية تعلمنا الكيفية التي نتواصل بها مع الخالق ربنا، وتلقننا المسلك الناجع الذي نتمرس به من أجل اتِّباع تعاليمه..

ومما لا شك فيه أن تكرارات القرآن إنما تعلمنا كيف ندأب على التذكر وعلى التحوط من الزلق، وعلى المداومة على الفرض وعلى الثبات والالتزام بالثوابت.."إذ في تكرر الذكر تنوير، وفي ترديد الدعاء تقرير، وفي تكرار الدعوة تأكيد"[٢].

من جهة أخرى نرى النورسي-ردا على من طعن في تعرض القرآن للأمور الجزئية هو الكلياني في مقاصده- يفسر مواقف يراها بعضهم أنها جزئيات، منها مثلا محاورة الخالق لإبليس.

يرى النورسي أن كشف القرآن عن موقف تلك المحاورة إنما كان الغاية منه هو تعليم الكائنات برمتها والنوع البشري قاطبة" [٣] وعلى هذا الاعتبار فإن ما يبدو جزئيات في القرآن العظيم إنما يندرج في المنحى التعليمي الذي لم يغفله الكتاب المبين.

في هذا الصدد نراه يوظف التعليل السوسيو انتروبولوجي في مسألة تفسير قصة ذبح البقرة من قبل بني إسرائيل، إذ يرى أن كشف القرآن عليها إنما كان بغرض إخبارنا عن الكيفية التي شاء الله أن يقلب بها صفحة عقيدة عبادة البقر التي تورط فيها بنو إسرائيل يوم كانوا جالية في مصر، إذ هناك تجردوا من عبادة الواحد الأحد، وسقطوا في غواية الجاهلية تأثرا بثقافة محيطهم المصري..

وفي نفس السياق الردي يقرر النورسي أن القرآن حين يلتفت إلى الجوانب التاريخية الجزئية فهو يبين دستورا كليا يتعلق بتغير ما بالنفوس من عقائد رسخها الزمن[٤].

---

(١) انظر الكلمات-الكلمة التاسعة عشرة٢٦٥

(٢) الكلمات-الكلمة التاسعة عشرة٢٦٥.

(٣) انظر الكلمات-الكلمة التاسعة عشرة ٢٧٠.

(٤) انظر الكلمات-الكلمة التاسعة عشرة ٢٧١.

إن طبيعة الأسلوب القرآني المبنية على شعرية الإيجاز، وطبيعته البيداغوجية الحريصة على لطف الإرشاد وحسن الإفهام، يقتضيان أن تعرض الحقائق الكلية والدساتير العامة في صور جزئية مألوفة للعوام وهم القاعدة العريضة من مخاطبي القرآن[1]، " لأنها الأسلوب المناسب الذي "لا يبين لأولئك البسطاء في تفكيرهم إلا طرفا من تلك الحقائق المعظمة، وصورا بسيطة[2]".

من ثمرات تجاربه التأملية

١- في مساحة من مخاطباته الشعرية تبدو الصلة بين السبب والمسبب ثابتة رغم أن هناك مسافة بينهما، ففي قوله " تشرق الأسماء الإلهية كالنجوم الساطعة"، هناك لعِبٌ مُلِذٌّ على مستوى البنية، وهو وجه طالما ازدهت البلاغة من صدده حسنا وجمالا، فالكائنات التي تشرق -عادة-هي النجوم، لكن النورسي فعَّلَ مبدأ استعاريا، فظهرت معادلة انزياحية غدا بها الفاعل الحقيقي تشبيها، والتشبيه الحقيقي فاعلا..

والأمر في هذا الترابط بين أسماء الله والنجوم واضح لعين النورسي، ولأجل إلقاء مزيد من الضوء على هذه الفكرة، يمضي النورسي في عملية التوضيح بإيراد صورة أخرى تتراءى لعينيه هي "اقتران أذيال السماء بالجبال المحيطة بالأفق، حتى ليتوهم النظر أنهما متلاصقان، والحقيقة غير ذلك"[3]..

إن الاستدلال هنا يعتمد على منطق تقابلي، فمن جهة هناك منظر الجبال وهي تلتصق بالسماء، حتى ليُرَى ذلك رؤية العين، ومن جهة أخرى هناك أسماء الله الحسنى تتجلى لعين النورسي الباطنية وكأنها من حيث الجلاوة والوضوح نجوم تسطع..

إن العنصر المجهول لنا في كل هذا هو أسماء الله الحسنى، لكن المعادلة الاستعارية التي بناها النورسي لها، اكتنفتها وجعلتها قيمةً ملموسة، فلكأننا أمام معادلة بمجهول واحد، فقيمة ذلك المجهول تتحدد بمجرد معرفتنا للقيم المترابطة معه في المعادلة.

وعلى مستوى آخر، يمكننا تحديد الموقع الإقليمي الذي أوعز للنورسي بهذه الصورة –

---

(١) انظر الكلمات-الكلمة التاسعة عشرة ٢٧٢

(٢) الكلمات-الكلمة العشرون ٢٧٢

(٣) انظر الكلمات- الكلمة الخامسة والعشرون ٤٩١

الفكرة(..التصاق أذيال السماء بالجبال المحيطة بالأفق..)..

هل نقول إن النورسي كان يجلس فعلا على ذروة جبل (جام)، ظاهر قرية بارلا، يقرأ ورده التأملي، ومن ذلك المكان ارتسمت له خطوط الكتلة الجبلية تلتصق بالسماء؟ لابد أن ذلك كان كذلك[1]، ولابد أنها خاطرة تخالج كل متدبر للمشهد الأفقي في تلابسه بالأرض، لكن ما يضفي على هذه الخاطرة طابع التميز هو تلك الحلة التصويرية التي أخرجها النورسي فيها.. السماء تسدل أذيالها على الأرض، فلفظ أذيال هو من الخصوصية واللطف ما يجعل الذهن يفكر في إسناده إلى كل شيء، إلى الغادة الساحرة، إلى النخلة، إلى الطاووس، إلى الفراشة، سوى السماء، ومع ذلك رسمت به مخيلة النورسي منظرا للسماء الجليلة، وركبت لها منه صورة في أحسن تقويم.

٢- في حديثه عن الشباب "حوار مع فريق من الشباب" يتخذ النورسي من علاقة الإنسان بالزمن محكا للاستدلال على زيف سعادة الانغماس، قياسا إلى سعادة الطهر التي يضمنها الدين ويُديمها، بحيث يعيشها الإنسان في الحياة رفعةً معنوية، ويعيشها أيضا رضى وحبورا مكينا تتبارك به زمنيته، إذ تخرج -بفضل اطمئنانه إلى تحقق الجزاء الآجل- عن منطق حساب مكاسب العمر، فتضحى الحياة شوطين، شوط عارض، منقض، وآخر يفضي إلى الأبدية..

إن مساحة السعادة ليست هي مذاقاتٍ وملذات تتوفر للمرء من حاضره أو من سوانح الحظوظ الراهنة القصيرة المدى كما هو الحال بالنسبة للمنغمسين، بل هي لذائذ تعبُر الماضي إلى المستقبل، لأنها منوطة بمُثُل تتعدى الوازع الظرفي والمطلب الجزئي العابر، والمتعة العارضة.. هكذا يمنطق النورسي رؤيته القرآنية للزمن بشطريه الماقبل والمابعد..

فالإيمان نور تستضاء به الأزمنة في أبعادها المنصرمة والراهنة والمستقبلة، وهو المعين الذي يمد روح المؤمن وقلبه" بأذواق معنوية وأنوار وجودية"..

إن الإيمان مقوم حاسم في صبغ الحياة بنعمة الرخاء المعنوي، وليس الإيمان -كما يزعم الملاحدة- بلادة روحية تغفل عن حركة التبدل والتغير التي تعرض للحياة وتعطيها وتائرها..

بل إن الإيمان ليشكل دافعية روحية تقوي من مشاعر الطمأنية وتكفل الانسجام والتكيف الإيجابي مع معطيات الحياة في كلياتها وجزئياتها..

---

(١) وربما كان ذلك في أماكن أخرى، والعبرة بالفحوى لا بالظرف

إن الفكر الجحودي ينتهي بالحكم على الحياة بالعبث، لأنه لا يرى له منفذا ولا أفقا ولا (مابعدا).

نرى النورسي وهو يعرض لحالة اغترار الشباب وحياة التحلل التي تغويهم، يلتفت إلى زاوية لا نكاد نلتفت إليها في تمثلنا للمغبة الشنيعة التي تنتظر المتحللين ممن ترديهم الغواية والغفلة..

إذ غالبا ما يتجه تصورنا -في تلك الحال- للعواقب وإلى الآخرة، أو في حالات أوسع تتجه إلى أحوال إفلاس تجربة الحياة، مالا واعتبارا وسعادة..

لكن النورسي يسلط الضوء على زاوية سنراها بؤرة اهتمام المعاصرين كلما تعلق الأمر بقضايا الشباب وأزماتهم، نقصد أحوال التردي النفسي والسيكولوجي التي باتت في حضارة العصر عنوانا على أصناف من الأمراض المزمنة المهددة لحياة المنحرفين، الأمر الذي جعل من ظاهرة الانهيار والانتحار والجنون هي المآل المفجع والنتيجة الضارية التي يجر التعساء إليها منطق المتعة وإدمان الملذات القاتلة ..

يقول النورسي:

نعم إن شئتم أن تتيقنوا من هذه النتائج فاسألوا المستشفيات والسجون والمقابر(إن لفظ المقابر هنا قد شكل شحنة للتحسيس والردع البيداغوجي ضمن متوالية مفزِعة عناصرُها المستشفى والسجن والمقبرة.. إنه منطق الوعد والوعيد الذي هو دستور القرآن في نهجه الترشيدي)..

يضيف: فستسمعون بلا شك من لسان حال المستشفيات الأنات والآهات والحسرات المنبعثة من أمراض نجمت من نزوات الشباب وإسرافهم في أمرهم، وستسمعون أيضا من السجون صيحات الأسى وأصوات الندم (هنا يتتابع الشريط عارضا محطات الموت والهلكة، فيتعزز الفعل التأثيري أكثر. وواضح أن المشهد هنا يتداول حوادث يدركها من عاش السجن واستقر فيه حينا، وإلا فإن من لم يعش تجربة الأسر قد لا يلتفت إلى عالم الزنزانة، فوعظه يغفل غالبا ما في داخل مرفق السجن، ويكتفي بتخويف المتلقي من مغبة أن تنتهي أيامه في الحبس.. لكن النورسي يستمد من التجربة الشخصية مادة توجيهه، فيميط الستار عن المشهد، فنعلم أن جو السجن ليس هو جو الصمت والحداد التعيسين فقط، ولكن هو أيضا صراخ يمزق الفضاء، وآهات تدمر الروح، وحسرات تتردد وتفضي للجنون..).

يضيف النورسي "وستعلمون أيضا أن أكثر ما يعذب المرء في قبره- ذلك العالم البرزخي الذي لا تهدأ أبوابه عن الانفتاح والانغلاق لكثرة الداخلين فيه[1]..(لا شك أن النورسي هنا يدرك أنه يَعْبُر بالقارئ إلى منطقة اللايقين حين سار به إلى القبر.. فلذلك غيَّر من معجمه واستخدم لغة (الماوراء) من خلال استخدام لفظ البرزخ.. ثم ركب بذلك صورة لا تغيب عن نظر أي مسافر في أي مطار حل، فردفات الأبواب في هذه المُرَكَّبات لا تكف لحظة عن الحركة، والنورسي إذ يختار هذه الصورة ليقابل بينها وبين القبر وعالم البرزخ، فلكي يأخذ المتلقي من منطق بداهته وواقعه.. وفي هذا وذاك تأتي استرتيجية توصيل مسدِّدة، تعرف متى تنعطف بذهن المتلقي، وبأي وسيط لغوي يتم ذلك، وفي أي مستوى تمثلي تظهر..).

ثم نراه ينصح الشباب بالعودة إلى خبرة الشيوخ والتأكد منهم عن حقيقة ما يحذرهم منه..

ومما لاشك فيه أن عملية اللفت هذه، هي في ذاتها قيمة تأثيرية محسوسة، ليس لأن الشباب سينصاع ويقوم بمراجعة الشيوخ فعلا، ولكن لأن استحضار معنى الشيخوخة في مقام تحذيري هو في حد ذاته ضرب من تصعيد الفعل الإيعازي.

إن لتوظيف لفظ الشيوخ في هذا السياق التقريعي فائدة عاجلة، هي إرسال مزيد من الفاعلية التحسيسية، إذ في مجرد ذكر الشيوخ تنبيه من شناعة المآل..

هكذا يرصد النورسي من خلال الفعل الخطابي مقومات يلسع بها قارئه، لسعا متعاقبا، ممعنا في الحدة.. مقوماتٌ تتضافر في مجموعها على نقل الفكرة الأخلاقية واستحداث الأثر الروحي والسيكولوجي..

لابد أن تأثيث هذا الموقف الكبحي بمُوَضِّحات تدرجَتْ في رسم بيانية من التنفير والتبشيع والتسفيه قد تَوَخَّى أحداث الصدمة والعلاج بالوخز، لأن الوعظ عن بُعد لا يكون له في الغالب إلا أثر وقتى ثم ينطفئ..

ومن المؤكد لو أن النورسي طُلِبَ إليه وضعُ روبورتاجا عن واقع الشباب المحبط، لما خرجت مناظر كاميراته عن هذه السينوبسيس، وعن هذه المؤسسات (المستشفى والسجن والمقبرة) التي يقترن ذكرها في الوجدان الإنساني، بالموت المعنوي والحسي على سواء..

(١) الكلمات-الكلمة الثالثة عشرة ١٦٣

وإنه لسيناريو جاهز هيأه النورسي للجمعيات المهتمة بالشباب ليس في عصره فقط، وإنما في عصرنا، وفي القابل.. فما على دوائر الإعلام[1] إلا أن تجري التحقيق بنفس المادة الحسية التي شخصها النورسي في هذا السياق (أصوات، أنين، أسى، ندم) وبنفس المادة الصورية (ردهات مستشفى، زنزنات، أسرة، مرضى محتضرون، نعوش، مقبرة، تشييع .. أبواب خربة يلعب بها الريح، إلخ..).. ثم لتتأمل في النتيجة بعد ذلك.

والملاحظ أننا نراه يردف الكلمة بـ(ذيل) يواصل فيه الحديث عن الشباب لكن من زاوية أخرى ومن أوضاع أخرى مرتبطة كلها بالانحرافات والجنح والجنايات، تمثلها حياة السجون، وهنا -في التذييل- نجد فقه إعادة التربية النوري يفتح نافذة استثمار ملطفة، مدعمة للمعنويات، مبعدة عن مخاطر القنوط، وذلك من خلال بيان ما للسجين التائب أو المظلوم من أجر وثواب.

٣-الرؤية العقلية عنده تتجاوز نطاق القضايا الاجتماعية والفكرية إلى الظواهر الروحية والمسائل التعبدية، حيث تأمَّلَ في عبادات أرستها السنةُ المحمدية مثل بعض العبادات الاستغاثية، ورأى فيها البعد التقربي وليس فقط البعد الاغتنامي، وهو بهذه الرؤية يظل وفيا لمبدإه الاحتسابي، إذ أن العبادة عنده ليس استزادة ومقايضة، وإلا كانت قضاء للحاجة ونشاطا بمقابل..

إنما العبادة عنده شكر على منحة الوجود، فكل الكائنات -لاسيما ذوات الأرواح- تعبد الخالق بجبلتها لأنها تحرص فطرةً على أن تعترف لموجد الوجود بالربوبية.

إن عبودية الإنسان تتكرس بالعبادة التي ينبغي أن تكون خالصة لوجه الله امتنانا على نعمة الوجود من جهة، وعلى تفضله على الآدميين بمنزلة التكريم.. فصلاة الاستسقاء عبادة وليست فقط قربانا لاستمطار الغيث، وإلا كانت تكون غير خالصة لوجه الله[2]. وكذا صلاة الغروب والكسوف، فهي ظواهر معروفة فلكيا، لكن علاميتُها تؤقت لميعاد عبادة يريدها الله من عباده..

لا ريب أن من مقاصد هذه الرؤية أن ترتفع بالمؤمن إلى مرتبة التجرد في مجال علاقته

---

(١) نقترح هنا قراءة سمعية بصرية غير مكلفة تجسد معالجات النورسي للأمراض المدنية.. الشيخوخة ، المرأة ، المرضى، التعليم، المنهج، الأفكار الشائكة من قبيل الجنسية والقومية إلى ما هنالك.. ينهض بها قطاع الاعلام السمعي البصري التابع للنوريين. وتكون اللغة مترجمة إلى لغات عالمية رئيسة.

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٥٧

بالخالق، إذ من دلائل سلامة الإيمان –عند الخاصة- أن يقوم المرء بوظيفة العبادة خالصة لله، بباعث الشكر المحض، وليس فقط بدافع التكليف.." لقد قبضتَ مقدما كل هذه الأجور والأثمان، ثم كُلِّفْتَ بالعبودية وهي خدمة لذيذة وطاعة طيبة، بل مريحة خفيفة، أفبعد هذا تتكاسلين عن أداء هذه الخدمة العظيمة المشرفة"؟

ومن الواضح أن هذه البيداغوجية تدفع في اتجاه اقتداء السلوك النبوي، ألم يجب ﷺ عائشة (رضي الله عنها) حين خاطبته في أمر مداومته الصلاة وقد غفر له ما تقدم من الذنب وما تأخر.. قائلا: أفلا أكون عبدا شكورا..

فهذه المرتبة المتوددة للخالق هي ما يريد النورسي للمؤمن أن ينشد بلوغها بإيمانه ومفروضاته وقرباته، وهي مرتبة طالما حرّض عليها الأتقياء من أهل التدقيق والتحقيق..

٤-فلسفة إناطة الأشياء والظواهر والوجود بإرادة الله، فلسفة راسخة لدى النورسي، مخالفا نهج الماديين، إذ هم ينيطون الوجود بالتاريخ.. الصيرورة تصنع الحوادث والظواهر والأشياء. وما حقيقة التاريخ يا ترى؟ هو هذه السيولة التي تراكم الأشياء -عللا ونتائج- وتمضي بها على طريق التحولات وفق مبدإ تحول الكم إلى نوع (ومنه نظرية البقاء والارتقاء الداروينية) لكن هذا التأليه للتاريخ، هو من جنس تأليه الصدفة(الصفة أوجدت الأشياء واطَّردت بها) فهل الصدفة عاقلة؟ وهل التاريخ كذلك؟ (قالوا عن الطبيعة إن لها نوعا من العقل؟ وهذا هو عين التلفيق)، إن العقل لا يقر للماهيات الصماء أن تنجز ظواهر عاقلة ومتسقة ومطردة الانتظام، بحيث لا يبدو للمتأمل في مسار الأشياء وطبيعتها عوجا ولا أمتا.

فالعقل لا يتقبل أن نرجع هذا الانتظام العجيب إلى اللاعقل، إلى المجازفة والاعتباط واللاإرادة، إلى الفوضى الخلاقة، لأن الفوضى إذا صادف وخلقت شيئا، فإنها تخلق مقطعا من الحوادث يمكن لها في نقطة ما أن تظهر على أنها متسقة، لكن هذا الاتساق لا يلبث أن يتبدد لأن مكونات الأشياء قبل تلك اللحظة المفصلية وبعدها تعود إلى حراكها الفوضوي بالضرورة وليس إلى تسديد مسبق.

أما إذا زعمنا بأن المسار ستنتظمه السببية والمنطقية منذ لحظة بلوغه ذلك الاتساق، فلا جرم أن الأمر يغدو في هذه الحالة مبرمجا مسبقا، حيث بدأ فوضى ثم تصاعد جانحا نحو الانتظام والاستواء، وهنا يثور لدينا سؤال مشروع هو: ما القوى التي انتهت به إلى تلك الحال من الانتظام والاتساق والعقل؟ إذا كانت هذه القوة هي الصدفة، فلابد أن لها منطقا وطبيعة

ارتقائية، إذ غادرت بالأشياء والعناصر والمكونات منطقة التشتت والسيبة وانتهت بها إلى منطقة التلاحم والملحمية المسترسلة في الزمان والفضاء..

أما إذا كانت هناك إرادة أخرى نابعة من طبيعة الأشياء ذاتها، فلابد أنها إرادة عاقلة أيضا لأنها عرفت كيف تنسق فيما بين عناصرها وتُزاوجها لتنشئ هذا النظام الكوني العجيب.. والأمر هنا كما هناك يوعز بأن هناك (وعيا) فاعلا، مهيمنا وراء كل هذا وذاك، والإنسان مُوكَل بأن يعرف هذا (الوعي)، ولما كانت وسائله محدودة بحكم بشريته، فليس له إلا أن يلتفت بجدية إلى هواتف الغيب، ومنهم الرسل والأنبياء، فيتقبل نداءاتهم وينصاع لدعواتهم ويعلن معهم أن للكون والوجود موجدا قديرا عالما حيا مريدا هو الله رب العالمين. وهذا بالذات ما ينتهي إليه النورسي.. فالانتظام السوي الدائم المسترسل، الجاري على ما يتبدى عليه الكون ونواميسه من وطادة وتوازن واستطراد، لا يكون إلا وليد إرادة عليا ومشيئة مطلقة وقدرة خارقة ومصدر أم، وهذه الأوصاف لا تحوزها إلا الذات العلية التي بيدها زمام الكون ومصيره، والتي يجد فيها أهل الإيمان التعليل الأوجه والتفسير الأقوم لحقيقة ما ينتظم الملكوت من دقة وإيجابية وكمال.

في نواة كل شيء وفي خلية كل كائن فهرس وبرنامج حياة، وسجِلّ بمسار ذلك الشيء، وحركته في الزمان والمكان، وتعميره وبقاؤه في بيئة ومدى معلومين. إن ما نقش في بؤرة ذلك الفهرس الجيني، الجرثومي، هو حضورية الله من خلال إشعاع الأسماء الحسنى التي تلابس الظواهر والكينونات وتعبئها بحاجتها الحيوية، وترسم لها وظيفتها، فأمر الحركة والسكون من شأنه عز وجل، وأجل كل كائن في كتاب لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

التمثيل بالشاهد عند النورسي هو بمثابة إزالة القشرة عن جسم الحقيقة، وعرض هذه الحقيقة على صورتها الداخلية..

والتماثل بين الحقائق في خطاب النورسي يتجاوز المستوى الشكلي الخارجي، لأنه يستهدف جوهر الأشياء.. ذلك لأن ثقافة التمثيل الوعظية -كما أدارها القاصرون- هي ثقافة العقل الكسلان، لأنها تتحرك في حدود المقابلة السطحية، وهو ما يتقبله العقل الحسي، لكن العقل العلمي يظل متعطشا إلى ما هو أبعد من الصورة، من الشكل، من السطح، إلى الجوهر والحقيقة الفاعلة.

والقرآن عرض إحداثيات الكون وأبعاده ومقوماته، رابطا إياها بالله خالقها، فهي معالم

أساسية تحيل على محرك الأحداث، والنورسي يماثل بين الإنسان والكون (العالمان الكبير والصغير)، لكن المماثلة لا تتوقف عند حد تعداد صفات خارجية مشتركة تحكم الكيانين، أنظمة وأجهزة ودورات وقدرات.. كلا، إنها تذهب إلى قراءة بواطن التكوين، هناك تذرير للقضايا، والمماثلة جوهرية من حيث بيان تشاكل الأشياء وتكوينها، وإبراز أن السر الجليل الذي يتحكم في الذرة هو ذاته الذي يتحكم في إدارة الكون مطلقا..

لا يقف الاستقراء النوري عن حد معاينة الشاخص المادي، بل يناضل بصورة متصاعدة من أجل الإشهار والإعلان عن المدرك الغيبي الذي هو سر الأسرار، هذا هو منتهى النظر الاستقرائي النوري.."الإنسان يشبه البذرة ..فلقد وهبت البذرة أجهزة لتتمكن من العمل داخل التربة"[1].

والكون المشهود يتوازى مع كون مغيب هو جوهر والآخر مجرد قشر.. فعالم الآخرة هو الأبقى، ولا تستقر سعادة الكائن إلا إذا كان لتجربة وجوده مصير بعدي، ومآل سرمدي.

ولا معنى لإيمان بربوبية لا تتكفل بالمابعد، ولا تستنقذ المربوبين من طائلة العدم.

الفنية في رسائل النور

-هناك ارتفاق[2] جزئي بين سردية الرسائل وسرديات تراثية خاضت في عالم الروح والغيب، مثل رسائل إخوان الصفا ومثيلاتها من مصادر الطرح الفكري والروحي كما مارسه الفلاسفة المسلمون لا سيما ابن سينا والفارابي وابن طفيل وغيرهم، وهذا التشاكل النصوصي لا يبدو على مستوى الفلسفة والروحية قطعا، فرسائل إخوان الصفا مثلا متحت من معين الفلسفة اليونانية ومن الغنوصية ومن تعاليم أهل الديانات الأخرى.

إن التقارب واقع على مستوى البنية السردية القصصية والخطاب التمثيلي التفهيمي (انظر مثلا قصة المدينة العظيمة وقصورها وفضاءاتها ونشاط أصحابها في الكلمات)[3].

يمكن القول إن النورسي قد سار في اتجاه استغلال المعطى الثقافي القصصي الذي كرسته بيداغوجية السلف على صعيد التكوين الجماهيري، حيث ظل توظيف القصة التمثيلية

---

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٦٢.

(٢) لعل مفهوم الارتفاق كما ورد في مصطلحات حازم القرطاجني أنسب للدلالة على ما اصطلح عليه التناص..

(٣) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٦٤

والخطاب السردي التعليمي نهجا متبعا على نطاق واسع في المدنية الإسلامية، ومن خلال ذلك التوجيه ظل التفعيل العمومي المسجدي يمارس مهمته الوعظية..إنما النورسي نوع في الأشكال الخطابية وفي الأساليب، فاصطنع الخطاب المرسل، والخطاب الشعري، وعبر بالنظمية والنثرية، واستغل الخطاب العلمي والفلسفي، وتعاطى الديباجة الأدبية، والاستخدام الخبري الصحفي، وتمرس بأسلوب المذكرات الشخصية، والكتابة التاريخية، والمطارحة الإخوانية، فإلى جانب الشعرية البهية -وهي الأغلب على كتاباته- هناك الكتابة التحريرية، وهناك الأسلوب الخفيف، والأسلوب المثقل بالفذلكات الفكرية والوجدانية، لأن أغلب الورشات التي فتحها كانت ورشات تعنى بالروح وبقضايا الإنسان والمصير الوجودي الجمعي، فشملت الرسائل المقالة الصحفية، والبحث العقلي، والرؤية الماورائية، والدرس الأكاديمي، والنص الأدبي، والورد التصوفي، ومقطوعة الذكر، والدعاء، والخاطرة، والحلم، والملاحظة الذهنية، والتقرير السياسي، والخطبة الدينية، والكلمة التربوية، والوصية، والحكمة، والمناجاة..

إن ديداكتيك (تعليمية) الرسائل هو ديداكتيك سجالي سردي، يجمع بين المصادرات الفكرية والسرد التمثيلي، زيادة على المطارحات الروحية والوجدانية (الحالية[1]).

ورؤية النورسي توطدت في صورة فلسفية وجودية أساسها الإيمان بالله وبالغيب، فالظواهر والقضايا مهما تلابست بها الجوانب الاجتماعية والإنسانية والفكرية إلا أن زاوية التقويم تظل دائما زاوية روحية، فالإشكال التقني أو العلمي أو الاقتصادي يرسو عند النورسي في التحليل الأخير على قاعدة صارمة محكُّها الناموس الإلهي، الأسباب هي الإطار الماثل للعيان، لكن فوق هذه الأسباب وتحتها وقبلها وبعدها هناك مسبب الأسباب، لذا ترى النورسي يتحدث عن نفاذ سر الأسماء الحسنى في كل شيء رابطا إياها بما يسود الكون من مظاهر الحكمة والحسن والاتساق. والنورسي في ذلك ينهض بمهمة تجلية معللة، وغوص في الأعماق ، مراعيا فكر وعقل المتلقي، فهو في الآن ذاته، معلم ماهر في الشرح، ومفكر عميق في الطرح.

التأويل عند النورسي منحى غالب، فالنورسي يقرأ الظواهر في المعاني والمعاني في

(١) الكتابة النورية مقامية ، مشحونة بالحرارة العشقية.

الظواهر.

في أدبية تحليل الظواهر البيولوجية، (الأرض والبذرة، التخلق والأثمار..) يترشَّح الخطاب بنكهة التذاذ، بحيث يجد القارئ نفسه حيال ذوق رطيب، متحَلِّب، بل حيال عين لاقطة للتحولات العضوية، وهكذا يضحى في وسعه أن يتتبع مراحل التخلق من داخل المخبر، ويرافق صيروراتها العظيمة وهي تمضي في ريث تحت مجهر النورسي، يكشف عنها خطاب ممتع، لبيب، ومشحون بخاصية استذاقة واستلطاف قوية.

هنالك ذوق ثابت يستطيب الملامسة والشم والمعاينة والتقليب المخبري المشوِّق، لأنه يجد في كل حادثة نماءٍ ما يترجم عن روحية الإيمان المستقر في الأعماق..

فالنورسي حين يسوق المثال التوضيحي ويعكف على إبراز جوانب الإيحاء فيه، فإنه يعقد صلة قرب بينه وبين عناصر ذلك المثال، إذ تضحى الأرض قطعة من قلبه والذرة جزءا من كبده، والمضغة فلذة من وجدانه، والقطرة طرفا من كيانه، يحنو عليها، ويرِقُّ لها، ويتحدث عنها حديث من يناجيها هي لا شيئا آخر..

إن نِيَّةَ الإكبار والتعظيم والتقديس التي تستوطنه إزاء جلال الباري، هي ذاتها التي تَعْمُرُ صدرَهُ إزاء الأشياء والظواهر والعناصر التي يتناولها ويستدعيها أمثلةُ موضحة لأفكاره..

كم هي رقيقة وعذبة مداعباته للشجرة، كم طفق يُمسِّح على شعرها بأنامله المخشبة، كم تعشقت عيناه منظر البذرة تتجرد من ثوبها لتسفر عن فتنة جسد بض غض فيه روح الله.. كم تغزل بالشمس، وبادلها قصائد الحب القدسي المفضوح، كم وارى غرامه لليل، للفَراش الراقص، للنسمة، لبارلا، لطيبة، للرسول، للكيلاني، للقطة المسبحة، للبلبل، للجبابرة، يأمل لهم التوبة والانجبار.. كم! كم!

استراتيجية الايعاز

رغم أن النورسي تعوَّد أن يفسر للقارئ ما يسرد عليه من الموضِّحات الافتراضية أو الخبرية التي يفاعل بها روح قارئه وقلبه، إلا أننا رأيناه أحيانا يترك هذه المهمة التفسيرية ويوكلها للقارئ نفسه، ورأيناه أحيانا أخرى يكتفي بتفسير شطري للواقعة السردية، متنازلا للقارئ عن شطر آخر منها..

لا شك أن النورسي حين يُخَلّي بين المتلقي وبين المادة النصية، إنما يفعل ذلك من موقع

اقتناعه بأن الوازع الأخلاقي والترشيدي واضح وبيّن في المتن، وأن عقل المتلقي سيدرك المغزى المخبوء في الاستعارة، وأن الرسالة وإن تحجبت في ثوب المجاز، فإنها آخذة طريقها المباشر إلى ذهن المتلقي، ولن تحيد عنه يمنة أو يسرة..

إن هذا الوثوق في القدرة على التسديد إنما تهيأ للنورسي لأنه كان متفوقا في الرماية، ثم لأنه من جهة أخرى كان يطمئن إلى أن خطابه لن يطيش لأنه امتلك القدرة الدافعة التي تجعل رميته تنتهي إلى هدفها، أشبه بطلقة موجهة بشحنة (لَيْزَرْ). إنها بيداغوجية الترشيد الروحي المعقلن، بيداغجوية توصلت إلى أن تروض مضامينها ورسائلها على ضرب من العلاقة الشرطية، بحيث تتحدد الاستجابة في ضوء الإثارة، جزاء وفاقا.

بلاغة البداهة

لا تكاد عين النورسي وذهنه يقعان في تأملاته على ما تقع عليه عيوننا نحن، ولا تكاد حجته تتجانس مع حجتنا، لا بدع أن يكون ذلك النزوع العقلي شهادة على رسوخ عبقريته، دلت على ذلك سيرته منذ أن درج.. من هنا طفقت مستحضراته الفكرية تدهشنا، إنه -وكما أسلفنا القول في غير هذا الموطن- يرحل بالقارئ في تحليقات قصية، ليضع أمامه حقيقةً ما، قانونا ما، بداهةً ما، أبعد ما كانت عن ذهنه، لكنه إذ يراها ماثلة أمام عينه، معروضة في كف النورسي، يذهل لمرآها، ويسارع إلى التأمين الفوري عليها، ولو أن القارئ استدرج إلى التفكير فيها قبلئذ، لما اهتدى بنفسه إليها، لكنه الآن وقد رأى اليد العجوز تمتد بها إليه، فإنه يجدها تجسد الحقيقية، فلا غرابة أن العقل -وفي الحين- يأخذ بها، ويحضنها، ويعتز بحيازتها، وتغدو من ثمة مسلمة من مسلمات فكره.

هذا عين ما نشعر به مثلا حين نسمع النورسي يلقننا منطق القوة معكوسا.. القوة النابعة من الضعف، القوة التي يمتلكها الرضيع وهو بعد في قماطه (ضعف الصغير وعجزه هما العاملان اللذان يسخران له المحيط.. بفضل ما تدره عليه القلوب من شفقة ومحبة، ولو أنه ادعى أن تسخير الآخرين كان نتيجة قوته لكان ذلك ادعاء أحمق[1].. "إن القوة الكامنة في ضعف شبل الأسد تسخِّر أمه المفترسة الضارية لنفسه[2]".

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧٠

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧٠

بل لا يقف النورسي عند حد إبراز هذه الحقيقة، فهو إنما ساقها لينتهي منها إلى حقيقة أشمل ورقيقة أكمل، إنه يتجاوز بها إلى التدليل على مبدإ إيماني وجودي، إذ يسارع إلى تسجيل الاستنتاج التالي" وهكذا هي حال الإنسان مع خالقه، إنما ينعم بما ينعم به من تفوقات حضارية وانجازية ليس لأنه أفتكها عن قوة وغلبة، (إنما أوتيته على علم عندي كما ادعى قارون)، ولكن الإنسان أصاب ما أصاب وأنجز ما أنجز لعجزه وضعفه وفقره، إذ مُدَّتْ له يدُ المعونة من خالقه[1]..

ها هو يتحدث عن نفسه" إن كنت بحسب نفسك وصورتك الظاهرية في حكم المعدم، إلا أنك بحسب وظيفتك ومنزلتك مشاهدٌ فَطِنٌ، ومتفرج ذكي على الكائنات العظيمة، وإنك اللسان الناطق البليغ ينطق باسم هذه الموجودات الحكيمة.. وإنك القارئ الداهي والمطالع النبيه لكتاب العالم هذا.. وإنك المشرف المتفكر في هذه المخلوقات المسبحة..وإنك بحكم (وفي منزلة) الأستاذ الخبير، والمعمار(ي) الكريم لهذه المصنوعات العابدة الساجدة[2]".

إن مثل هذه المعابر الخطابية التي يناجي فيها النورسي نفسه بهذه الكيفية (الغيرية) من خلال ضمير (أنت) كثيرة، وهي محطات أخرى تتزاوج فيها دوافعَ الغنائيةِ المحض والانكسار ونزعة الذكر والتلقين الذاتي التي هي من صفات الأصفياء.. وإن تسجيل هذه البوحيات في مدونة الأفكار إنما يسهم في تعزيز حس الاعتبار عند المتلقي، لأنها محطات إفضاء استئناسي، حيث اقتضت بيداغوجية الإسداء أن تتظاهر للمتلقي في صيغة خطابية تشعره بأنه هو المستهدف الأول.. فهي من ثمة تستدرجه إليها من زاوية فتح مجال إشراكه في الحوار مع الملكوت..

ونجد التدبر في الشأن الوجودي يتخذ أحيانا عنده صورة واقعة خيالية أشبه بشريط مترابط الحلقات، لقد قص علينا مثلا وقائع موقف تَفَكُّري عاشه في بعض أطوار العمر، تهيأ له في شكل رحلة خيالية ساقته إلى آفاق، وتنقَّلت به عبر منازل وأحداث.. ونراه ينورنا عنها بعد أن قصها علينا، وأنها كانت سانحة تفكير استوقفته بما طالعه فيها من عبر، وجعلته يعيد ترتيب حياته ويضبطها في ضوء ما استشرفه في تلك الرؤية الخالية " وحينما رأيت تلك الواقعة الخيالية كنت في الخامسة والأربعين من العمر حسب ظني، ولم يكن لي سند ولا

(١) انظر الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧٠

(٢) الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧١

حجة من أنني أعيش إلى الستين من العمر، إلا أنه أرشدني أحد تلاميذ القرآن المخلصين أن أنفق نصف ما بقي من العمر الغالب-وهو خمسة عشر عاما- في سبيل الآخرة[1]"..

إن هذا التعقيب الاعترافي الذي توج به النورسي مسرده، يبين لنا طريقة التفكير الروحي التي كان يدير بها شؤونه ويبرمج تفاصيل حياته..

ومعلوم أن هناك ترابطا بين الآليتين، آلية تنظيم الحياة وآلية إدارة الفكر.. فحتى ما يشاع عن اتسام جبابرة الفكر بالفوضى في حياتهم الخاصة لا يخرج عن هذا المبدإ الترابطي، لأنهم نظروا إلى ما بدا لنا نحن فوضى على أنه نظام، والتبرير لذلك قائم في كون الطاقة التي تضبط عقولهم طاقة متوترة، تحب الحراك، وفي الحراك نفي للسكون ورفض للموات، فهي عقول تعمل بقوة التيار الحي، لذا هم يتجاوزن المعطيات الخارجية إلى العمق، فنهاية النظام بالنسبة لمن يعتكف في معبد الكتابة والتأمل، أن تكون الصحف والكتب والمَلازم والأقلام متراكمة من حوله، تمتد يده لحاجته منها، فيجدها دانية منه.. أشبه بمن يطفو في جزيرة سابحة يحيط بها الْيَمُّ من كل جانب..

هكذا كان النورسي العابد، حتى في سمته الخارجي، فوضى لا تناسق فيها، وإنه ليعترف لنا أن الواقعة الحُلمية قد ألهمته أن يشرع في ضبط حياته، ومعلوم أن أعسر ما في الوجود أن يضبط الفرد حياته، أن يقبض على الماء، أن يشد على الريح.. إذ أنَّى له أن يحدد الأشواط الباقية، أن يعلم المنتهى، أن يعرف المحط الأخير!

النورسي قرأ في هذا المشهد الاستشرافي كل هذا وأدركه وتيقن منه.. لقد أخبرنا أن الذي أرشده إلى ذلك هو أحد تلاميذه القرآنيين، لا غرابة أن يحدث ذلك، لكن الإيعاز هنا هو إبراز مدى أهمية أن يستعين بعضنا بما يتأتَّى له من فتح يأتيه على يد إخوانه من أهل الفتح (القرآنيين)..

ثم إن النورسي يعلمنا من صدد آخر كيف نبني فرضيات البقاء، وكيف نضبط المخططات ونجدول المقدرات ونرسي رزنامة العمر..

إن النورسي يتجاوز هنا تعليمة ذلك المبدأ الذهبي (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، ولآخرتك كأنك تموت غدا) أو توجيهات ذلك الاستئثار المعرفي الرباني (قل الروح من أمر

(١) الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٦٩

ربي)، وكذا تلك القدرية اللاراد لها (وما تدري نفس بأي أرض تموت)، لا لأنه لا يؤمن بها، فهي مسلمات قدسية ثابتة لديه ثبات إيمانه الذي لا يتزعزع، ولكن لأن الأمر يتعلق هنا بشأن شخصي، بمعرفة مساحة العمر ومداها وحجم أيامها.. وذلك مما لا سبيل إليه بحال من الأحوال، إذ من ذا الذي يعرف كم بقي له من العمر؟ لكن النورسي ذا الفطنة القرآنية يتسلح إلى ذلك القصد بالتوجيه النبوي الشريف(قليل من أمتي من يبلغ الستين).. بهذا الاحتمال الذي استلهمه النورسي من الحديث الشريف يُقَيِّم فرضية العمر، ويحدد مسافتها الباقية، إذ يضبط المستقبل في ضوء حدٍّ رَسَمَهُ الرسولُﷺ وجعل سن الستين معلميته الأبرز..

وهكذا نرى النورسي يشرع في جدولة أيامه على هذا الأساس الزمني المؤطِّر لمساحة عمر المسلم، إذ قَدَّرَ أنه سيكون من سواد الأمة ممن يشملهم الأجل الستيني..

ولابد أن ندرك أن النورسي وهو يكشف لنا عن ملابسات هذا الوعي الشخصي الطارئ فإنما يتوخى تنبيهنا إلى ضرورة التهيئ للرحلة باكرا، إنه يريد أن يضع بين أيدينا تقويمية للعمر، فنسعى بدورنا إلى تحجيم أحلامنا وآمالنا ضمن هذا الإطار الستيني، فنعمل على تحصيل المكاسب الدنيوية والأخروية في ضوء هذا السقف..

وواضح أن الحكمة من رسم هذا الحد العمري هي ترويض الإنسان المؤمن على أن يعتدل في المطلب الدنيوي، إذ أن من يفترض أنه سيلقى ربه في الستين أو نحوها، لا شك أن الوعي بالتوبة يباكره، وأن استعار الغواية ليَفْتُرُ لديه، وأن النزغات لتنقمع في أعماقه، لأن شارة النهاية هي دائما قريبة منه، بل إن الاهتمام بالتحوطات للمستقبل، للشيخوخة نفسها، لا تغدو عقدة وهاجسا ملحا، لأن أسس التربية الإسلامية وتكافليتها تجعل المؤمن -رجلا أو امرأة- يطمئن على المستقبل، إذ تكون كفالته من مسؤولية الأسرة والقرابة والمجتمع وبيت المال.. وليس الشأن كما هو في المدنية المادية التي لا يضمن فيها الإنسان حتى لجثمانه حرمة التشييع ما لم يكن قد ضمَّن عليه[1].

الرؤية النورية تحتفظ للإنسان دائما بالرفعة والامتيازية " أيها الإنسان إنك من جهة جسمك النباتي ونفسك الحيوانية جزء صغير وجزيئ حقير ومخلوق فقير وحيوان ضعيف تخوض في الأمواج الهادرة لهذه الموجودات المتزاحمة المدهشة، إلا أنك من حيث

(١) ندرك أننا سلكنا في النهج الحياتي مسلك الآخرين، وسرنا وراء تحللهم من القيم السماوية، بل لقد هرولنا أمامهم، فلم نعد نتعقبهم بالشبر والذراع ، وإنما بتنا نتقدمهم في الانحراف في كثير من الأحيان..

إنسانيتك المتكاملة بالتربية الإسلامية المنورة بنور الإيمان، المتضمن لضياء المحبة الإلهية، سلطانٌ في هذه العبدية.. وإنك كلي في جزئيتك، وإنك عالم واسع في صغرك (انظر إلى كيفية تطبيقه هنا قانون الاستظلال بظل الأسماء الحسنى على الإنسان، فتعددية الامتيازات التي حازها المخلوق الإنسي، إنما حصَلت له بفضل ذلك، إن جمعيته تأتَّتْ من تقاطع أثر الأسماء الحسنى فيه) ، يضيف: ولك المقام السامي مع حقارتك، فأنت المشرف ذو البصيرة النيرة على هذه الدائرة الفسيحة المنظورة، حتى يمكنك القول "إن ربي الرحيم قد جعل لي الدنيا مأوى ومسكنا وجعل لي الشمس والقمر سراجا ونورا، وجعل لي الربيع باقة ورد زاهية، وجعل لي الصيف مائدة نعمة، وجعل لي الحيوان خادما ذليلا، وأخيرا جعل لي النبات زينة وأثاثا وبهجة لداري ومسكني"[1]..بل إن مكانة الإنسان في رؤية النورسي لتتحدد بنوع المسؤولية والمهام التي انتدب إليها "إن الإنسان أرسل إلى الدنيا ضيفا وموظفا ووهبت له مواهب واستعدادات مهمة جدا، وعلى هذا استندت إليه وظائف جليلة، ولكي يقوم الإنسان بأعماله وليكد ويسعى لتلك الغايات والوظائف فقد رغِّب ورهِّب لإنجاز عمله"[2]..

القرآن وبيداغوجية الترغيب والترهيب

لابد من التطرق إلى منطق العصر الذي يرى في أساليب التخويف والتشهية القرآنية مظهرا من السذاجة والنزول بالعقل الإنساني إلى مستوى الصبيانية..

ولابد من تأكيد أن أصحاب هذا الرأي ليسوا هم فقط أبناء الحضارة المادية الراهنة المتجبرة والمعتدة بالمكاسب العلمية، بل إن فلسفة التزندق وتتفيه الروحيات والتكذيب بالربوبية هي أطوار مرت بها الإنسانية، وستمر..

فالإنسانية من هذا الجانب هي أشبه بالفرد، فالفرد تمضي به أطوار عمرية وبيولوجيية يعرف فيها نزوعا تمرديا قد يخرج به عن الاعتدال والاستواء، إذ أن ذلك جزء من تجربة التعلم ذاتها، لذا تقتضي تنشئة النشء حدا من الترشيد والمصاحبة..

وكذلك الإنسانية -أو قطاعا منها- يعرف في مراحل ربما دورية نزوعا إلى التهتك، إلى الشر وإلى الإلحاد وإلى مناددة الله، فيرفض مقررات الدين ويعتبرها تعاليم باطلة..

---

(١) الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧١

(٢) الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧١

لذا طفق التاريخ يخبرنا عن سقوط مدنيات، ولبثت سور القرآن تحدثنا عن هلاك الأمم الكافرة.

والمؤكد أن الإنسان حين يعود إلى طوره السوي، سيرى نفسه وهو يقف أمام مقررات الكبح والحفز، وأمام التوجيهات الدينية المرغبة والمرهبة، أنه ليس أمام خطاب فوقي يفاعل العقلية البشرية بما لا تأثير له، ولكنه أمام الكلمة حين تتحول –بفعل القداسة- إلى سلطان تنفذ بكيفية أو أخرى إلى العقل الباطن، وتسكنه وتؤثر فيه على المدى.

ليس هناك خطاب جاد يمر دونما أحداث أثر في وجدان الإنسان.

إن إنسانية الإنسان مرتبطة بثوابت بيولوجية ونفسية هي هي..

إذ ستظل -وإلى أبد الآبدين- نوازع الإنسان نحو الكسب ونحو المتع واللذائذ والمخاوف هي هي، (كل صبي يخاف الظلمة، وكل إنسان يتوجس من الموت، وكل نفس تستذيق الجمال،إلخ..) ولا يمكن تبديل هذه النوازع الإنسانية بأخرى، فالغريزة سميت كذلك لانغرازها في السجايا، في أغوار الوجود البيولوجي والوجداني للإنسان.. وإن شهوة المطعم والمشرب والمنكح والمنظر والمثوى والمتنزه التي فعَّلها القرآن في مضمار تأثيري، لهي سقف مطالب المتعة وسعادة الفرد، فلا غرابة أن تخاطب الآيات القرآنية الإنسان من صدد هذا الحس الفطري فيه، إذ الخالق يعلم أن تَحَقُّقَ جبلةِ الإنسان الشهْوِيَة تكون من ذلك الصدد، فلا عجب أن يشهيه في الخير من هذا الطريق، وكذلك الأمر مع مبدإ تخويفه، حقا إننا نخاف الموت، والقرآن لم يخوف بالموت إلا في مواطن قليلة (الموت الباغت، موت الهلاك النقمي إلخ..)، إنما تخويفه ارتكز على مابعد الموت، على العذاب الأخروي، وفي ذلك من الحكمة الكثير، أدناها أن بيداغوجية القرآن قد توخت إلى أن توطن فكرة الموت لدى المؤمنين بحيث لا يعودون يخشونها، وذلك إنجاز قد رأيناه يتحول عند المسلمين في العهود الصافية إلى واقع ملموس، إذ كان توديعهم للمحتضر وتشييعهم له كتشييع المسافر والخاطر.. بل لقد بلغ بهم أن أضحوا يحملونه رسائل إلى ذويهم من الراحلين، وهذا ليس من قبيل الفلكلور والثقافة التوتمية، إنما هي مدنية أخلاقية أوجدها القرآن حين أبرز للإنسان دارا آخرة هي دار القرار.

فلا غرابة –والحال هذه-أن تغدو معالم العذاب الأخروي هي وسيلة الزجر..

وإن من اعتقاد البشر في البعدية، ما نراهم يحيطون به الميت من احترام.

بل إن في زيارتهم للقبور والمقابر لما يترجم هذا الاعتقاد المترسخ فيهم بالبعدية.

أجل إن زنادقة المدنية المعاصرة باتوا يجنحون إلى الوصية بإحراق جثامينهم، وتلك ثقافة لا يقابلها الحس الإنساني السوي إلا بالرفض والاشمئزاز[1].

إن الإنسان القرآني المؤمن لا يناقش الموت وماهيته، ولا الآخرة وقطعيتها، وإنما همه منوط بحظوظ المابعد، هل سيكون شأنه في الدار الآخرة غير ما هو عليه في دار الدنيا..

هناك لمسة من الوعي بالمحاسبة، إذ أن تجاوز حاجز الخوف من الموت لا يوقع في بلادة العدمية أو في مأزق الانتحارية، إنما يذهب بالنفس مذهبا تقويميا (إيجابا=توبة، وسلبا= إمعانا على الشر)..هناك أدب للنعي، فالإعلان عن شهادة الخير عند إقبار الميت أو تشييعه أو حين إبلاغ نعيه، يغدو مطمحا تتطلع إليه النفس، والرسول ﷺ وجه الأمة في هذا الاتجاه..

ثم إن صور النكال التي تنتظر الأشقياء-كما عرضها القرآن- لا توعز للإنسان بالحطة المعنوية، ولا تنتقص من كفاءته ولا من مستوى تعقلنه، إنما هي تعمل على أن تلامس فيه مكامن الفطرة وتحرك مجسات الجبلَّة الأولى.

والنص القرآني مقامات خطابية يعبُرها القارئ والمصلي والمتأمل ويحس لها-بحسب الاستعداد- نفحة أو لفحة..

ومقام التخويف القرآني لا يستصغر الإنسان ولا يستسخف بعقله، إنه شريط تعبيري حي، ترى فيه النفس مغبة مكفهرة تنفر منها حتما.. أما الكافر، فإن صلته بالحس الروحي مقطوعة ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٧٩)، من هنا لا بد أن نُسَلِّم بأن الجاحدين لا يجدون في البيداغوجية التحسيسة القرآنية حاجتهم، لانعدام المستقبلات في نفوسهم، فأبو جهل وهو سيد العرب لم يستشعر شيئا في القرآن، بل طالما أضحكته الآيات، في حين كان الجبار في الحق عمر يبكى لدى سماع الآيات.

ولن تُقبَل مزاعم من يرى أن في صور التخويف والترغيب القرآنية مادة قد تجاوزتها البشرية اليوم، وشبت عن طوقها في عصر العقلنة والعنفوان العلمي.. وأن مواقف تحدي الرب باتت معلنة وتمارس على نطاق فردي وجماعي، وها هي الجموع التي لا تحصى لا

(١) الهندوس يحرقون الجثامين لاعتقادهم بألوهية النار وبكونها برزخ الطهر .. عكس ما يراه مذهب الحرق المعاصر، إذ أن فعلهم ذاك هو بمثابة آخر بصقة يرسلها الهالك في وجه الحياة.

تفتأ تقرر ساخرة: لو أن الرب موجود فما يشغله حتى يصبر على كل ما يرتكب في حقه من تحدٍّ!

وللرد لابد أن نذكر أن الكفر الصراح ظل يمارس في كل العصور حتى في عز نزول الرسائل وظهور الرسل.. والقرآن تحدث عن وقائع هلاك وإهلاك حصلت لأمم وأقوام تعدوا الخط الأحمر، ليضع من قصصهم وأخبارهم رادعا لنا عن الوقوع في طائلة الغشم الروحي والإيماني، على الرغم من أن تأثر المدنيات المتلاحقة بذلك المصير المشؤوم لتلك الأمم لم يسترسل في الزمان، فالوقت من عوامل تكريس النسيان والغفلة، ولذلك لم تتعظ المدنيات اللاحقة بل سرعان ما عاودها الكفر وروح التمادي في الخطيئة إذ لم تر نقمة الرب تحل بها.. من جهتها توعدت التوراة -الراهنة- الأمم بأحوال من الهلاك مازال الكتابيون ينتظرون حصولها، وما زلنا نحن المسلمين نعتبرها مجرد تنفيسات صدرت عن كتبة التوراة، لأن الربوبية تجلُّ عن العنصرية، فلا تنكل بالخلائق لأجل تسييد عرق بعينيه..

إنما المؤكد أن التخويف السماوي للبشر، لا سيما ما ورد منه في القرآن، إنما أنيط بالجانب الوجداني في الإنسان، لأن وقائع الحياة نفسها تفتأ تؤكد غريزية خوف الإنسان، خوفه من الخسارة المادية، من المجهول(الغيب)، وما أكثر ما رأينا الفرد العاتي ينقهر لمجرد أن يعلمه طبيبه بوجود تورم في منطقة ما من جسده..

بل إن أكثر حوادث الطبيعة، كالزلازل والأعاصير والنكبات، بل إن غضبة الرعد في ليلة واحدة لَيتحول بالإنسان فجأة إلى تلك المنطقة الفطرية التي يرى فيها نفسه على حقيقتها الخوافة، وأنه مخلوق يستجيب حتما للانقهار والزجر والتعنيف..

أمام الملمات الضاربة نرى الوجوه مخطوفة، قد تعرت من لبوسها وعادت كسيرة وجلة مرعوبة.. هذه الجِبِلَّة التي تستنيم حين تحفُّ بنا الإنعامات والحظوظ المادية، ما أسرع ما تنتفض وتعود إلى طبيعتها الملتاعة حين يحل الخطر.. أمريكا أم الفتوحات التكنولوجيا اليوم تزلزلت عن بكرة أبيها حين تهاوى البرجان، اللواذ كان إلى الراية والكتاب المقدس.. من الراية كان الفرد الأمريكي يطلب الحماية الأمنية المحسوسة، كان يستدعي الآخر لإسناده، لرد الضربة عنه، هو الذي قبل ساعة كان ينظر إلى العالم من برج عالٍ.. ومن الكتاب المقدس كان ينشد الاستغاثة الخارقة..

من هنا نقول إنه بسبب هذه الاستجابة الجبانة الطماعة الكامنة في النفس الإنسانية اصطنع

الخطاب السماوي بلاغة الترهيب والترغيب، فالإنسان له صيرورة طفلية لا تنفك عنه قط وإن توارت بملابسات الانخداع المدني، فمهما ارتقَ في المكاسب الحضارية، ومهما شذ واشتط في الجحود، فهو يحمل في كيانه بذرة الخوف والطمع (خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا).. وفي ساعة الاحتضار نرى نظرة الانكسار تعلن عن ارتعابه من المجهول.. هو الذي لبث طاغيا، غير مقدر للعواقب.

الديانة الشكلية توقع في الغفلة وتجنح بالمجتمع إلى التحلل ومعاودة روح الغلظة، وبالتالي تعود به إلى حال الكفر بالمقدسات والحكم على المقررات بالسخف والحطة، إلا أن المؤكد أن عهد الردة لا يدوم، لأن الردة تعني العبور إلى طريق الفوضى والعنف والانكسار، والمجتمعات تستيقظ حتما ولو حتى بعد أن تتلقى الصفعة.. الحروب اصطنعها الإنسان متربا سواء أكان شاعرا أو غير شاعر بما فعل، والحضارات لم تنجزها التصدعات والانفجارات الناجمة عن تَفَرْعُن الإنسان ووحشيته، الحضارات هي من فعل الحدب السلمي والسكينة الجمعية، وهي نتيجة من نتائج العودة إلى الباري، والإنسان السوي يخاف من كل ما يخرج به عن المعقول، والقرآن مارس خوفا معنويا في مساقات خطابية ردعية، مساقات إن قرأها الشيخ انفعل لها لأن مشارفته للقبر تجعله أكثر حساسية لكل ما يتعلق بمصيره القدري، وإن تلاها صبي انحفرت في ذهنه وبقيت لها آثار قد تعمل على توجيهه في مراحل الشبيبة والإكتهال، وإن قرأها خلي القلب، حركت في لاشعوره مواجد الطفولة التي لا يبرأ منها مخلوق.. وإن طرقت سمع جبار عنيد أشاح عنها فازداد بغيه وازدات همجيته إلى أن يحين الحين، ويرى نفسه واقعا في الهلكة، وعندها لابد أن يخاف..

النورسي القرآني

خطاب النورسي المكتوب لحن مولوي مسترسل في الآفاق بملايين نبرات التفجع والضراعة والصديقية، فنبرته تتمادى في وصلات ومراجيع مستبشرة في غالب الأحيان، متألمة في الأقل..

نبرة ترفض الصمت حين يغدو الصمت حجابا يعيق النفس عن العروج، إن صمتا كهذا هو في الحقيقة حاجز في حس الإنسان، على الإنسان أن يناضله ليخترق أسلاكه الشائكة، لينطلق في رحاب المدى الفسيح..

لا جدال أن إضفاء الصبغة الشخصية على الصورة القرآنية أو–بالأصح- قراءتها بمشاعر الذات، يجعل الناتج عن ذلك فصيلا من القول روحه القرآن وصيغته بشرية تستشف منها ملامح إخراجية إنسانية " إن ربي الرحيم قد جعل لي الدنيا مأوى ومسكنا وجعل لي الشمس والقمر سراجا ونورا، وجعل لي الربيع باقة ورد زاهية، وجعل لي الصيف مائدة نعمة، وجعل لي الحيوان خادما ذليلا وأخيرا جعل لي النبات زينة وأثاثا وبهجة لداري ومسكني"[1]،

لا شك أن دوال هذه الفقرة ومعانيها هي مستلهمة من السجل القرآني ومن متنه، لكن هذا الاستثمار الخطابي الامتناني جاء يحمل بصمة الإعادة والتصرف، فكان من ثمة له ذلك الأرج الذي نعهده في الأوراد والخطب الابتهالية.. فعبارة ربي الرحيم.. الدنيا مأوى.. الشمس والقمر سراجا ونورا.. هي توظيف حرفي لنصوصية القرآن، لكن الاستثمار النوري جعل أسلوب القرآن يتحول إلى جزالة أخرى بما طرأ عليه من إعادة بناء.

لم تنطمس في السياق ماهيته البيانية الأصلية تماما، ولكنها اتشحت بمسحة بناء مستجدة نزحت به نحو الصبغة الأسلوبية النورية، فشفت التعبيرية عن ذوق وحساسية وشعرية النورسي دون أن تخرج عن الإطار المعجمي والتمثلي القرآني.. وكذلك الأمر في قوله " وجعل لي الشمس والقمر سراجا ونورا، وجعل لي الربيع باقة ورد زاهية، وجعل لي الصيف مائدة نعمة، وجعل لي الحيوان خادما ذليلا وأخيرا جعل لي النبات زينة وأثاثا وبهجة لداري ومسكني..".

هناك إعادة تركيب أجراها النورسي على مادة قرآنية مختزنة في حافظته، ومبرعمة في مصورته.. فالزينة في هذا السياق تحيل على زينة المَرْكَب الحيواني كما أوردها القرآن، وذلة الحيوان تحيل على سخرته، ودلالة البهجة والتأثيث المسندة إلى عبارة (داري ومسكني) تحمل إشارة إلى بهجة أخرى هي بهجة الارتحال على ظهر الحيوان كما تقرر في سورة النحل..

ويمكن تتبع مساقات نصية نورية لا تعد، وإحصاء مظاهر التلاقي أو الارتفاق الظاهر بينها وبين الخطاب القرآني بصورة سافرة، والسبب أن النورسي كما أناط مهارته الحجاجية بالمنطق القرآني وتقمص آلياته، أناط كذلك أسلوبه وشعريته ببيان القرآن وشعريته الساحرة، فظفر بحظ منها، إذ أن من شغف بشيء تقمَّص شمائله.. لا غرابة أن يقع التلابس بين الخطابين، إذ ليست حقيقة الرسائل إلا تفسيرا للقرآن، تجسَّدَ على هذا النحو الفكري والأدبي المتميز.

(١) الكلمات- الكلمة الثالثة والعشرون ٣٧١

للنورسي هذا المنحى الرؤيوي الماورائي.. ومعنى الماورائي هنا ليس هو ذلك القطاع الغيبي الذي يفترضه الإنسان بعدا آخر لحياته ولعالمه الشهودي، بل إن القصد به هنا هو تلك الفضاءات المعنوية التي تولدها رؤية النورسي ضمن تجنيحها في فقه الظاهرة الإنسانية[1].

ورؤية النورسي حتى حين تتجه نحو عوالم الغيب، تظل تحتفظ ببعدها الفكري التحليلي الموضوعي.

لقد اعتدنا أن نقرر فكرة(أن الإنسان يتحرك ضمن عالمي الشهود والغيبة، فهو يولد في هذه الحياة المحسوسة بجسده وروحه، وعند الممات تنتقل روحه إلى عالم الغيب لتنال الجزاء..).

إن هذا الإجمال التبسيطي يغدو عند النورسي متجاوزا، لأننا سنراه -بحكم ما فطر عليه عقله من نزوع تحليلي- يضفي على عالم الإنسان منظورا تقسيميا بحيث يضحى مفهوم (الإنسان) صيرورة من الأطوار والمستويات يكمل بعضها بعضا ويسمو بعضها ببعض، ذلك أن الإنسان هو الكائن المكرم الذي يضفي الباري عز وجل عليه مزيدا من العناية في عملية تخليقه، حيث يترقى به من مقام الجزئية إلى مقام الكلية من خلال نفخ الروح فيه ومنحه هبة الحياة، ثم يترقى به تارة أخرى إلى كلية جوهرية من خلال تمييزه بالخصيصة الإنسانية، ثم إلى الكلية النورانية السامية من خلال توفيقه إلى هداية الإيمان وإلى النور المحيط الشامل من خلال إسباغ استعداد المعرفة والمحبة عليه[2]..

واضح أن هذا التعريف يفترض للإنسان ثلاث كليات مترابطة بدل التصور الفلسفي العتيق، فبعد أن كان حَدُّ الإنسان يدور حول ثنائية المادة والجوهر، الجسد والنفس، العقل والروح.. يجنح النورسي إلى تمثل الإنسان تمثلا كليانيا، فهو لا ينكر التقسيمات القديمة التي ظل مفهوم الإنسان يُعَرَّفُ بها، ولكنه يجد نفسه ينشئ رؤيته على ركام الحدود والتعريفات القديمة، تأصيلا لرؤية روحية فلسفية سنراها تتبلور في شكل مبادئ ومحددات استنبطها النورسي وبات يقرأ بها الظواهر ويفسر الوجود والأشياء، فهو بوصفه من أهل الفكر، وجد نفسه من حيث يشعر أو لا يشعر يسلك في تنفيذ عمله الفكري مسلك المفكرين الراسخين، إذ تتأصل الفلسفات وتعكس صلابة منظور أصحابها بقدر ارتكازها على مبادئ تؤطر أحكامها

(١) هناك فقه للغيب تحفل به الرسائل.

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤١٤

وتضفي عليها الإحاطية والموضوعية..

ولقد برزت أسس فكرية ورؤيوية ومنهجية[1] محددة المعالم في متن الرسائل يستطيع الباحث أن يترسم خطوطها وأن يستخرج مقوماتها من القراءة الشاملة للرسائل..

النورسي يرى أن الإنسان مشمول بالكلية الإلهية لأنه وإن خلق من طينة الخلق الواحدة، إلا أنه أدمج في نطاق الكليانية إدماجا امتيازيا من خلال ما أنعم الله به عليه من خصوصية الإنسانية، هذه الخصوصية أهلته لأن ينال التكريمية فيغدو كائنا حيا، ذا حقيقة إنسانية، متسامية بنعمة الإيمان[2]، منورة بنور المعرفة والمحبة.. إنها الرتب الأربعة التي يقوم عليها مفهوم الإنسانية في فكر النورسي.. ومن الجلي أن النورسي بجعل من فطرة العبادة (الإيمان) بعدا إنسانيا، أو لنقل توفيقا يناله المحظوظون..على اعتبار أن المدنيات لم ولن تنفك عن العقائد وعن ثقافة الروح.

..هكذا يحدد النورسي طبقات الهوية العبدية، فمن قيمة إلى قيمة ومن سقف إلى سقف يحوز العبد جامعيته، ويستكمل ماهيته المكرمة المشرفة..إن هذه الإنعامات هي التي تلقت حتى من العبد حق التسديد بما يؤديه للخالق من عبادة وطاعة وإيمان..

بل إن كل عنصر من عناصر الكون يعلن عن عبديته ويتزكى على قدر ما يقابل به النعم – التي تحيط بتلك العبدية– من حمد وامتنان. فالبطيخ يلهج بعبارات المنة والشكر للخالق من خلال كل نواة وعلى لسان كل بذرة تقع منه في موقع من الأرض، مرددة يا خالقي ها أنا أفرش نقوش الأسماء الحسنى في أرجاء الأرض كلها"[3]. وكذا بقية المخلوقات، إذ حيوية الحياة نفسها مظهر للترقي وإن غفل عن ذلك الغافلون.

هناك هندسة (ومعمار) في أفكار النورسي تنبسط وفق نوع القضايا وتأخذ حيزها من التجلي والبناء، فالقضية يقرأها النورسي من زوايا وإحداثيات شتى، وعلى ذلك النحو قرأ حقيقة الإنسان.

---

(١) لا نقصد بمصطلح المنهج هنا البعد التبويبي والتشكيلي الذي تتخرج فيه الأعمال والخطب، إنما قصدنا روح الفلسفة والمبادئ التي يقوم عليها فكر النورسي، إذ أن لعقليته التدبرية منحى تصوريا ومشربا تمثليا تتحدد في ضوئهما الحقيقة الوجودية والرؤية الحياتية.. من هنا يمكن تعيين هذا المنهج وأنه المنظور الإيماني..

(٢) يرى النورسي أن الإيمان تشريف ، لا تكليف .. الكلمات ص٤١٤

(٣) انظر الكلمات– الكلمة الرابعة والعشرون ٤١٥

الإنسان في نظر النورسي هو معطى كوني مركزي (الإنسان ثمرة شجرة الخلقة) ↙ هذه هي الفرضية/القضية، لكن النورسي سيعدد انطلاقا من هذا التعريف زوايا أخرى يقوِّم بها هوية هذا المخلوق المحظوظ، وذلك بالإحاطة القياسية التي تحدد مكانة الإنسان من الأصل /المبدإ↙ هو كالثمرة أبعد شيء عن البذرة (هو من سلالة من طين لكنه في أحسن تقويم)، وأجمع لخصائص الكل↙ (في الإنسان خصوصيات الحيوان والنبات زائد عن الآدمية) ↙وله نظر عام إلى الجميع↙ ويضم جهة وحدة الكل ↙ فهو مخلوق يحمل نواة القلب ووجهه متوجه إلى الكثرة ووضعه مركز دائرة المخلوقات ↙ ومركزيته تجعله يتواصل مع الجميع، كأقطار الدائرة مع محيطها↙ فهو متوجه إلى الفناء وإلى الدنيا، ↙ ولكن العبادة التي هي حبل الوصال أو نقطة اتصال بين المبدإ والمنتهى تصرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء، ↙ العبادة تتمحور عليها حياة الإنسان، فتتسدد بها وجهته وسير خط إحداثياته، فبين المولد والوفاة تتسع مساحة العمر للسعي والنشاط بنوعيه الخيري والشري، وهذه الحقيقة الإيمانية الحاسمة (العقيدة) تصرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء، ومن الخلق إلى الحق، ومن الكثرة إلى الوحدانية، ومن المنتهى إلى المطلق، أي بمقدار ما ترجحت كفة الخير كان المتجه يمضي بالإنسان نحو الأبدي والدائم ونحو البداية التي لا تحدها نهاية[1].

هكذا يتصور النورسي ماهية الإنسان ومروره من على مسرح الحياة إلى رحاب الآخرة.

إنه يماهيه في الشجرة، إذ النورسي يرى أن للشجرة وظيفة تتأبد من خلال بقاء بذور ثمارها مؤهلة لإعطاء الحياة..

وإن من شأن وعي الإنسان بواجب أدائه لوظيفة التزكية أن يقوي من شعوره بالمسؤولية ليس إزاء الذات فحسب، ولكن إزاء الجنس كله، بل حيال الأجناس كلها..

بل إن هذه الحال التي يفترضها النورسي للشجرة هي ذات الحال التي يُقوِّم بها دوره هو، ودور كل مصلح، إذ أعمال الصالحين متكاثرة كثمار نوى الشجرة، كل ثمرة هي بمثابة كلية، من حيث إنها رمز وعنوان وموضوع للتكاثر وبل للبقاء.

وإن القلب الشهيد هو وسيلة النظر وتحصيل العبرة والموعظة التي لا تني تتجلى على صفحات الكون والوجود ومن الأسرار القرآنية.

---

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤١٨

والعبادة مصعد إلى العرش ومعراج إلى الكمالات والفضائل التي تمنح الإنسان استحقاق الخلود[1].

يقرأ التراث الروحي ويلونه بألوان عبقريته المتميزة

يترجح في فكره وأبحاثه جانب استخراج النكت من الموضوعات التي يطرقها، فلا يكاد يلفتك إلى البداهات المبتذلة والمعارف المشاعة، إنما ديدنه أن يستهدف الجانب القريب البعيد، الحقيقة الخفية في الظواهر من حولنا، الظل المنزوي في المشهد المضاء.. من هنا كانت موضوعاته عمومية في منحاها الإشكالي، خصوصية في مساقها الفكري والروحي.

فهي تدور حول الإيمان أساسا، وحول البعد الغيبي لتجربة الحياة، ومعاني السعادة والعُبْدية والخير والشر والقضاء والقدر والحظوظ وما إلى ذلك..

إنها -كما نلاحظ- موضوعات تتداولها دروس الواعظين وخطب الخطباء في كل عصر ومصر تقريبا، لكن النورسي استصفاها من حيث بيداغوجية الطرح والتداول، إذ مارسها بمنظار العقل والروح والصيرورة معا.

لقد خرج النورسي في كثير من أفكاره ومعالجاته عن نطاق الروية المرحلية، فهو لم يكن مهووسا بمطمح التحيين، أي طرح الأفكار من منظور العصر والمعاصرة، بل لقد كان قرآنيا يتحرك في رؤيته ضمن روح استبصار لا زمني، صيروري، يصلح للحياة أنَّى كان موقعها على خط التاريخية، ذلك لأن النورسي كان استراتيجيا يضع القواعد الكفيلة بتجاوز التربيات متى ما عرضت لمسار الإنسان المسلم، بل للإنسان مطلقا، سواء أواجهته اليوم أو بعد آلاف القرون..

لقد عالج قضايا الوجود بفكر مؤمن، وتحليل عالم شمولي المعرفة، واستشراف خبير متضلع في علم المستقبليات، واستنزلها في إطار معرفي جعلها أعلق بزمن التحولات والارباكات الناجمة عن أحوال استفحال قوى الباطل واستخذاء قوى الحق..(وهكذا فإن الرؤية المتسامية غير المتورطة في أوحال الظرفية وتبعات العراك المرحلي، قد حفظت للرسائل الصبغة الموضوعية، فجاءت التوجيهات لا تختص بعهد أو جيل أو مرحلة، ولكنها متوجهة إلى الإنسان عامة، وفي أي مرحلة عصفت به رياح العتو والزندقة والتربب المادي).

حتى مراساته الغيبية ومقارباته التجريدية، يبنيها على رؤية من الاستقراء والتعليل

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة والعشرون ٤١٨

والاستدلال وذلك من أجل أن يحسم أمره مع القارئ، ويبرئ ذمته أمامه، فلا يستشعر أن هناك (إنَّ..).

فهو باستنارته العقلية قد تجنب الوقوع في الخبْط في التوهمات، فلم يستهوِه التجنيح ووضع التصورات الطوباوية كما طفق يصنع أصحاب المدن والجمهوريات الفاضلة، وإنما ظل يستقرئ أطياف الغيب في ضوء استضاءات القرآن والسنة، فكان يقرأ المادة التراثية المتعلقة بالغيب، ويشرحها للفئات المسلمة، ويقرب معانيها إليهم، تأكيدا لأسس العقيدة في نفوسهم..ملونا كل ذلك بلون عبقريته.

لقد هيأ له تحليقه العقلي البعيد أن يعاين للقضايا التي يطرحها أبعادا متعددة يحرص على أن يسجلها جميعا وفق منطق تبويبي، تفصيلي، يخرج عن منحى الوعاظ الجانحين عادة نحو الإجمال السهل والاختزال السطحي والاستخلاصات البتراء غير المؤسسة على محك الترجيح العقلي..

فالنورسي من خلال هذا المنحى الإحاطي يكشف عن قوة في القريحة مكنته من أن يرى الأشياء على نحو أفقي وعمودي أوسع، كما يكشف من جهة أخرى عن نزوع عقلي تنظيمي هو ما وسم بحوثه بطابع العلمية.. ولقد كان يدرك أنه يقارب ما يطرح من فكر بعقلانية وبتدقيق في المقاربة، لذلك لبث يصف معالجاته بالعلمية، معمما صفة العلمية على موضوعاته الفكرية والاجتماعية والتربوية، وعلى موضوعاته الروحية والقلبية كذلك، بل وحتى على تلك الموضوعات الذوقية التجريدية من قبيل موضوع الإعجاز مثلا، إذ الإعجاز الأسلوبي كما نعلم موضوع يتخطى حدود العقل، فهو شأن جمالي، فوق شعري، تحكمه في مساحة مهمة من مادته معايير الذوق وتتلمح خصائص تفوقه، وإذا كان الشعر لا يقاس بمعيار العقل[1] وحدها، فكيف الحال مع الإعجاز. يقول النورسي وهو يقدم لرسالة المعجزات القرآنية " إن هذه الرسالة.. قد بينت جانب البلاغة وعلوم العربية بيانا شافيا بأسلوب علمي رصين وعميق يثير إعجاب العلماء[2]". إنما النورسي (العجمي) ميَّزَ بين أصناف الأساليب العربية وفنون القول والتوصيل، وقَدَّرَ ما كان للقرآن من نبوغ، وهو ما ظل الأفذاذ من غير العرب يفعلونه بحيادية، ولعل قضية

(١) بدليل أن المعايير التي تقوم بها الأشعار هي معايير مرحلية تحكمها التطورات التاريخية وأطوار البيئة والزمن، وإلا كانت تكون لنا مسطرة تقويم واحدة نميز بها بين الأشعار..

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الخامسة والعشرون ٤٢٠

الإعجاز عولجت على أيد غير العرب، لأن رؤيتهم الطارئة على البلاغة العربية تجعلهم أقرب إلى التقدير الموضوعي لإشكال الإعجاز وأصناف البيان.

الرسائل تلميذ نجيب للقرآن

وإذا كان النورسي قد وصف القرآن بأنه كتاب ذكر وفكر، فلا جرم أن الرسائل هي أيضا مدونة فكر وذكر تحتذي في منهجها الإرشادي خطا أستاذها القرآن، وتستلهم أنواره وتجلياته.. الرسائل مكتبة مشحونة بالكتب كما وصفها النورسي.

وإذا كان الذوق النقدي عامة يحدد نظمية القرآن من خلال وصف آياته وجمله بالترابط الحميم، وبكون كلماته متعانقة، وبأن المعنى يستخلص من استقراء عناصر الآي، كلمة كلمة، وحرفا حرفا، وأن الطابع التعبيري القويم، والمتنزل على مقدار وتناسب تامين، هو السمة العامة في بيان القرآن، وأن في كل عنصر خطابي جزءا من المعنى يتناسب مع المنحى الكلي العام للآية.. فلا جرم أن النورسي قد عاين الإعجاز على هذا المستوى ومن هذه الزوايا أيضا، بل وزاد عليها مُسْتَلمحات أخرى يمكن العودة إليها في الرسائل، فقد رأيناه يستشف نحوا من أربعين خصيصة فنية لظاهرة الإعجاز، لكنه إلى ذلك كله راح يهتم بما أسماه (بلاغة المعنى)..

إن النورسي يؤكد على الجانب المضموني ويرى أن للمعاني بلاغة تتذوقها العقول..

لقد ظلت البلاغة تناط بالزخرفة الشكلية، أو بما أسموه المبنى، بعد أن أشاعوا مقولة فُهِمَتْ من صاحبها الجاحظ على غير ما كان ينبغي أن تفهم عليه، إذ كان الجاحظ يرى أن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي، وإنما الشأن في النظم[1]..

فتراءى للناس أن عملية الإبداع تفصل بين الشكل ومضمونه، فجنحت الأذهان منذئذ للصنعة، وترجحت الشكلنة على حساب الاستواء الأدبي، ومالت بيانية الإبداع نحو الانفصام.. وإن النورسي هنا في هذا الصدد- حين يقرر أن البلاغة تختص بالمعاني- فإنما يريد أن يرجح رؤية طالما تحَمَّلَ الإبداع تبعاتها التهزيلية.. فالنورسي بهذا الرأي يتحول بمبدإ بلاغة الأشكال إلى مبدإ بلاغة المعاني (أليست هي نفس رؤية الجرجاني التي فهمت هي الأخرى على غير وجهها؟)..

لا غرابة أن تكون رؤية النورسي الأدبية على هذا المستوى المرجح للمضمونية، بل لا

(١) نحيل هنا إلى الدراسة المهمة لموضوع أدبية الرسائل بقلم الأستاذ الدكتور حسن الأمراني.

غرابة أن نجده ينتبه إلى تلك الخاصية ويعزو لها ما يحسه القارئ أحيانا من غموض، إن " دقة المعاني هي التي أغلقتها -أي الرسائل- وإن جمال معانيها جعلها تستغني عن الزينة.[1]

لقد ألفيناه في مواطن أخرى يؤكد أنه في إنشائه وكتابته الإبداعية لا يمارس الأدبية من منطلق بَرْيِ الجسد ليصير متقايسا مع الثوب، ذلك لأنه يقدِّرُ خطورة ما كان متبعا من حيف في مجال الأساليب، حين أضحى الاهتمام بالفخفخة الخارجية يراعى على حساب الرسالة والمضمون، فالكلمة والعبارة هي بُنى لها وظائفها المتكاملة في وحدة الخطاب، ولا يمكن أن يقع فصمٌ في عناصر شخصية الخطاب، ولا التمييز بين جسد وروح فيه.. إن ارتكاز خطاب النورسي الجميل، والمنساب، على بلاغة المعاني هو ما كفل له الخصصية وجعله معين فكر قبل أن يكون معين متعة.

والحقيقة أن هناك توازنا جليا وتناسبا مشهودا بين الفكرية والشعرية في خطاب النورسي، بل لا يمكن بحال من الأحوال للفحول أهل القريحة إلا أن يكون خطابهم مستوفيا بجدارة خاصيتي الفكر والبلاغة معا.

لقد وقف النورسي في أسلوب القرآن على كمال البداعة الفنية والرجحانية الروحية، فعملت الملكة والقريحة النورية على أن تؤصل لأسلوبها الخطابي صبغة من البداعة والإقناعية القرآنية هي ما يلمسه القارئ في الرسائل.

لقد تظافر على خدمة خطاب النورسي صفتا النفاسة والنجاعة، فتوفر للنص النوري هذا السمت الذي يفاعل متلقيه مباشرة ومن أول لقاء ببذل الإنعامات والنفحات والأكاليل، كل نص هو هيئة خيرية تمنح الجوائز والإكراميات.

الأسلوب العالي له وهجه الملموس، يمكن للنظر والحس أن يقع عليه بسهولة، " الأسلوب العالي ساطع يمكن رؤيته بأدنى نظر"[2].

للكلمات نوافذ يطل منها الأسلوب[3]

القرآن بخصائصه البيانية هو قوت وغذاء للقلوب"[4]، وغيره بمثابة الفاكهة التي لا تغني

---

(١) انظر صيقل الإسلام- محاكمات عقلية ٩٤

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الخامسة والعشرون ٤٣٣

(٣) انظر الكلمات- الكلمة الخامسة والعشرون ٤٣٥

(٤) انظر الكلمات- الكلمة الخامسة والعشرون ٤٣٧

الإنسان عن الطعام.. الأسلوب يلبس حلل معاني السور[1].

وإن ما يميز فكر النورسي هو اليقظة والبداهة اللتان يلقط بهما في ما يدرس من القضايا والمسائل جوانب إيعازية غر منتظرة. لقد قرأ آية النميمة والاغتياب ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(الحجرات: ١٢)، فشده فيها شكلها الفونيمي(الحرفي) وراح يستقرئ تواتر الهمزة في صدارة الكلمات، إذ تكررت الهمزة أربع مرات، فهذا الانتباه التفصيلي لم يكد يلفتنا نحن بسب انصرافنا للمعنى التصويري الفذ الذي تحمله الآية، لكن النورسي زاد على ما لفتنا نحن لطيفةً أخرى دلت على أن سعة بصره من سعة بصيرته التي تعودت أن تتطرق إلى ما هو خارج المعتاد والمتواتر.

هكذا النورسي، لا يسارع إلى تلقي الغنيمة فحسب،وإنما يتتبع التقاط الشذرات بعد أن يضع قدمه على الكنز من أول وهلة.

لقد عقب على الآية يقول: إن الهمزة الموجودة في البداية للاستفهام الإنكاري حيث يسري حكمه (الاستفهام الإنكاري) ويسيل كالماء إلى جميع كلمات الآية، فكل كلمة منها تتضمن حكما"[2].. ثم راح يبين هذه الأحكام[3]..

القراءة والتفكيك

نعلم أن التفكيكية -بمفاهيمها الحديثة- هي إجرائية فلسفية وتحليلية غربية، من إفراز أوضاع التفجر التي أحدثتها التطورات والحروب والفتوحات العلمية في العصر الراهن.. فروح العصر التي تمزقت تحت تأثير المدنية الصناعية، تجسدت على صعيد الفكر في منظومات فلسفية عكست أوضاع التشظي الروحي والرؤيوي التي آلت إليها ثقافات الأمم وروحياتها ومدوناتها الأخلاقية والعقدية.

والتفكيكية كفكر تفرَّعتْ هي الأخرى بحسب المنازع والاجتهادات، لكنها ارتبطت في مجموعها بإيديولوجية التمرد واللا يقين.

وجذور التفكيكية قديمة، ظهرت في كتابات وفلسفات القدامى ضمن وتيرة ظروف

---

(١) انظر الكلمات- الكلمة الخامسة والعشرون ٤٣٩

(٢) الكلمات- الكلمة الخامسة والعشرون ٤٤٠

(٣) راجع :الكلمات- الكلمة الخامسة والعشرون ٤٤٠

عصرها ورؤى مجتمعاتها، ومن المؤكد أن المنطق التفكيكي حاضِر في التوراة، إذ تضمنت بعض أسفار العهد القديم نزعة تمردية وعبثية واضحة اخترقت الإطار الروحي والأخلاقي للنص الديني.

هناك روح تدنيس ترشَحُ من مواطن كثيرة في العهد القديم، هناك سِيَرٌ لرموز شابَها التفحشُ.. هناك مواقف للرب يهوه نفسه تثير الحيرة والبلبلة.

ومن المؤكد أن ظاهرة اللامنطق لم تلابس مجموعة من النصوص التوراتية فحسب، ولكن جوهر الرؤية العقدية أيضا..

ولا غرابة أن تكون خلفية أبرز فلاسفة التفكيكية اليوم خلفية توراتية لا تخطئها بصيرة المتفحص في ما كتبوا وأصلوا من فكر.

لا غرابة في ذلك فإن المناخ الذي تنتعش فيه التفكيكية، باعتبارها منهجا للهدم والخروج عن المتواضعات، هو المناخ النصوصي المتسم بالتفجرات والتعارضات.

وإن هناك جملةً من المطارحات التوراتية لا يمكن أن تقرأ إلا بإجرائية التفكيك.. لأنها تبدو على واقع متهدم، ولا معقول، فالتفكيكية تستوعب ذلك الواقع المهدم من خلال استخدام قراءة الهدم بالهدم.

من هنا تراني أجد أن التفكيكية المعاصرة استهدفت -في ما استهدفت- التغطية على ما استشرى في الكتاب المقدس من فوضى ولا معقولية وفانتازيا تخرج بالنص عن نطاق الحكمة والعقل، ذلك أن زمرا من التحليليين انجذبوا إلى هذا اللون الترميمي من القراءة والتحليل، لأن انتماءهم اليهو-مسيحي[1] جعلهم يحرصون على خدمة النص المقدس والايديولوجية الكتابية من خلال ابتكار النظريات والمقاربات التي تمكِّن من إضفاء الوجاهة على النصوص المقدسة..

حقا إن التفكيكية باتت من أخص المناهج التي تقرأ بها الظواهر الاجتماعية والنفسية والأدبية والاقتصادية والاستراتيجية وما إلى ذلك، بل وأضحت أكثر المناهج القادرة على

(١) رغم كون أكثرهم غير مؤمنين.. انظر مثلا إلى كتابات ديريدا ولاكان وهبرماس وآخرين، واستقرئ نصوصهم، فستر أن الحضور التوراتي جلي فيها، وأن وازع التكييف والعقلنة ظاهر في معالجاتهم ومقارباتهم.. للموضوع مجال غير هذا

مفاعلة منطق العبث واللامعقول، لكن وازع عقلنة[1] ومنطَقَة النص التوراتي واضح فيها، ومرامي التجديد وإعادة التخريج جلية بها.. وفي هذا الإطار يمكن القول إن موسى ابن ميمون كان من طلائع التفكيكيين[2] رغم انتمائه إلى القرن الرابع عشر، لأنه تفطن إلى أحوال من الإختلالات الخطابية والمعنوية في التوراة، انبرى يعالجها من خلال رؤية تفكيك وإعادة بناء يمكن للقارئ أن يقف عليها في كتابه الشهير دلالة الحائرين.

وحين نصف بعض تحاليل النورسي بالتفكيك، فلا نقصد هذا المنحى المروقي إطلاقا، إذ الخطاب القرآني بريء من الإختلالات والنشازات، إنما مدلول التفكيك يعني هنا الاستبطان العمقي الذي يجعل الرؤية تتجاوز الأغوار المستكشفة، فتنفذ إلى مستوى إحالي أعمق وأكثر إفادة ومدلولية. معلوم أن قراءة أعلام التراث الإسلامي وتنظيراتهم في عصور الإسلام الذهبية كانت ذات منحى تفكيكي، فلقد رأوا للمعنى القدسي ظاهرا وباطنا، حدا ومطلعا، فهم لذلك مارسوا التجريب لكن بحس إيماني، إلا من شذ واشتط، فأولئك جمحت بهم الروح، فكان عملهم تنويعا لا ينال من صلابة الإسلام التي هي في القوة كالرواسي لا تؤثر فيها الليالي العاصفة.

قراءة النورسي لسورة الإخلاص مثلا استهدى فيها إلى منهج تتجدد به معانيها الأصلية عشرات المرات، فالمعنى الكلي للسورة يتعدد وتتنوع أداءاته وصوره على محور تفكيكي نفَّذه النورسي من خلال تعميق النظر في متن السورة.

لقد بدأ بإحصاء منظومة الجمل فوجدها ستا، وتمحص صيغها من حيث الدلالة النحوية لا سيما من حيث الإثبات والنفي، فألفاها ثلاثا ثلاثا، أي إن نصف تلك الجمل يعبر عن المعنى المركزي للسورة من خلال صيغ الإثبات➲ هو الله، لأنه أحد، لأنه صمد،

والنصف الآخر لتلك الجمل يعبر عن المعنى المركزي من خلال النفي ➲ لم يلد، لم

---

(١) التفكيكية ترى أن العقل بمنطقه الارسطي عائق أمام حاجات الإنسان المعاصر التي لا ينبغي أن تحدها قيود .. فاللغة والمسلمات والعقائد والقيم جميعا مظاهر إعاقة وحبس لروح الإنسان المتطلعة إلى التجريب اللامحدود.

(٢) ولما كان الانتماء الثقافي والحضاري لهذا الاسرائيلي انتماء عربيا إسلاميا ، فهو رغم يهوديته قد عاش واستفاد في انجازات العرب المسلمين، لذا يمكن القول إن هناك تفكيكية مارسها المفكرون المسلمون في سجالاتهم حول قضايا فكرية وميتافيزقية من قبل قضية الإعجاز وقضية الحسن والجمال والقبح والخير والشر إلى ما هنالك مما شغل المسلمين في العصور الوسطى.

يولد، لم يكن له كفؤا أحد[1].

وإلى هذا نجده قد استخلص البنية المعنوية والعلائقية بين الجمل، فرأى أن السورة تؤطر معنى كليا، تتقمص دلالته صيغتان، مثبتة ونافية، وأن كل جملة تترجم باقي الجمل، لأن لكل جملة معنيين.

إن عملية تحديد لفظ الجلالة (هو) أي الخالق، ورد بالإثبات وبالنفي، ولذا تُكوِّن هذه الجمل هوية مترابطة، مضمون كل جملة هو نتيجة للجمل الأخرى ودليل عليها في الآن ذاته.

وواضح أن هذا التمثُّل النوري لفحوى السورة وإخراجها هذا الإخراج التفكيكي، لا يخلو من وازع تغصُّني، تسنبلي، على معهود شأنه، فكثيرة هي الآراء والنصوص التي يطرحها النورسي في صورة معمارية، وتركيبية، أشبه بمن يصنع المضلعات الخماسية والسباعية والثمانية.

ذلك لأن النورسي يسقط قدراته العقلية والتصورية على الأشياء(الحسية) وعلى المعنويات مثل الآيات لأنه يراها متشكلة على هيئة(ألم يقرأ في الشجرة قوله تعالى الأول والآخر الظاهر والباطن") .

فترابط معاني الآيات وتلاحم بُناها وتراسل دلالاتها وإشارتها وتعاضدها في تشكيل المعنى العام للسياقات القرآنية يتمثله النورسي على صورة مشخصة، ملونة، ماثلة لعيان، إذ يرى أن الآيات تتصاقب في ما بينها بوازع إعرابي، حي، كامن فيها، حتى لكأن للآية عينا ناظرة لأكثر الآيات، ووجها متوجها إليها، فتمتد إلى كل منها حظوظ معنوية من المناسبات والارتباطات، وهو ما يتولد عنه ذلك الأسلوب القرآني عالي النقشة"[2]..

النورسي هنا قد تمثَّلَ واقع صلة الآيات فيما بينها، وبيَّن كيف أن كهرباء الدلالة تسري من وحدة كلامية(آية) إلى باقي الوحدات الكلامية(الآيات) الأخرى، وكيف أن تلك الطاقة ترتد ثانية في حركة ذهاب وإياب مستمرة، فتتوهج المضامين، وتتبدَّى أرشقَ ما تكون دلالة، وأجلّ ما تكون إخبارا، الأمر الذي يتيح للمتبصر أن يستجلي فيها وفي كل آن، وجها مستجدا.

لا شك أن ما ساعد النورسي على أن يتمثل الحقائق القدسية وأن يقرأها على هذا النحو الحيوي، هو طبعُه ونزعتُه الفكرية وعقليتُه التمثلية، وحساسيته الدينامية، فهو لا يعاين الأشياء

---

(١) انظر الكلمات- الكلمة الخامسة والعشرون ٤٢٨

(٢) انظر الكلمات- الكلمة الخامسة والعشرون ٤٢٩

ولا يتصور الأفكار والقضايا إلا ضمن إطارها الحركي، العلائقي، حتى قضايا الما وراء يقرأها في ضوء هذه الرؤية.

هناك مسافة ذهنية يتركها بينه وبين القضايا موضوع تفكيره، وبينه وبين المشاهدات الحسية والمعنوية التي يتأملها، وهذه المسافة هي التي تسعفه على أن يترسم حدود الأشياء ونطاقها ومسار حركتها وشبكة ارتباطاتها ووظائفها وتفعُّلاتها.. بهذه العقلية الوازنة المقوِّمة للأشياء عن بُعد، وتجرُّدٍ، أمكنه أن يرى ما للآيات من تماسك وتوطؤٍ وتواصل وتضافر في رسم المعنى وصنع الرسالة، وبهذه العقلية المتعالية ذاتها ظل يستقرئ الدقائق واللطائف في ذرات في الطبيعة ومجسماتها، فالتربة يراها الناس مادة الإنبات، والنورسي يرى حبة التراب أو ذرته الهبائية هي مكمن سر التخليق، وهي الفضاء الذي يبني فيه الخالق مصانع الإنبات ويقيم تجهيزات التجرثم والإبساق..

وكذلك يقدِّر الناس أن الماء هو عنصر الحياة عامة وكفى، لكن النورسي يرى أن في قُطَيرة الماء وجُزَيئِها الأدق يقوم المُرَكَّب الذي يمد البذرة بمادة إبْاقها ونَمائها..

هكذا هي دائما عين النورسي، كما تصنع بينها وبين الوقائع مسافة تستقرئها منها، تنفذ إلى أغوار الدقائق الذرية فتذرعها درسا واستكشافا، ففي الحالين، سواء أكان مع المشهودات الظاهرة الفسيحة أم مع المشهودات المجهرية الدقيقة، هو منقِّبٌ، كمن يسوح فوق بساطٍ طائرٍ يستطلع صحراء مترامية، كل امتداداتها مكشوفة لعيانه، لا يفوت البصر منها ملمحٌ مهما انزوى..

كثيرا ما يتحدث عن واقعه من خلال سوْقه الحجج الاستدلالية لأنه يستثمر ما صادف، وما وقعت عليه عيناه في محيطه، فهو لا يصطنع الحجة ولا يركِّبها شأن السفسطائي الذي أتقن تقنية التلفيق حتى بات يبني سبقه من مقدرته على قلب الحق باطلا وليس في الانتصار للحق " انظر مثلا إلى هذه الشجرة المنتصبة أمام غرفتنا، وهي شجرة الدلب ذات الأغصان الثلاثة..". إن استخدامه الوصف العيني من خلال صيغة خطابية زمنها حضوري، راهن، وبإشراك المتلقين من خلال نون الجمع(عرفتنا)، يجعلنا كأننا في المجلس معه..

يضيف:

فهي تمثل كلمة عظيمة ينطق بها لسان هذا الجبل الموجود في فم بارلا، ألا ترى كم من مئات ألسنة الأغصان لكل رأس من رؤوس الشجرة الثلاثة، وكم من مئات ثمرات الكلمات

الموزونة المنتظمة في كل لسان؟ وكم من مئات حروف البذيرات المجنحة في كل ثمرة من الثمرات؟

(إن النورسي الجالس معك، المخاطب لك عن محسوسات منظورة أمامك، لا يلبث أن يطير مجنحا يترصد موضِّحات دقيقة يلفت نظرك إليها، فهو بعد أن حدثك عن الشجرة، ها هو يرحل ليحدثك عن جذورها -وهي عنصر غير مرئي- من خلال حديثه عن بذيرات ثمارها- وهي أيضا عنصر غير مرئي- لأنه يهيئك لِتلَقِّي حجة معقولة، ملموسة، ماثلة لإدراكك..

يضيف:

وكم من مئات حروف البذيرات المجنحة في كل ثمرة من الثمرات؟

انظر إلى لفظ -الحروف- هنا، فهو لفظ مختار بوعي، لأن عين النورسي الباطنة لا ترى في الكون إلا صفحة كبرى خطَّ الخالق عليها ما شاء من جمل وقصائد ونصوص بواسطة هذه النواميس التي تأخذ أحيانا شكل بذرة تغرس في الأرض، وأحيانا أخرى شكل بويضة تفقس في جحر، وأحيانا ثالثة شكل دفقة ماء تقذف في رحم[1]، وهكذا..

يضيف:

ألا يسبِّح كل من تلك الرؤوس والألسنة لمالك الملك الذي له أمر كن فيكون؟ ألا يسبح بكلام فصيح وبثناء بليغ واضح، حتى إنك تشاهد تسبيحها وتسمعه؟ فالملك الموكل عليه أيضا يمثل تلك التسبيحات في عالم المعنى بألسنة متعددة، بل الحكمة تقتضي أن يكون الأمر هكذا"[2].

لا ريب أن النورسي يسمع تسبيحها، ويتلقى خطابها، ويشهد من أحوالها المعبرة ما لا يجحده العارفون.

النورسي لا يشاهد الأشياء الشاخصة في الطبيعة على أنها مجرد أشباح تملأ الفضاء، بل يراها ماهيات حية، عارفة، منخرطة في تأدية واجب التسبيح، فالنورسي يجعل للأشياء والظواهر الكونية وظيفة التجلي التسبيحي الملموس، إذ السماوات تسبح من خلال أجرانها المنيرة، والأرض تسبح بواسطة ما يعمرها من كائنات ومخلوقات[3]. وعلى هذا النحو يقرأ

---

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة عشرة ١٨٤

(٢) الكلمات- الكلمة الرابعة عشرة ١٨٨

(٣) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة عشرة ١٨٧

معاني قدسية وردت في الحديث الشريف ويطابق بينها وبين ما يلوح له في الطبيعة والكون من تشخيصات..

لقد ورد في الأثر أن للملائكة الموكلين بالأرض رؤوسا متعددة وألسنة كثيرة تلهج جميعا بالتسبيح، ففسر النورسي معنى تعدد رؤوس الملائكة في ضوء ما كان يقع تحت حسه من ظواهر طبيعية مسبحة، تحفل بها الأرض والسماوات ".

فالأرض لها ألوف الرؤوس ومئات الألوف من الألسنة لكل رأس.. تكون موكلة بملك موكَلٍ بترجمةِ تسبيحاتها الصادرة من كل لسان وثمرة.. فعناصر الكون في صلاتها ببعضها بعضٍ تشكل هيئة متواشجة وبنية متعالقة متفاعلة، فهي بمثابة كيان" الشخص الواحد ذي الرؤوس والألسنة المسبحة".

هكذا يتمثل النورسي في صورة الكون هيأة روحية مجسمة تؤدي وظيفتها التعبدية، إقرارا لبارئها بالربوبية، ونراه من ناحية أخرى يتمثل أفراد الأشياء (كالأشجار مثلا) كينونات متعددة الألسنة، فأغصان كل شجرة وأوراقها ما هي إلا مئات الألسن المسبحة.

ليست هناك مطابقة بين معتقدات النورسي الروحية وبين فلسفة المثل الافلاطونية، فإذا كانت الأفلاطونية تتصور الله ضمن دائرة ما أسموه العقول العشرة، وأن أعلاها (العقل الفعال)، وأن كوكب القمر أدناها..فالنورسي يتمثل الله ضمن نطاق روح القرآن، أي وفق عقيدة الوحدة المطلقة.. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(الشورى: ١١) .. ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(يس: ٧٨).. ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾(الملك: ٣٠).. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(المؤمنون: ٧٩)، فالله هو مصدر الوجود، وخالق الأكوان والكينونات جميعا بإرادة القدرة وبقانون الأمرية (كن فيكون)، "إن الله سبحانه وتعالى، القدير على كل شيء، يخلق الأشياء بسهولة مطلقة في سرعة مطلقة دون أية معالجة أو مباشرة ، حتى تبدو الأشياء كأنها توجد بمجرد الأمر"[1].

سنرى النورسي يجعل من صيغة هذه الأمرية (ك.ن.) علامة الصنعة الإلهية وماركة تسجيل قدسية.. فهي علامة إلهية وسَمَتْ كل موجود وكل كائن.. وأن الأشياء ما هي إلا تجسيدات مكثفة لأسماء الله الحسنى، أو هي بمثابة المرايا العاكسة لربوبيته تعالى بانعكاس أسمائه الحسنى عليها (الأفلاطونية ترى أن الموجودات مجرد ظلال، أصولها وجواهرها

(١) الكلمات- الكلمة الرابعة عشرة ١٨٨

الحقيقة في عالم المثل).

فـ"الصانع الجليل قريب جدا إلى المصنوعات، بينما المصنوعات بعيدة عنه غاية البعد. ثم إنه سبحانه مع كبريائه المطلق، لا يدع الأشياء وأكثرها جزئية وخسة خارج اتقانه"[1]..

ولكي يؤكد النورسي هذه الحقيقة يسوق مثال الشمس وعلاقتها بالكائنات في الطبيعة " إن الوظائف التي قلدها الأمر الرباني والتسخير الإلهي للشمس التي تمثل مرآة كثيفة لاسم النور من الأسماء الحسنى، تقَرِّب هذه الحقيقة إلى الفهم، وذلك أنه مع علو الشمس ورفعتها، قريبة جدا من المواد الشفافة واللامعة، بل إنها أقرب إلى ذوات تلك الأشياء من أنفسها، وعلى الرغم من أن الشمس تجعل الأشياء تتأثر بها بجلواتها وبضوئها وبجهات أخرى شبيهة بالتصرف فيها، إلا أن تلك المواد الشفافة بعيدة عنها بألوف السنين، فلا تستطيع أن تؤثر فيها قطعا، بل لا يمكنها ادعاء ذلك"[2]. هناك رؤية شهودية للوجود تحملها فلسفة النورسي الإيمانية، كل ما في الوجود هو من مخلوقات الله، وهو مظهر من مظاهر قدرته، وأثر من آثار ربوبيته، ومشهد مشخص لاسم من أسمائه الحسنى.

إنه يطابق بين قدرة الله وإحاطته المطلقة بالأشياء وبين شمولية فيض الشمس وقدرتها على النفاذ إلى كل جزئيات الأشياء وكلياتها، ومفاعلتها لها بانتظام يغطي ذراتها على سطح البحر وفي السماء[3].

من هنا كان الكفر بالله هدما وتخريبا، بل وكان إساءة في حق الكائنات عامة، وهو أشبه بإسدال ستار حالك أمام التجليات الجمالية للأسماء الحسنى، وحجبها عن الأنظار.. إن الكفر تشويش على الضمير الإنساني المجبول على الإيمان والاستعصام والاستنامة الروحية للغيب والتسليم للقدر.

في تلك الندوات حيث طفق النورسي يرسل القول والنجوى إلى النفس، نراه يواجه نفسه بالحقيقة السافرة، ويفتح عينها على ما يجفلها، على المآل والمصير، ويبين لها حقيقتها المتمسكة بخيوط عنكبوتية من الوهم والزيف، هربا إلى الأمام، إنه يفعل ذلك بمصداقية مبرأة

---

(١) الكلمات- الكلمة الرابعة عشرة ١٨٨

(٢) الكلمات- الكلمة الرابعة عشرة ١٨٩-١٨٨

(٣) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة عشرة ١٨٩.

من أي نقص نفسي، إذ يريد لنفسه أن ترى حقيقة القبر والمآل بشهامة[1].

لقد عرف كيف يجعل من مسألة الموت موضوع تسرية يبعث على الأنس والرباطة والسلوى غير الكاذبة ولا المموّهة، إذ ابتدع منطق التطمين الذي لم يعد يقتصر على التذكير بالوعد بالجزاءات الإحسانية وحسب، بل زاد على ذلك حجة اصطحابية لا مراء في أصالتها.. فهو يريد للنفس أن تعي حقيقة أن القبر هو مثابةٌ للقاء من ارتحلوا عنا، أي الوالدان والأحبة والأقارب وسائر الذين قاسمناهم الطفولة والزمالة وأطوار العمر..

إن النورسي من خلال بث هذه السيكولوجية، سيكولوجية تطبيع حادثة الموت، قد سدد بسهم القرآن، إذ روحية القرآن أقرت للمؤمنين بحتمية لقاء الأحبة هناك، وبشفاعة الأتقياء في ذويهم، والتواصل معهم على نحو أكمل وأرسخ، ولم تتطرق الكتب السماوية الأخرى إلى عالم الآخرة[2]، ولم تهيء أتباعها للإقرار بالمابعد كما فعل القرآن " يا نفسي إن أحبتَك كلهم وعلى رأسهم وفي مقدمتهم (حبيب اللهﷺ) هم الآن في الطرف الآخر من القبر، فلم يبق هنا إلا واحد أو اثنان وهم أيضا متأهبون للرحيل، فلا تديرنَّ رأسك جفلة من الموت، خائفة من القبر، بل حدقي في القبر وانظري إلى حفرته بشهامة واستمعي إلى ما يطلب، وابتسمي بوجه الموت برجولة، وانظري ماذا يريد[3]".

(١) انظر الكلمات- الكلمة الرابعة عشرة ١٩٣

(٢) ورد لفظ جهنم مرتين أو نحو ذلك في العهد القديم ، أما النار والجنة ، فلا وجود للحديث عنهما هناك..

(٣) الكلمات- الكلمة الرابعة عشرة ١٩٣

الفهرس

استفتاح ٥

مناجم النورسي ١٧

منهج الرسائل ١٨

وأما بنعمة ربك فحدث ٢٠

حركية ذهنه ترتحل بالمتلقي إلى آفاق غير متوقعة ٢١

نشوة قراء نص النورسي ٢٢

مزايا خطاب النورسي ٢٢

المستوى البرهاني ٢٢

النورسي المقاوم ٢٣

التفوق الاقناعي ٢٤

التدليل بالجنس الأدنى ٢٥

عالم ايكولوجي متبتل ٢٥

بلاغة الحشمة ٢٦

الخطاب العفيف ٢٧

التفكيك ٢٨

النورسي.. والبيئة التواصلية من حوله ٣١

الخطاب القرآني ٣١

جامعية ألفاظ القرآن ٣٢

البعد التنويري الإضافي ٣٤

للإنسان إرادة جزئية ٣٥

أهل الحقيقة طبقات ثلاث والنورسي أحد هذه الطبقات ٣٦

فاعلية الاستنباط العقلي ٣٧

فقه الحروف يفيد في بناء مواقف الاعتدال ٣٨

الحقل الإحالي التمثيلي ٣٩

قابلية اقتحام الإشكالات الشائكة ٤١

أركان العملية الأدبية التواصلية أربعة ٥١

امتياز السلف الأول بالتفوق الذوقي والاجتهادي ٥٢

العزلة تتحول من نقمة إلى نعمة ٥٤

منهج السير نحو بلوغ الغايات ٥٦

المعقولية والقلبية سمة الرسائل ٦٠
السوفسطائيون ٦٢
الأدبية ٦٤
غزارة الخطاب ٦٥
المخيلة وأسلوب المفارقة في تجلية الحقائق ٦٦
التداولية عند النورسي ٦٧
منهج الرسالة ٦٨
القراءة ٦٨
كيف يستبصر غريزة البقاء ٧٠
منعطف التجرد والتحول الحاسم في حياته ٧٣
جدلية التحول والتغير ٧٤
منهج الاستشفاء بالآية ٧٥
الشاهد الاستعاري والمثال الموضح ٧٦
الأمثلة الموضحة قريبة المنال بعيد المغزى ٧٦
القراءة وقوة الاستلهام ٧٩
العقلنة والتجريد ٨٠
معارف العصر ومنجزاته العلمية شكلت للنورسي مددا تنويريا مهماً ٨١
تعاليمه تستزرع ذوقا جديدا بديلا ٨١
الشواهد العامية إحدى أسس بيداغوجية التوصيل في الرسائل النورية ٨٢
منزع المراجعة وإستظهار النعم التي تحقق بها الاعتبار للآدمي ٨٣
الحديث بالنعمة ٨٦
التفوق ٨٧
الواقعة التفكيرية استيعابية شمولية ٨٩
مع المسائل الميتافيزيقية ٩٤
الاجتهاد ٩٧
الاستقرائية ١٠٣
النورسي يعرض بضاعته بين تجار البازار ١٠٦
عصفور بارلا ١٠٨
على قدر هامش الاختيار يكون مستوى العمل من حيث الكمال والمقبولية ١١٤
رؤاه تتيح معرفة فتوحية ١١٤
يد الله تغرس ١١٥

بالمحبة يتم الاستحواذ على الكون ١١٦
موضوع الحب وعفة الخطاب ١١٦
الحس التحليلي ١١٨
العقل الرياضي والنظرة العلمية بإزاء النظرة النبوية ١٢٠
العبادة نماء للعقل وتحصيل للذوق ١٢١
البلبل ١٢٣
الأسماء الحسنى الوظيفة والتحقق (السيرة الذاتية). ١٢٥
السيرة ١٢٨
السيرة والكشف عن صفحات الذات، جزء من عملية التوعية والتوجيه ١٣٠
القدرة على تثوير المفاهيم ١٣٤
أسلوب النورسي قرآني الروح، تغصيني السمْت ١٣٩
كيف يستشف أحوال المابعد ١٤١
البنية العضوية للجسم في الآخرة غيرها في الجسم الدنيوي. ١٤١
أسس معرفته ١٤٥
القرآن ١٤٦
من ثمرات تجاربه التأملية ١٤٨
الفنية في رسائل النور ١٥٥
استراتيجية الايعاز ١٥٧
القرآن وبيداغوجية الترغيب والترهيب ١٦٢
النورسي القرآني ١٦٦
يقرأ التراث الروحي ويلونه بألوان عبقريته المتميزة ١٧١
الرسائل تلميذ نجيب للقرآن ١٧٣
القراءة والتفكيك ١٧٥